

عبدالرحمن الناصر

رواية تاريخية غرامية

وهي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تشتمل على وصف بلاد الأندلس وحضارتها وعاداتها اهالها
في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي
(من سنة ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وما يلفت اليه دولته
من المتعة والسيادة وما بناه من القصور
الفخيمة وكيف كان يحتفل باستقبال وفود
ملوك أوربا بالمدايا وما كان من
خروج ابنه عبد الله يطلب ولاية
العهد نفسه دون أخيه الحكيم الح

تأليف

بهرجي زيدان

منشىء الملال

طبعت بطبعة الملال بالفجالة بمصر

سنة ١٩١٠

المقدمة

هذه هي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام والثالثة منها في تاريخ الاندلس . فان الاولى رواية «فتح الاندلس » تضمن فتح هذه البلاد على يد طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ مع بيان حلها السياسي والاجتماعي والديني قبل التح . والثانية رواية « شارل وعبد الرحمن » وتشتمل على فتوح العرب في فرنسا الى ضفاف نهر نوار في اوائل القرن الثاني للهجرة حتى ردم شارل مارتل . وهذه رواية « عبد الرحمن الناصر » تحتوي على وصف حال الاندلس في ایام عبد الرحمن الناصر اول من سبى خليفة من بني مروان هناك (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وما بلغت اليه دولته من المنعة والحضارة والمعاراة

فنطاع هذه الروايات جميعاً يستطيع تاريخ الاندلس السياسي والاجتماعي من فتحها في اواخر القرن الاول للهجرة الى ایام الخليفة الناصر الاموي باوائل القرن الرابع وقد بلغت هذه الدولة في ایامه ایان مجدها يوم كانت الدولة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء عبد الرحمن الناصر الاموي هذا في الاندلس وانخلفاء العبيديون او الفاطميون في افريقيا وانخلفاء العباسيون في بغداد وكان هو أعزهم جاناً واطل عليهم اياماً وأوسعهم حضارة

فنطلب اليه تعالى ان يأخذ بيدنا لاتمام هذه السلسلة انه السميع الحبيب

الفصل الأول

قرطبة والخليفة عبد الرحمن الناصر

قرطبة عاصمة الامويين في الاندلس واقعة شمالي نهر يعرف باسم الوادي الكبير في جنوب اسبانيا . وقد بلغت ایام حضارتها واج مجدها في زمن عبد الرحمن الناصر (تولى سنة ٣٥٠ - ٣٥٠ للهجرة) وهو اول من تسمى خليفة من ملوك الاندلس . تولى الملك والاحوال مفطر به والبلاد قائمة قاعدة لاختلاف الاحزاب وكثرة المطالبين من العرب والبربر غير الانفرنج المعاورين له في اشتوريَا وغليكية ونافار وبيلونة وغسكونية وغيرها . فما زال يحارب ويناضل ويجد ويجهد حتى دانت له الرقاب واستقر له الملك واستتب الامر . فتقرب اليه ملوك عصره بالهدايا وآوفدوا اليه الوقود من القسطنطينية وروميا وفرنسا وروسيا (ملك الصقالة) وغيرهم

ولما أحس من نفسه بالثورة ورأى الخلافة العباسية قد تضعضعت واس توالي الجند التركي على خلائقها سعى نفسه " امير المؤمنين " فلم يلق معارضة . وانشق في اثناء ذلك قيام الدولة الفاطمية (العبيدية) في المغرب وهم شيعة يطالبون الخلافة باسم علي فاصبحت الخلافة الاسلامية يدعى بها ثلات دول : العباسيون في العراق والقادسيون في المغرب والامويون في الاندلس

وزهرت قرطبة في ایام الناصر واستبحرت عمرانها وكثُرت قصورها ومتزهاتها - يكفي من ذلك قصرها الكبير لانه آية من آيات الزمان كان موقعاً من ٤٣٠ داراً ينبع منها قصور فخيمة لكل منها اعم خاص كالكامل والمحدد والحاizar والروضة والمشوق والبارك والرسن وقصر البديع وقد غالوا في زخرفها وانفاقها وانشأوا فيها البرك والجيجات والصهاريج والاسواط وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى اوصلوه اليها وزرعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها الى المصانع صوراً مختلفة الاشكال من الذهب والبريز والفضة والخالصة والخاس المسموة الى العباريات المائية والبرك البدعية والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المقوسة ينصب فيها الماء من انباب الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة او الطيور الجميلة على اشكال بد菊花

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ولم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء . وكان في مكانه كنيسة للنصاري شاهر لهم عليها السيلون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي بدمشق ثم اخذوا بتوسعته والزيادة فيه حتى بلغت سعنته في ایام الناصر ٢٢٥ ذرعاً في

ادرع . واغرب مانيه المأذنة لم يكن في مساجد المسلمين مأذنة تعدادها طولها الى موقف المؤذن
٥٤ ذراعاً والى أعلى الرمانة ٧٣ ذراعاً وعرضها ١٨ ذراعاً

ومما ابتدعه الناصر من القصور قصر الزهراء ذكروا انه بناء اجابة لطلب جارية له
اسمهما الزهراء على مسافة اربعه اميال من قرطبة . وهو عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق
الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ وعدد اعمدته او سواريه ٤٣٠٠ سارية بعضها
حمل الى قرطبة من رومية وافريقية وتونس وبعضاً اهداء صاحب القسطنطينية . وفيها
الرخام الابيض والاخضر والوردي والبغري . وكان في الزهراء مسجد فخم وعدة قصور
ووحدائق على نحو ما نقدم في وصف القصر الكبير . وفيها الجbirات تسing فيها الاسماك بالوانها
وانواعها واحواض الرخام المتفوش على اشكال شقي بين مذهب وغير مذهب في جملتها
حوض منقوش بمقاييس الانسان جي به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت الماء
بالبلس الشرقي المعروف بالموئس وجعل عليه ١٢ مثلاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر
النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة اسد يحياته غزال الى جانبها تتساقط
يقابله ثعبان وعقاب ونيل . وفي الجبيرتين حمامه وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة
ونسر وكلها من ذهب من صنع بالجوهر يحيى الملا من افواحها وقد انفق في بناء هذا القصر
ما يزيد على ٢٠٠٠٠٠ دينار^(١)

ناعيك يا كان في دولة الناصر من رواج العلم فقد كانت قرطبة كعبة العلم ومجتمع
العلماء ومقصد باعة الكتب . وكان افتتاح الكتب من جملة خصوصيات الحياة عدم
ـ كانوا يفعلون ذلك افتتاحاً بخليقهم وابتانه

الفصل الثاني

مكتبة في قرطبة

قال جوهر خادم المكتبة « مالي أرى الناس في شاغل عن النسخ والمطالعة اليوم
يا سيدى »

فاجابه صاحبها سعيد « انهم في شاغل عن كل شيء بالشوف الى رسول قيس
الروم الذين جاؤوا بالمداد اى من قساعطين بن ليون صاحب القسطنطينية الى مولانا امير المؤمنين

(١) تاريخ ائمذن الاسلامي ٩٧ ج ٥

الناصر نفرو جوامن قرطبة لمشاهدة الوفد قبل وصوله . « كأنك كنت غائباً عن قرطبة ؟ »
 قال الغلام « لم اكن غائباً ولكنني لم ابرح هذه الدار منذ اسبوع يا سيدى »
 فاتقه سعيد وقال « صدقت . فالخليفة لما بلغه ، قدم رسول ملك الروم امر ان يتلقوا
 احسن تلقى وبعث جماعة من خاصته يلاقوتهم في بيجاية وان يحسنوا خدمة الطريق فوصلوا
 امس الى مقربة من قرطبة فامر بارسال الجنود والعدة والتعبيبة للاقاتهم . فاشتعل أكثر
 الناس بالوقوف لهم في الطريق ومشاهدة موكيتهم فلم يأتنا احد منهم »

قال « وكيف هم رسول ملك الروم ؟ »

فاستغرب سعيد سذاجة خادمه فقال « انهم اناس مثلنا هل تحب ان تراهم ؟ »
 قال « كيف لا ؟ »

قال « ولكن ذلك غير ميسور لاحد لان الخليفة الناصر امر ان ينزلوا في الربض خارج
 المدينة عينة الحكم ولـي العهد وان يتنعوا من ملابسة الناس وان يقام الحجاب على ابواهم
 حتى لا يخاطبوا احداً ولا يراهم احد »

قال « يا اهيب وهل يخافهم على دولته ؟ »

قال « كلا ولكن ثالوثك میاسات لا تفهمها . هذا الفقيه ابن عبد البر قادم اعدده له
 المستند وضع له الدواة على المنفدة في غرفة المطالعة »

ولم يتم سعيد كلامه حتى وصل ابن عبد البر وهو من كبار الفقهاء في قرطبة وقد
 شب في حاشية الحكم ولـي العهد ثم لازم اخاه عبد الله بن الناصر . وكان عبد الله يحب العلوم
 واهل الادب ويكثر من مجالستهم

وكان ابن عبد البر هذا يتربـد على هذه المكـبة مثل كثـرين من الـباء ومحـبي
 المطالـعة . وقرطـبة يومـئـذـ في اوجـ مجـدهـ واقتـاءـ الكـتبـ فيهاـ من لـوازـمـ الرـخـاءـ كـماـ تـقـدـمـ
 بلـ هيـ كـالـاثـاثـ لـاـ يـسـتـغـفـيـ عـنـهاـ فـيـ بـيـتـ مـنـ الـبـيـوتـ لـاـنـ الـخـلـيـفـةـ نـفـهـ كـانـ عـجـباـ لـلـعـلـمـ
 مـقـرـباـ لـلـعـلـمـاءـ وـشـبـ اوـلـادـ عـلـىـ ذـلـكـ وـخـصـوصـاـ الـحـكـمـ وـلـيـ الـعـهـدـ وـاخـوهـ عـبـدـ اللهـ وـاقـتـدـيـ بهـمـ
 سـائـرـ اـلـدـرـلـةـ — وـالـنـاسـ عـلـىـ دـيـنـ مـلـوكـهـ . فـاصـبـتـ نـجـارـةـ الـكـتبـ مـنـ اـرـوجـ اـخـاراتـ

عـنـ الـوـجـهـ وـاهـلـ الرـئـاسـةـ فـكـثـرـ الـوـرـاقـونـ وـهـمـ الـذـينـ يـشـغلـونـ بـيـعـ الـكـتبـ وـنـسـخـهاـ

وـكـانـ سـعـيدـ صـاحـبـ هـذـهـ الـمـكـبـةـ قـدـ اـشـأـهـاـ فـيـ الرـبـضـ خـارـجـ قـرـطـبةـ فـيـ بـيـتـ عـلـىـ خـفـةـ
 الـوـادـيـ الـكـبـيرـ (نـهـرـ قـرـطـبةـ) فـيـ تـنـطـلـ عـلـىـ قـرـطـبةـ عـنـ يـمـدـوـ يـنـهـمـاـ النـهـرـ وـقـدـ جـمـلـاـ اـشـبـهـ بـنـادـيـ
 مـطـالـعـةـ مـنـهـ بـسـتوـدـعـ كـشـبـ اوـ دـارـ نـسـخـ . فـكـانـ اـدـرـاـهـ قـرـطـبةـ يـتـوـافـدـونـ عـلـيـهـ الـمـطـالـعـةـ وـالـشـرـاءـ اوـ
 النـسـخـ فـبـرـونـ مـنـ سـعـيدـ مـوـانـةـ وـلـطـفـاـ وـتـسـاهـلـاـ وـيـلـتـذـونـ بـهـ لـشـرـتـهـ لـسـعـهـ اـطـلاـعـهـ وـدـمـائـهـ

اخلاقه . وكان كثير الاحتفاء على الخصوص بابن عبد البر . وهذا يحسب احتفاؤه به مبنياً على اتفاقه منه بكتاب يسمى على يده لولي العهد او لاخيه عبد الله بن الراشر . لأن الفقيه كان معدوداً من خاصة عبد الله و كان هذا مغرياً باحتفاء الكتب فإذا سمع بكتاب بذلك في سبله الاموال الطائلة حق يقتنيه . وكثيراً ما كان يتعاهد من عذر سعيد بواسطة ابن عبد البر — ولكن احتفاء سعيد كان لفرض آخر يقصر ابن عبد البر عن ادراكه فلما اتى الفقيه من باب الحديقة خف سعيد لاستقباله في الدار و رحب به فدخل وعلى وجهه اشارات الجلة فجاءه سعيد و هش له وقال « ما بال الفقيه قد ابطأ علينا اليوم العمل كأن في جملة الذين خرجوا لشاهدة رسول القسطنطينية ؟ »

فقال وهو يخرج يده من جيب جبهه وفيها لفافة من الورق « كلّم اذهب معهم ولكنني شئت بالطالعة .. هل في مكتبةك كتاب البيان والتبيين للحافظ ؟ »

قال « كيف لا .. اذنك تشتعل باعداد خطبة لتلوها في يوم الاحتفال باستشهاد اولئك الرسل في حضرة الخليفة »

فحشك خحكة اعجب بنفسه ولم يحب وغلل ماشياً وهو يصلح عمامة ويخرج منها قليلاً كان قد غرسه فيها لما قام مسرعاً من منزله لمراجعة شيء في كتاب البيان والتبيين — ومشى سعيد أمامه إلى خزانة الكتب وهي عارة عن غرفة واسعة فيها رفوف مسمرة بالخائط وعليها الكتب مرتبة حسب مواضعها وأكثرها من كتب الأدب ولم يكن يتجاوز على النظاهر بكتب الطبيعيات والفلسفية لأن اصحابها كانوا متهمين بالكفر . وبخلافاً من أن يأمر الخادم المولى بحفظ الكتاب ان يستخرج كتاب البيان ويفدمه للفقيه امر سعيد بنفسه وحمله إليه مبالغة بالآلام . فتناول ابن عبد البر الكتاب وجلس على المسند المعد له وهو يقول « إن هذا الكتاب عندنا منه عدة نسخ في مكتبة مولانا الأمير عبد الله ولكنني احببت ان اخلو به هنا بمحوارك يا صاحبي »

فقال سعيد « إن ذلك من حسن حظي يا مولاي » وتركه وانصرف إلى تاجة من المنزل تشرف على النهر وكانت الشمس قد مالت إلى الاميل نرأى الناس في التوارب عائدين من ملاقاًة الوفد . وفهم من حدتهم أن الرسل وصلوا إلى ربض وتنزلا في منية الحكم . فوقف هنئه ساكناً واستغرق في تأملاته حتى نسي موقعه ولم ينتبه حتى ناداه جوهر الخادم فالثالث فذاه هو يشير إليه أن يأتي واسرع نحوه وهو يقول والدهشة بادية في وجهه « إن يلسرأني أمير المؤمنين ... » وتلعمت لسانه من اللعنة

الفصل الثالث

ياسر كبيز الخصيان

فاستغرب سعيد قدوم ياسر في ذلك اليوم وكان قد سمع بخروجه هو وقام الفقي الآخر لاستقبال رسل الروم مبهالاً في أكراهم. لأن ياسرًا وإنما كانا كباري الخصيان في القصر بما يشبه الباسح آغا الآن وكان الخصيان في ذلك العهد سطوة ونفوذ لا ينكر اصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ويدعم القصر السلطاني . فارسال كباري الخصيان لملاقاة أولئك الرسل بعد من المبالغة في الأكرام

وكان ياسر طويلاً القامة أيضًا الطلعة لانه من الصفة الابيض ازرق العينين غائرها عريض ما ينتميا بارز الوجنت اجرد الوجه مثل صائر الخصيان
فاستقبله سعيد وهش له ورحب به غرائي في وجهه اتقاضاً فتجاهل وقال «اهلاً بالاستاذ ياسر .. ودعاه للدخول الى قاعة المطالعة للاستراحة

فرد ياسر التفية بصوت رفيع كصوت الاحداث مثل اصوات صائر الخصيان ولم يتسم كعادته ولكنها اطاع سعيداً ومشى معه حتى جلس على كرمي تقدم له مجلس وهو يقللت فقال سعيد « هل يأمر مولاي بشيء اقدمه ؟ من كتاب أو قلم أو ورق ؟ »
قال « لا .. ولكنني حسبت الفقيه محمد بن عبد البر دخل هذا المكان »

قال « نعم يا سيدي وهو يطالع في الغرفة الأخرى هل ادعوه ؟ »

قال « كلا .. دعوه في عمله »

فأراد سعيد ان يستحسن فقال « ألم يخرج الاستاذ لملاقاة رسل صاحب الفلسطينية اليوم ؟ »

قال « بل خرجت وانا عائد الآن وقد وصل القوم الى الريض فاقتنا عليهم الحرس حتى يأمر المولدين باستقدامهم اليه » قال ذلك وفي خارجه شيء يكتمه

فقال سعيد « سيكون يوم استقبالهم حانلاً .. اين يكون ذلك يا ترى ؟ »

قال « في القصر الراهن من قصور الاخلافة انهم يعيشون المكان منذ أيام »

قال « كنت احبه يستقبلهم في قصر من قصور الزهراء الخجنة »

قال « ولكنهم امراء يعيشوا القصر الراهن مذو الغایة »

قال « انه سيكون مشهدًا جيلاً في داخل القصر »

فادرك ياسر انه يعرض برغبته في الحضور فقال « اذا ثبتت الحضور فادخل برفقة

القيقه ابن عبد البر فلا يعارضك احد . وان كنت انا في جملة المرجبين فلا بأس عليك » قال ذلك ويلع ريقه كأنه يهني ائمه اخواه خامره . وكان سعيد يراقب كل حركة تبدو منه « فما لحظ امتعاضه » قال وهو يظهر الاستغراب « أرى الاستاذ يشك في كونه احد المرجبين وهل يتقدمه احد في ذلك .. لا ريب انك ستكون في مقدمة المستقبلين »

فقال ياسر وفي صدره شيء لا يود التصرع به ليشفي ما في نفسه من الفيظ ولكنك امسك وقال « من الممكن ان لا تكون انا هناك »

ففحشك سعيد واظهر انه لم يصدق كلامه وقال « كلا انك ستكون في صدر اليهود ... أنا اعرف متزلك عند امير المؤمنين »

فنهاض ياسر شجاً ووضع اسلمه على فم سعيد كأنه يتنفس في اسكانه وابتسم وقال « كانت تلك المنزلة ... ولكن » وخفف ان يخونه « لانه فيقول ما يندم عليه فتظاهر بغير الحديث وقال « اني أرى اناساً قادمين اليك ولا احب ان يعلم احد بعيشي الى هذا اليوم ... استودعك الله » قال ذلك وخرج وغادر سعيداً يفكر في سبب مجئه وفي ما يذر منه من الالفاظ القليلة المدد انكثيرة الاداة وقد هم الاطلاع على ما في نفس ياسر

ويعد قليل أخذ الناس يتوافدون الى منازل سعيد وكل منهم يشغل بشيء من كتابة أو نسخ أو مطالعة وإذا أحوجهم الاستفهام عن امر اشكل عليهم عمدوا الى سعيد وهو يرشدهم الى ما يریدون . وكانت يعتقدون الصدق في ما يقوله ولو خالق المعمول لأنه كان قوي الحجة قوي العارضة وكان في عينيه شيء لا يكتفى به اي انسان اذا ثرث في عيني جليسه تغلب عليه كأنه نوّمه بالافتراضية الحيوانية فلا يشعر الجليس الا وهو طوع ارادته

وكان سعيد الراق هذا في نحو الاربعين من عمره صحيح البنية عريض الكتفين قوي العضل كبير الدماغ تجلب الرزانة في جيشه والذكاء في عينيه والثبات حول شفتيه . ولا يكتفي التعبير عن حدة عينيه بالذكاء فان ذيهمما قوة ارق من ذلك فيهما قوة الاقناع او في المأتم لانه لا يبحث احدا الا اقناعه . وكان خفيف العارضين والحياء قليلاً يفحشك ولكن الابتسام خلقة في وجهه . وقد مرض عليه بعض سنين يشتغل بالوراقه في قرطبة او يتجر بالكتب ولم يهمله احد الا عجب بأخلاقه الالية وذكائه المفرط . فكان الادباء من الفقهاء واعمال الدولة يترددون الى منزله كائين معهم الناس في ناد لطالعه والاستفادة ولكنك كان يشترط ان يكون ذلك في النهار فإذا غربت الشمس اقفل الباب

فلا رأى الناس يتوافدون في ذلك اليوم امر خادمه وليس هو خصياً مثل سائر خدم قرطبة فان اسلمه قلدوا اميرهم باقتداء الخصيان - على اختلاف اجناسهم وهي كثيرة يومئذ

وكانوا يحملونهم من اعتراف العالم الى دار الاسلام وخصوصاً الاندلس لانها كانت اكثـر
الملكـ الاسلامـية رخـاء في ذلك العهد - وانـا كانـ خادـم سـعيد بـورـيـاً منـ اهـل
المـغربـ فيـ تـهـاـيـةـ السـداـجـةـ

الفصل الرابع

تیلید خازن کتب الحکم

أشغل جوهر بقدم ما يحتاج اليه القوم . وتوجه سعيد الى الغرفة التي فيها ابن عبد البر فرأه منهكًا بالطاعة يكتب في كاغديده وهو يتأمل بما يكتبه وقد تزع عمانته واستفرق في التشكير . وبينما هو ينظر اليه سمع وقع خطوات وراءه فالثافت فرأى تليداً صاحب خزانة كتب الحكم ولل العدد ٢٠٠٣ ١٤٢٩ هـ . يده . فقبل سعيد للتحيز به نراه شيراني به قته شفهه ان ورثتم يدهم اس ان ابن عبد البر خلسة فلارأه مستغرقا بالكتابه ممس في ادن سعيد « ان الفقيه يعني خط با لشلوه بين يدي امير المؤمنين غداً في الحال منصب ائمي القضاة » قال ذلك وهز رأسه استحقاقاً ورجع وهو قايس على يد سعيد حتى دخل غرفة اخري وابن عبد البر لم يتبه فشق سعيد معه وهو ينتظر ما يهدوه فاذا هو يقول له « بلغني ان رجالاً من بني امية اسمه ابو الفرج الاصفهاني الف كتاباً في الاغاني هل سمعت عنه شيئاً ؟ » قال « سمعت انه يوّل هذا الكتاب من عهد بعيد ولا ادرى اذا كان قد انتهى الان »

قال «سمعت انه احسن كتاب في الادب»

قال سعيد «نعم وقد بلغني انه قضى معظم حياته في جمعه وتأليفه وهو يبني عن مائر الكث»

قال «بلغ مولاي الحليم خبر هذا الكتاب وان مؤلفه اموي مثلك فاحب اقتتاله و هو
يبذل ما تشاء ل الحصول عليه »

قال «ما يبعث في طلبه من العراق لأن صاحبه مقيم هناك»

قال « افعل ... ولا تذكر خبر قدومي اليك ولا خبر هذا الكتاب .. فهمت ؟ »

فاجاب «نعم» وقد ادرك انه يريد ان يتحقق ذلك خصوصاً عن ابن عبد البر لاتصاله

بعيد الله شقيق الحكم وكان عبد الله ينافس اخاه الحكم في اقتتاله الكتب فإذا ميّق أحد هما

الى اقتداء كتاب جديد عد ذلك بغراً له
ووَدَعْ تَلِيد سعيداً بالاشارة وَمَ بِالظَّرُوج فَتَبَعَهُ سعيد الى الباب وَقَالَ لَهُ « هَلْ كَنْتَ
فِي جَلَةِ الْخَارِجِينَ مَلِقاً فَرَسِلَ الرُّومُ ..؟ يَا حَبْذَالُ وَكَنْتَ مَعْكُمْ »
قَالَ « لَا مَا كُنْ »

قَالَ « لَوْ كَنْتَ لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٍ بِغَضْبِ يَاسِرًا » قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ شَيْئاً عَما
أَغْضَبَهُ وَإِنَّا أَرَادَ الْاسْتِطْلَاعَ
فَقَالَ تَلِيد « وَهَلْ بِلَفْكِ مَا حَصَلَ؟ أَنِّي أَرَى يَاسِرَ مُحَمَّداً فِي غَضْبِهِ لَآنَ قَامَمَعَهُ أَنَّهُ أَقْرَبَ
عَهْدَهُ أَفِي خَدْمَةِ الْقَصْرِ زَاهَ قَدْ شَمَخَ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ وَبِرِيدَانَ يَتَقدِّمُهُ فِي الْجَمَالِ وَفِي الْاحْتِفَالَاتِ.
وَلَكِنَّ يَاسِرَ عَاقِلَ لَا لَفْظَ يَحْاسِبُهُ عَلَى هَذِهِ الْجَسَارَةِ » قَالَ ذَلِكَ وَوَدَعْهُ وَهُوَ يَقُولُ لَا تَذَكَّرْ خَبْرَ
نَدْوِيِّ لَاحِدٍ

فَادْرَكَ سَعِيدَ سَبَبَ غَضْبِ يَاسِرَ وَاسْتَبَشَرَ بِهِ وَكَشَمَهُ وَعَادَ إِلَى عَمَلِهِ
وَلَا دَنَّ الشَّمْسُ مِنَ الْمُغَيَّبِ أَخْذَ الْأَزْوَارِ فِي الْاِنْسَرَافِ وَابْنَ عَبْدِ الْبَرِّ مُسْتَغْرِقٌ فِي درْسِهِ
وَكَاتِبُهُ وَلَمْ يَثُأْ سَعِيدَ أَنْ يَنْهِيَهُ .. خَرَجَ الْجَمِيعُ وَلَمْ يَقِنْ هَنَاكَ غَيْرَهُ فَاقْبَهُ لِنَفْسِهِ لِمَا
غَابَتِ الشَّمْسُ وَخَمَ الْفَلَامُ وَمَمَّ بِالْهَوْضِ فَرَأَى جَوْهَرَ الْخَادِمِ يَحْمِلُ إِلَيْهِ سَرَاجاً مُفِتَّاً وَهُوَ
يَقُولُ « أَنَّ مَوْلَايِ قدْ بَعَثَ إِلَيْكَ هَذَا السَّرَاجَ تَشْفِيَ بِهِ حَقِّيَّ بَنِ عَمَّالِكَ »

الفصل الخامس

عايدة

فَشَكَرَ لِهِ الْخَاصَّاَمِ بِهِذَا الْأَكْرَامِ وَظَلَّ جَالِسًاً يَكْتُبُ وَقَدْ خَفَتِ الضَّوْدَاهُ .. وَهُوَ فِي
ذَلِكَ سَعِيَ وَقَعَ الْفَدَامُ خَارِجَ غَرْنَتِهِ فَالثَّلَثَتْ فَلَعْمَ شَجَّهَا مِرَّاً يَهْبَأْشِبَهُ أَنْ يَكُونَ امْرَأَ حَاسِرَةَ الْوَجْدِ
جَمَلَةَ الْمُلْلَةِ .. فَاسْتَغْرِبَ ذَلِكَ وَانْصَتَ لِهِ يَسْتَطِلُّ شَيْئاً فَسَعَمَ سَعِيدَهُ يَرْجِبُ بِالْقَادِمِ بِصِيفَةِ
الثَّالِثِ خَمْلَهُ حَبِ الْاسْتِطْلَاعِ عَلَى رُؤْيَةِ النَّثَاءِ فَنَهَضَ وَأَلَّى مِنَ الْبَابِ وَهُوَ يَقْبَاهُلُ فَرَأَى
فَتَاهَ كَالْقَمَرِ دَلْمَعَةَ وَالْحَمِيرَانَ قَوَاماً خَاطَبَ سَعِيدَ بِلَسَانٍ فَصَبَحَ يَدْلُلُ عَلَى عِلْمٍ وَأَدَبٍ ..
وَسَعِيدَ يَقُولُ طَارِيَتِرَ أَهْلَهُ وَوَمَشَرَ سَهْلَهُ يَا عَائِدَةَ لَقَدْ طَالَ انتِظَارِي قَدْوَمَكَ »

فَقَالَتْ « لَمْ يَكُنْ تَأْخِرِيَ عَنْ حَمْدٍ وَلَكِنِي شَغَلتِ بِمَطَالِعَةِ كَتَابَ الْعَقْدِ الْفَرِيدِ لَابْنِ عَبْدِ
رِيدِ وَنَخْمِرِ فَانَّ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ جَمَعَ فِيهِ مَا لَامِشَلَ لَهُ فِي سَوَاءِ مِنَ الْمَرْوَضِ وَالشِّعْرِ وَالْأَخْبَارِ
وَالْأَمْثَالِ وَالْتَّارِيخِ تَاهِيكَ بِالْقَوَائِدِ الْأَصْحَى وَالْمَعْلَاتِ الْدِينِيَّةِ وَقَدْ نَظَمَ اعْمَالَ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
شَعْرًا وَتَوْفَى وَهُوَ يَنْظَمُهَا مِنْذَ ثَمَانِيَّ سَنَوَاتٍ (تَوْفَى ابْنُ عَبْدِ رِيدِ بِهِ سَنَةَ ٤٣٢هـ) » قَالَتْ

ذلك وخرجت من تحت ردامها صرفة كبيرة وقالت « وهذه هي النسخة التي نسخها »
فتناولها سعيد وهو يقول « انت نسختها يدك؟ »
قالت « نعم نسختها يدي وارجو ان تجبيك »

فأخذ سعيد يقلب فيها وينصفحها وهو يقول « ان هذا الكتاب نادر المثال ومع ان
صاحبها توفى في هذه المدينة منذ بضعة اعوام فاني لم أجده نسخة منه » بثقل هذا الخط و هذا
القبضط قال ذلك وهو بالمسير نحو غرفة ابن عبد البر وهو يقول « اظن هذه النسخة تليق
بဉزارة الامير عبد الله بن امير المؤمنين »

فلا رأء ابن عبد البر يتقدم نحوه عاد الى مجلسه واظهر انه كان مشغلاً بالكتابة فلما
وصل سعيد الى الباب قال « هل يأذن الفقيه بالدخول »
قال « تفضل وادخل »

فدخل والكتاب بيده وأشار الى الفتاة ان تدخل فدخلت وهي حامرة الوجه والذكرة
تعجل في عينيها فدهش الفقيه لرؤيتها واستغرب كشف وجهها على هذه الصورة وظنها الاول
وهذه نصرانية او يهودية لأن اليهود كانوا يعنون بالادب العربي . والثالث الى سعيد وهو ينتظر
ما يبدر منه فاذا هو يقدم له الكتاب ويقول « جاءني هذه الادبية بهذا الكتاب مكتوباً
بنحو يدها وهو العقد الغرید لابن عبد رب واظن في مكتبة مولانا الامير عبد الله عدة
نسخ مثله »

فت乍ول الفقيه الكتاب وهو ضخم واخذ يقلب على ضوء السراج وبحب جمال خطه وخبده
وقال « نعم فيها منه عدة نسخ ولكن لا مثيل لها وهذه النسخة واظن مولانا الامير يرغب في
اقتنائها اذا ارادت هذه الحسنة يعطيها .. وهل هي خطها يدكها؟ » ورفع بصره اليها
قال سعيد « نعم .. وهل تستغرب ذلك؟ فكيف اذا عرفت انها قفي هذا الكتاب
وعشرات مثله في ذهنها .. فلا تساها عن شعر جاهلي او اسلامي الا قائله »

فقال ابن عبد البر « ما شاء الله .. ان ذلك نادر في الشاء »

فقال سعيد « وفوق ذلك فهي تحسن الفتاة والفرس يكتب على العود »

فدهش الفقيه وجلس وهو يفكر بما يسمعه وقال « واغرب من ذلك انها نصرانية
او اسرائيلية على ما اظن »
قال « كلام بل هي مسلمة »

قال « ولكنني اراها مكسوفة الوجه .. واضن بهذا الحال ان تبتذله العيون »
فالثالث سعيد الى الفتاة كأنه يطلب اليها ان تخيب عن نفسها فقالت بالفاظ رخيصة

لما وقع على النفس اشد من وقع معانئها «لا ارى داعياً الى تقطيع الوجه الا ضعف النفس» .
واني على رأي عائشة بنت طلحة فقد كانت تجالس الرجال ولا تحجب وجهها عنهم ولما سئلت
عن ذلك قالت : ان الله تبارك وتعالى وسمى يسوس جمال احبيت ان يراه الناس ويرسلوا
فضلة عليهم فما كنت لاستره ووالله ما فيه وصمة يقدر ان يذكرني بها احد »

فلا سمع لقيه كلامها زادت دهشته واثنت على سعيد وقال هـ «من هي ؟ »

قال « هي جارية من مولدات بغداد »

فيهن لقيه رأسه المبارى وقال « الله در بغداد كم يخرج منها .. ان مثل هذه الجارية
جدية ان تكون في دور الخلافاء او الامراء »

قطع سعيد كلامه قائلاً « الا نظن مولانا الامير عبد الله يحب اقتتاء هذه النسخة
من العقد الفريد » وأشار الى الكتاب يده

ففهم لقيه ان سعيداً لا يحب ان يذكر خبر اقتتاء الجارية بين يديها فاجابه « لا اشك
في ذلك .. فاذا قدمته اليه بعد الفراغ من الاحتلال القاوم اخذه وأكرمه وانا اذكر له
خبرك قبل قدومك واذا رأيت ان تأخذ هذه الحسناً معك ليراها ويسمع حدتها كان
ذلك باعثاً على رضاه وسروره »

قال « من فعل .. والآن متى يكون الاحتلال باستقبال رسول القسطنطينية ؟ »

قال « اظنه لا يكون قبل بضعة عشر يوماً على عادة امير المؤمنين من تأجيل المقابلة
زيادة في الارهاب »

قال « اني شديد الرغبة في حضور ذلك الاحتلال »

قال « ساصطحبك معي .. ومني آن الوقت ابأتك وذهبتنا معماً »

شكر له وهم بالطروج فقال لقيه « قد آن لي ان اصرف فاذن لي اذا شئت »

قال « لك الخيار يا سيدى .. ولا يأس عندي من بقائك هنا في عملاك واذا اردت

كتباً اخرى غير البيان والثبيتين قدمته مع السرور .. وهذا كتاب العقد الفريد بين يديك
ولعله ينيدك في ما تحتاج اليه في خطبتك من الشواهد التاريخية او الحكم او الامثال ..

تفصل اجلس »

شكر ابن عبد البر احتفاء .. وقال « يكفي الان ما قرأته »

قال سعيد « اظن خطبتك ستكون جامدة واعية وارجو ان تنفع بها فاذا اتفعت بها
عاد ذلك بالتفع على اصحابك ولكن لا ادرى اذا كنت تعدني من الاصحاب .. »

نفجل ابن عبد البر من هذا الاطناب وقال « انك من اعز الاصدقاء يا سعيد واذا

وفقي المولى ونلت المنصب الذي اتوقعه بعد هذا الاحتفال رأيت متي ما يسرك فادع لي »
قال « اني ادعوك بكل خير واراكم اهلاً لا أكبر المناصب العالية . فن اولى منك
برئاسة القضاة او الخطباء ؟ »

الفصل السادس

المانيقزم

فظاهر ابن عبد البر بالتواضع واسع فوضع اوراقه في جيده وخرج . فشيعه سعيد
الى الباب ثم امر خادمه ان يوصد الباب وراءه فلا يسمع اي صاده تنهى تهدى طوبلاً وعاد
الى موقف الجارية فإذا هي لا تزال واقفة في التظاره . فلما استقبلها نظرت اليه بيدين
براقين تكادان تتطقان وقالت « هل تاذن بانصرافي ايشاً ؟ »

فasher اليها ان تجلس وتلقت حق يتحقق خلو المكان من الرقباء بخلست على وسادة في
غرفة ليس فيها غير يساط ومتناشد صغيرة لوضع الاقلام أو الكتب أو ادوات الكتابة وسراج
قائم على مسرجة يلتف طيبة فيتطاير ساجده في تلك الغرفة همساً كائناً لتصاعد زفات عابدة
ولا يشعر سعيد بها أو لعله شعر وتجاهل

فلا قعدت قعد أمامها وهي تنظر اليه فلما وقع بصرها على بصره بادرت الى الاطلاق
لانها لانتطبق الفرش في عينيه لحظة فإذا فهمت أحست كانت ساماً تخترق بصرها الى
احشائها أو هي اشعة كهر بائية تتنفس لها جوارحها ولم يكن هو يجهل ذلك ولكن مطالبه غير
مطالعها فلما اطرقت قال لها « ما بالك لا تنظرين الي »
قالت « ألا تعلم اني لا استطيع النظر الى عينيك ؟ »

قال « كثت احبسك لتعلين ذلك حيا »

قالت « لم يبق باعثاً على الحياة يتنا وقد اطمعتك على مكنونات قلبي ولغاها ملأاً »

قال « يسرني انك فهمت مرادي وذهب سوء الظن »

قالت « نعم فهمت . ولكن يظهر لي انت هذا الانتظار لا آخر له وانت قائم ببعض
الكتب ونسخها ومقابلة الناس ومحاسنتهم » قالت ذلك وايرقت عينها وظهر الارتباك في
شفتيها كأنها تخفي شيئاً ت يريد ان يفهمه سعيد بدون ان تقوله
اما هو فاحسن بحدة ذلك التوبيخ فتغيرت ساختته وقال « لست ورها ولا انا ساختها كما تعلين
وانما انا ... » والثنت خوفاً من ان يسمعه احد وسكت وهو يحرق اسنانه

قالت « لا تنفب يا سيدى • ولا تخبني أباًتك ولكنني استبدلى * الخجاج .. انت
شاباناً كاد ينففي في هذه الديار مشترىن .. »

نرفع بصرهُ اليها وقال « يحيىي منك حماشك في سبيل الامر الذي جئنا هذه الديار
من اجله ولا تقليني جاهلاً مراidak فانا اعلم انك ارق نفساً من ان يكون مطلبك مني مثل
مطلوب سائر النساء الجاهلات . وقد تعاقدنا وتمعاقدنا على ذلك . وأماماً استطلاوا لك انجاج فقد
يكون في محله وقد تكونين مخطئة فان لكتك اجل كتاباً .. وهل تخسيبي غافلاً .. ولكن
اعلي يا عايدة ان الساعة دلت وفتح باب الفرج الان .. واصبح اقام اعمل عليك » قال
ذلك ونفرس في وجهها
لتحمست وقالت « عيَّ أنا ؟ .. اني داع اشارتك .. متي بلغ من الامر ان يكون
قفاوهُ عيَّ فقد انففي »

فأعجب بذلك القول الحال على قوَّة المزية والخرم وقال « اطعيتني ؟ »
فتنهدت وقالت « وهل اقدر ان اعصاك .. لا اعلم ما يعنينك من التأثير في خاطري ..
اني لا بقى بصرى على بصرك الا شعرت كأنك غلبتى على امرى وقيدت ارادتى بارادتك
فأشعركاني عضو من اعضائك يخضع لارادتك وبعضاً اني .. فكيف تسألني اذا كنت اطيعك؟
قالت ذلك واطرقت جاء

قال « طعيتني حق الموت ؟ .. »

قالت « حق الموت وبعد الموت »

قال « لا اعني ان تعرضي نفسك لموت بل اعني اذا اقتضت الحال ان تقتل احداً يدك
هل تفعلين .. ؟ »

قالت « اذا كانت ذلك في امكانى افعله » قالت ذلك وقد احست بقشعريرة
خفيفة وسكت

لتحفظ للوقوف ودو يقول « اني ذاهب الساعة الى الاجتماع »

فتنهدت وقالت « ألا يزال القوم يجتمعون كالعادة »

قال « نعم وهو يزدادون عذداً وقوءة حتى دخل في جمعيتنا هذه كل رؤساء القبائل الناقلة
على الناصر وفيهم آل حفصون الذين عليهم على امرهم وجماعات كثانية وغيرهم من البربر وانما
خمن ترقب الفرس »

قالت « وهل هم يعتقدون حق الان انهم يجتمعون لاصلاح داخلية بلا دام »

قال « ان المفهوم من اغراض هذه الجماعة عند اعضائها انها تشكى من إيهار الناصر

للحصين الصالة على إبناء العرب أو غيرهم من الاحرار . وتنخدع بذلكه وأسرافه . هذا كل ما يفهمونه من الأغراض . وليس في هذه البلاد من يفهم حقيقة الغرض الاصلي الا أن وانا فابقى على الكتاب

فاطرت لحظة وقد بدا الاهتمام في بيئتها وقالت « دعني اذهب معك »
قال « ولماذا ؟ »

قالت « أفعل كما تفعلون .. لعل استحق القوم على العمل »

قال « أحسنتر هيا بنا » ونهض فنهضت معه وقد انتقت بروائتها فامسك بيدها وخرج من باب آخر في المنزل ومثيا في الغلام وهي لا ترى شيئاً ولو مشي بها الى الجمجم وهو قابض على يدها المشت ولم تبال لانها اسيرة ارادته كا يخضع من يسام نوماً مغطيساً لارادة متوجه بالاستهواه

مشياماًدة بين صعود وهبوط وقد يبعد عن الابنية حتى وقف بها في مكان سمعت فيه عذين ساقية وخرير ماذا فقال « وصلنا »

الفصل السابع

الاجتماع

فنظرت الى ما حولها فرأت بين يديها ما يجري في نهر عرفت ذلك من لسان سلطنه في الغلام فقالت « نحن على ضفة الوادي الكبير (نهر قرطبة) »
قال « أصبرني » وأخذ يدها وادخلها دهليزاً شديداً للسلام بجانب الساقية فلمسا الخائط حتى اطلا على باب فاستخرج سعيد من جيبه مفتاحاً فتحه به ودخل واقفاً وراءه وعايدة تحملق بعيانها من شدة الالام فإذا هي ترى شهاعاضيفاً ما زال يشتد حتى ظليرأت نفسها عند باب مغلق فتقدما سعيد وقرعاً مخصوصاً ففتح له ونظر الى عايدة على التور فرأى سحتما قد تغيرت لشدة القلق في اثناء الطريق فاشارة اليها ان ترخي النقاب فعمت ودخل أمها . ثم امرها ان تدخل ومشي بها الى مجلس في صدر القاعة فاجلسها على وسادة الى جانبها وتفرست في الوجوه فرأت شيئاً و شيئاً عرفت بعضهم ورأت أناساً ينهم من رجال الدولة الرواية افسهم فتهببت برها ثم سمعت سعيداً يتكلم فقال « يا قوم نحن الان في جلسة مقدسة وقد اتيت بهذه الادبية من اهل دعوتنا لعلموا ان النساء يشاركتنا في النعمة على الحالة الحاضرة .. قال وفي نحن صابرون ؟ »

فنهض رجل من الحضور وهو في عنفوان الشباب وقال «فنن صابرون لصبرك ثم
بذا فاتنا فائتون»

قال «صدقت .. ولكنني لا أرى الجهة تنفع . انت الامر الذي نحن ساعون فيه
يحتاج الى إعمال التكراة . فهنن ساعون في المطالبة بحق ضائع . ان هذا الرجل الذي سمي نفسه
خليفة وتلقب باسم المؤمنين قد استبد بالاحكام واجزى المذاهب من اهلها فسلبتها الى جماعة
من الخصيان والعيدين حملوا اليه حمل الافتخار من اقصى الشمال فاشترامهم كاشتري الماشية
ثم اختصهم بقربه واغفل اهله وابنه عترته ولم يبق الا ان يولي القضاة فتن من قياداته الصقالبة
او الافرج .. انه ينفق الاموال في بناء القصور واقامة القواطيل ويصنع سيجارة البناء من ذهب
وقد نهى الله عن ذلك ^{١١} ان الذين فعلوا هذا قبله اخضعوا الدولة والمملكة فتبصرروا
في امركم »

فنهضت عابدة والنواب لايزال على وجهها وقالت «اني فتاة لا اعلم عليكم ولكنني اعلم
ان طول الصير عجز وان المبادرة حزم — ان عبد الرحمن صاحب هذا البلد قد افرط
بالاسراف وحطط من قدر العرب وغيرهم من المسلمين الذين هم اصل هذا الدين وعمادة فهد
باكثر من اصحاب الدولة الى الخصيان والعيدين واستكثروا من هو لااد حتى غصت بهم قصوره
وابتق قصر الزهراء على اسم جار يده وملأه بالخصيان والجواري والعيدين . ان في
هذا القصر وحده ١٣٧٥٠ فرن من الخصيان وفيه من الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ وعدد
الساده الصغار والكبار فيه ٦٣٤ ما فائدة الدولة من هو لااد وهو ينفق عليهم الوف الوف
المذاكير من مالها .. انتمونكم مقدار النفقة ؟ ان اصحابها فوق خاتمي ولكنني اذكر لكم
مقدار ما ينفق لاطعام اصحاب الزهراء .. علیت ان تبلغ ذلك في اليوم ١٢٠٠٠^٤
خبيزة وستة اتفزة من الحص — تلك هي نفقة طعام اصحاب احدى البغيارات فلما يكون
مقدار النفقة على سائر حيوانات تلك القصور من الخليل والاسود والكلاب بلكم هي نفقة
اولئك الالاف من الخصيان والعيدين . واما البليمة من كثرة النساء لان كثثرهن تكثير الخصيان ..
هل فيكم من يقدر ان يعرف مقدار النفقة ؟ كلا .. ولكنكم تعرفون جميعاً انها باهظة »

كانت تقول ذلك بصوتها الرخيم فلما وصلت الى هنا بلعت ريقها وسكتت هنيهة ثم
عادت الى الكلام فقالت «هو لااد الخصيان الجلوسون بالشرا .. اصبحوا الان كبار رجال
الدولة كصاحب الخليل وصاحب الطراز وقد اخذذ منهم بنده وحاشيته وجالسهم وفربهم ..

وأصبح اذا اراد ان يكرم واغداً بمنتهى الخصوصية كافع اليوم بانفاذه يسرًا وقاماً لاستقبال رسل ملك القسطنطينية، وقد اخذ من العبيد ايضاً جندًا وحاشية واهمل العرب والبربر الذين فتحوا هذا البلد وجالدوا في سبيل الاسلام — ان اعماله هذه دليل على قرب سقوط هذه الدولة . ولا يغرنكم ما تسمعون به من الشعب ولا ما شاهدونه من اسباب الرخاء والترف فقد كان مثل ذلك او أكثر منه في الدولة العباسية على عهد الرشيد والامون ولكنهم اهملوا أهل عصبتهم فاستقووا بالاتراك يشاربون بهم . فصار النفوذ الى الاتراك وهو صائر هذا الى اصحاب ان لم تمنعوه عبادتك . ويكتفي لفناة مثلی ان تقول ذلك واذارأيتني اني امتعطيس عملاً اندبوني له « والسلام »

وكانت تتكلم والحضور كان على رؤوسهم الطيور وقد احسوا به اهتمام فنهض شاب مخمس وقال « اني افدي الامة بنفسى اندبوني للقتل او الفتن .. ان اهلي وعترتي يبعدون بالثلاث وهذا دمي بين ايديكم »

وصاح صالح بمثل ذلك واعت الفوضاء فوق سعيد وقال « لا حاجة بنا الى الجلة انظروني فاخبركم بالوقت المناسب . لكنني اقدم اليكم ان تجعلوا نصب اعينكم ان هذه الدولة لا يأس من بقائها واما العيب في اميرها ولا نرى وفي عهده الا مثله ؟ فان اقرب المقربين اليه خصي صقلي هو جعفر . فإذا حارت الخلافة اليه هل يرجى منه غير ما نراه من ابيه ؟ لقد اعني عبد الرحمن ابصار الناس بالابهة والزخرف .. اعياها بالقصور التي بناها بماربته . وابنه الحكيم سيكون مثله .. ولا بد من النظر في من يصلح لملك سواهما .. على اني اشكر هذه الفتنة التي اتنا الليلة وبث فيها روح النشاط واللمحة وهي نفسها سيكون لها شأن في هذا العمل الجليل »

وبعد قليل انقضت الجلسة وقد اقسم كل منهم على الكفاح والثبات وعاد سعيد ومعه عابدة من حيث اتي حتى اذا وصل منزله قال لها « لقد اعجبتني لانك لم تذكرني دولة العبيد بين ولاقلت شيئاً عن الشيعة لثلا يستفسرون »

فقالت « الم اقل لك اني اشعر كافي عضو من اعضائك اما اقول ما توجه اليه ويكفي ان تزيد ذلك وان لم تقله والآن اسمح لي بالانصراف » قال « موعد اللقاء يوم القيمة الى الامير عبد الله تقدم له العقد الفريد وانا ابعث اليك بالخبر في حينه »

فتحت راسها ايجاباً وابتسمت وانصرفت وهي تلتفت اليه وكان خادمها الخصي في انتظارها خارجاً ليشي في خدمتها الى متى

الفصل الثامن

المراجعة

انصرفت عابدة وسعيد يشعما يصره ثم وقف حيناً وهو غارق في بحار المواجهات ينظر الى الارض وهو تارة يحك ذقنه بسبابته وأخرى يشاغل باصلاح قبة كان يلبسها على رأسه كالمرقبة والظلام واقف ويده المصباح ينتظر امره ولا يمس ان ينطليه توبجاً مما في وجهه من ملامح الاهتمام والارتباك . ثم اتبه سعيد لنفسه ومشى الى غرفة الرقاد وأشار الى القلام ان يضع المصباح هناك ويفهي

ثم نهض سعيد واغلق باب الغرفة وابتلى على فراشه ولم يبدل شيئاً من ثيابه كأنه لا يتوبي الزقاد في تلك الساعة لما قام في ذهنه من التذكرةات المقلقة . غلل مستلقياً بربطة وهو غارق في التفكير ثم جلس بخفة واخذ يدعي نفسه قائلاً « ماذا اعمل ؟ انها تحبني ... تحبني كثيراً ولكتني لا اشعر اني احبها .. بل لا اندر ان احبها مع انها جميلة وذكية و .. ماذا لا احبها وارجع قلبي من التفكير بسوهاها .. » ولطم كفه على جبينه وحرق اسنانه ونهض واخذ يمشي في الغرفة ثم وقف وقال « مسكينة عابدة انها جميلة واديبة وذكية وهي تحبني بل هي تعشقني وتستهلك في سبيل مرضاتي .. فلماذا لا احبها ؟ .. ماذا لا احبها وائزع صوره تلك الفاسدة القاتمة القلب الشاغعة الانف من ذهني .. فعم يبغي لي ان ابغض هذه واردها واطرد خيالها من خاطري .. آه اني اذا فعلت ذلك فانا سعيد البطل الحالز واكون اهلاً للامر الذي يمحبني هولاً لا اسع فيه واني اغافت هنا نصراً لاظلومين ودفعاً لظلم الطالبين .. فعم يبغي ان يكون هذا غرضي الوحيد فعم اذا ظررت ذلك اخيال من خاطري خل ذلك المتكبرة القاتمة .. اذا زعمتها من فكري واحببت عابدة - اذا فعلت ذلك يرتاح قلبي وافرغ للحمل العظيم الذي يتوقعه الناس مني .. فعم هكذا يجب ان اعمل هكذا يجب ان يكون سعيد القائد الحكيم الحالز .. »

قال ذلك واخذ يخلع ثيابه خلع الفراشية وعلقها بوتر في الخاطط ثم رفع القبة ودار وهو لا بدري اين يضعها لاضطراب خاطره فرمى بها الى الارض واطلق المصباح واستلقي فعادت اليه هواجسه ومبخره النوم وترأكت عليه اخيالات . فجعل الغطاء فوق رأسه كأنه يختبئ من اخيالات فلم يرها الا تزداد وزداد تنبه حتى سمع دقات قلبه باذنه فصبر عليها فأخذته سنة الومن هنيةه فرأى ازعجه فوش من الفراش كالجحون

وهو يقول « لا لا ... يجيب ان احب عابدة التي تكاد تعبدني .. واتزع تلك الصورة من خاطري . والاً فما انا سعيد كما يسمونني .. ما يالي لا اشعر اني قادر على ذلك .. ما هذا الحال الذي يتعدد امام عيني؟ .. اذهب عيني .. دعني وشأني اني قد عزمت على السلو .. كيف لا .. اني أشعر بقوة أقدر ان اخرج بها الجبال واغلب اعقل الناس وأدهاهم افلا اقدر على امثالك قلي .. ماذا ارى .. هذا خيالها ..» واطبق كفيه على عينيه كأن امامه شجاعاً لا يريد ان يراه وقال « اذهب عيني .. دعني وشأني قد آن لي ان ارجع الى رشدي وقد ادركت الاربعين .. فيجيب ان انسى عواطف ابناء العشرين والثلاثين .. نعم يجيب ان انساها لانها نسيتني وطلقت بسواي .. علقت بسواي؟ اذا هي اخترتني فيجيب ان انتقم منها .. انتقم منها؟ لا لا .. لمها معدورة واذا رأيتها نذكر الماضي وتعود الي .. هل يكون ذلك .. وافرحته اني اراها تبسم لي .. تبسم بعائقتي .. آه ما اجمل رضاها .. انه ينسني عابدة وسائر العباد .. هل يوجد على الزمان بذلك؟ .. نعم لا بد ان يوجد .. سأجعله يجود رغم اتفه .. سأضحي بكل شيء في سبيل الوصول الى تلك الحبيبة فاما انها او انتقم منها ومن ..» وسكت لانه سمع حركة قويم ان عابدة قادمة نحوه فوقف والظلام حالت وهو يتوقع ان يسمع قرع الباب فلم يستمعه فعلم انه واه و لكنه عاد الى تذكرة عابدة فقال « وعابدة المسكينة أهملها؟ لا .. بل أجعلها سعيدة مع سواي .. او .. ولكن بعد ان تخليتني في غرضي ..»

الفصل التاسع

السر والتجريم

قفى سعيد معظم الليل في امثال هذه المواجهات ولم يتم الا عند الفجر بعد ان تعب وخارت قواه وأصبح في اليوم التالي وعاد الى عمله فشغل عن هواجسه بقابلية الزائرين وهو على اخر من الجر في انتظار يوم الاختفال وقد أخذ في التفكير والتدبر لينتفع من الاجتماع في ذلك اليوم

وانتبه عابدة في اثناء الانتظار لذرع الى روبيه بالسؤال عن وقت الاختفال فاجابها انه لا يزال ينتظر الخبر بذلك . فشككت عنده حيناً تشاغل بقليل الكتب وهو يهدى السرور بروبيتها وفي خاطره تردد لم يظهر طالنه كان قوي الارادة كبير المطامع لا يالي بما يقف في طريقه الى غرضه ولا يعتقد يرتكبه في ذلك السبيل من الكبار فاخذ ساعات

اجتاعي بعابدة في اذاد تلك الفترة فرصة لتوسيع المعدات التي ينوي اعدادها لتنفيذ غرضه وهي توافقه ولا ترى غير ما يراه . وفي مجلة تلك المعدات كتاب قديم استخرج له من خزانة وأخذ يقلب صفحاته وفيها رسوم واشكال من قبيل الطلاسم واستخراج الخبايا وهي لا تزداد بذلك الاً فلما يه واقتاداً له حتى صارت تعتقد انه قادر على كل شيء

وهما في ذلك أنباءاً لها الخادم بقدوم الفقيه ابن عبد البر تخفف سعيد لاستقباله فلما دخل ورأى عابدة فرح بها ووافق وجودها غرضاً جاء من أجله . فجأاً وسلم على عابدة سلام من يعرفها فردت اخيه بأدب وحشمة زادتها رغبة في عينيه فوجه كلامه إلى سعيد قائلاً «أظنتني أتيت في غير الوقت المناسب»

فأظهر سعيد الاحتفاء الكبير وقال «بالعكس يا ميسدي فقد جئت في ابان الحاجة اليك» فنظر إلى الكتاب الذي بين يديه وقال «الملك عثرت على كتاب جديد؟» قال «كلاً يا مولاي .. ان هذا الكتاب قديم» وجعل يقلب فيه فوق بصر الفقيه على رسوم واشكال تعود ان يرى مثلها في كتب السحر فقال «وساحر ايضاً؟ .. انك رجل نادر المثال»

قال «لا تستغرب شيئاً ايهما الفقيه فان الانسان اذا جد وجد ولا ارجاني اعرف شيئاً لا يستطيعه سواي .. وفي كل حال فليس لي ما للفقية من العلم الواسع في الفقه واصوله وهو الخطيب المفوه ..»

قطع ابن عبد البر كلامه على كيفية يومه بها ان خاطراً خطر له في تلك اللحظة ولم يكن في باله من قبل مع انه جاء من أجله فقال «ليس في شيء من ذلك .. وقد أذكرني أمر الخطاب»

فأدرك سعيد ما في نفسه فسبقه الى القول «اما قلت ما قلته لا تدرج الى سباع خطابك هل أتمته؟»

فـ«اما ابن عبد البر يده» الى جيب قطفاته واستخرج منديلًا فيه لفافة فضها وهو يقول «هذا هو الخطاب .. ولم يأتِ كما كنت احب .. ولكن لا ا Bias به» فأوام سعيد الى عابدة فقالت الفقيهة «لا افتنا نتحقق ان نسمعه قبل مولانا أمير المؤمنين» قال وقد أثار قوله فيه «كيف لا؟ اذا شئت تلوته عليك ولكنني لا اراه أهلاً لاجباب اديبة مثلك ..»

فأشحت وأشارت اليه ان يقرأ اذا شاء فقال «أتلوه عليك على سبيل التبربة واذا بدا لك انقاد قوله»

فأشار سعيد بعينيه وشفتيه انه يحيى الفقيه عن ان يكون موضع نقد خسيف مثله . ثم أصلح الفقيه موقفه وأخذ يللو الخطاب كا يليل في حضرة الخليفة وسعيد وعايدة صامتان مصغيان ييديان الاعجاب عند بعض المواقف وهو موجود وما أتى على آخر الخطاب حتى املاً ايجاباً بنفسه وسعيد وعايدة يعلمان ويعجبان حتى قال سعيد « ان هذا الخطاب اذا قدره امير المؤمنين قدره جعلك قاضي القضاة او شيخ اهل الفتوى »

خفي الفقيه رأسه تواضعاً وهو بالحقيقة يعتقد في نفسه اضعاف ما سمعه ولكن له خطاب سعيداً قائلاً « ان ذلك يرجع الى التوفيق فاذا وفقت الى ساعة سعيدة ووازرتني بدعائك نجحت ان شاء الله .. ولكن هذا كتاب الطوالع يدك اخبرني عما سيكون من حظي بعد تلاوة الخطاب »

فقال وهو يفتح الكتاب « ذلك يتوقف على اليوم الذي سيعقد فيه الاختفال اذ كل يوم طالع قد يوافق تجملك وقد لا يوافقه .. هل تعرف متى يكون الاختفال ؟ »
قال « عينوا له يوم السبت القادم الواقع في ١١ ربيع الاول »

فأخذ سعيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأ ويعيد القراءة ويعيد التقليل وقد بدت البغثة في عينيه وهو يقول « أنت موْكَد انه سيكون يوم السبت من كل بد؟ .. لعلك واعم » فالخلج قلب الفقيه في صدره خوفاً وقال « العل ذلك اليوم لا يوافق طالعي ؟ »

قال « لا اعني بذلك ولكنني أحب أن أعرف الذين سيحضرون ذلك العمل فان الطالع يغير تغير الجوازب والدوافع من الطوالم الأخرى » ثم وصل الى صحيفه وقف عندها طويلاً وقال « ان طالعك اذا استقل لا خوف عليه في اي يوم كان اما اذا زاحمه طالع آخر ارى صنه في هذا الكتاب وكان ذلك في يوم السبت قد يصيبه ضرر .. ولكن ذلك غير موْكَد فتوكل على الله واعلم انك أحسنهم جميعاً واما انقدم اليك متى احرزت ذلك المنصب الرفيع ان لا تنسى صاحبك سعيداً »

فافقته ذلك الارتباط لكنه اطأط العباره الاخيرة فضحك وهو رأسه استخفافاً بناك التهمة ولسان حاله يقول « كيف انساك ؟ .. وزاد ذهنها تعلقاً بنيل هذا المنصب وهي في ذلك دخل يامسر كبرى فئان الناصر وكان قد اكتفى من التردد على سعيد بعد مقابلته الاخيرة وأمره اليه اموراً فرّجها وزادت الروابط بينهما سراً وارتقت الكلفة .. وأما بين يدي الفقيه فاحتفل سعيد بياسر وبالغ في تبجيله وراكمه وقدم له كرسياً ليقعد عليه وابن عبد البر لا يزال قابضاً على اللقافة فهم بوضعها في جيبيه وأخذ بالسلام على ياسر فآن منه احتفاءً وأكراماً فوق العادة فآن به فقال سعيد لياسر « هل يرغب الامتداد في خدمه ؟ »

قال «كلاً ولكنني تذكرة سوائلك عن وقت الاحتفال باستقبال رسول الفلسطينية لأنك تحب حضوره وكنت قد جئت على يغلي إلى هذه الجهة لفرض لي فرأيت أن أمرتك وأخبرتك أن الاحتفال يكون يوم السبت القادم وقد سررتني أنني لقيت الفقيه هنا لأوحديه برأفتكم إلى التصر الزاهر حيث يكون الاحتفال»

قال «اشكرك يا سيدي على هذه العناية» والثانية إلى الفقيه وسألته عن الملتقي فقال «نلتقي في المسجد قرب باب الجذان المطل على الرصيف فوق الوادي الكبير وهو أقرب أبواب القصر اليها على ما أظن»

قال «حسناً سأوافيك إلى هناك صباح يوم السبت القادم إن شاء الله» وهم يأسرون بالانصراف فاستوقفه الفقيه بقوله «هل كنت تعرف قبل الآن إن سعيد معرفة بالخوامة والطوالع»

قال «واعرف فوق ذلك أنه طيب وكباوي» فبغض الفقيه وهز رأسه وقال «وكباوي أيضاً انه كل شيء» وكانت عابدة في إنشاء ذلك مشتعلة بكتاب في يدها تقلب صفحاته وكما سمعت اذنها بسعيد اخْتَلَقَ قلبها فرحاً به وتنهدت تهداً عميقاً واتبه الفقيه لها في تلك اللحظة فقال لياسر «هل عرفت هذه الفتاة الأديبة؟ لا أظن في قصور أمير المؤمنين فتاة في مثل أدبها وتعلمتها» فالثانية يأسر إلى الفتاة وقد خجلت من ذلك الامرء وعلت وجهها حمرة وايرقت عيناها فقال «هل تعرف الشعر والأدب؟»

قال سعيد «نعم يا سيدي إنها شفقة الوفا من اشعار العرب وإثاثهم وأخيارهم» قال «ليس بين نساء قصر أمير المؤمنين من يحفظ الشعر إلا الإهراء ولذلك فانها أقرب جواريه إليه كما تعلمون لأن مولانا الراصر كثير الشغف بالأدب وادله» على ان معرفتها قليلة في جانب ماذكره عن هذه النساء

فندم الفقيه على توجيه نظر يأسر إلى عابدة مخالفة ان يسعى في اخذها إلى الخلية وهو يجب أن تكون للأخير عبد الله فيكون له حظ من أدبها فغير الحديث واستاذن في الانصراف على موعد اللقاء يوم السبت . وبعد قليل انصرف يأسر بعد ان ودع سعيداً وقد تقاهما

الفصل العاشر

الاحتفال

وأخذ أهل قرطبة يذهبون لاستقبال رسول ملك القسطنطينية في البناء المعروف بالقصر الظاهر أحد أبنية القصر الكبير. لأن هذا القصر كان موئلاً من عدة قصور كانت قد تقدم وهو واقع في الطرف الغربي من قرطبة يطل على الوادي الكبير وهو نهرها الذي يجري من الشرق الشمالي إلى الغرب الجنوبي. والقصر يشغل مساحة كبيرة تخللها البساتين والحدائق والاحواض والبرك والبحيرات والقصور ونحوها. ويحيط بها جديعاً سور له بستة أبواب منها بابان في الجنوب يطلان على النهر هما باب الجذان وباب السطح وواحد في الشمال اسمه باب قوربة وأخر في الشرق هو باب الجامع. والآخر في الغرب ويقال له باب الوادي. والأندانا الاولان يشرفان على النهر وينتهي وينتهما رصيف عريض يفصل قرطبة عن النهر يخرج إليه الوجهاء وأهل الدولة للتنزه بقرب الوادي الكبير (النهر)

وفوق النهر جسر ثمين (كوبوري) يصل بين قرطبة وارباضها الجنوبي طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ٢٠ ذراعاً وارتفاعه ٦٠ ذراعاً وعدد قاطره ١٨ ذراعاً وفوقه ابراج عددها ١٩ برجاً وهو يبعد من مذاخر قرطبة ولا يزال إلى اليوم من آثارها الخفية

وكان منزل سعيد في الارباض الجنوبي ولا بد له في ذهابه إلى القصر من العبور على ذلك الجسر . فلما كان اليوم المبين ليس لياماً فاخراً على شكل يستلقي أقباء أهل قرطبة وفيه مشابهة للباس العلاء والباطنة مع خامة واتقان وكبر العامة على الخصوص مع ان اهل الاندلس قلماً كات لم عنادياً بالعائم . وغرس في حمامته قلم الكتابة وتمتدق فوق القبطان بمنطقة من جلد غرس فيها دواة من الفضة وأكتحل بالامثل اكتحالاً كثيناً . وركب بذلك وساقها يطلب باب الجذان من ابواب القصر ومشى خادمه في ركباه . وكان ركوب البغال في الاندلس من دلائل الجاه والثروة . قطع سعيد مسافة وهو بطلب الجسر فعرف قرينه من الوادي ما اسمه من دوي الرحي بجواره — فقد ذكروا انه كان في ذلك الوادي ٥٠٠ رسم^(١) تطحن الحنطة وغيرها وكلها تدور بمحرى الماء

وبعد قليل اشرف سعيد على الجسر فإذا الأقدام قد تراحمت فيه لكثرة الوفدين على القصر أو على الرصيف للتفرج باحتفال أولئك الرسل . ورأى ما على الجسر من الإبراج في الجانبين بين البرج وأخim ثمانون ذراعاً وعليها الأعلام منصوبة تتفق مع الرج . قطع

(١) المفري ج ٢

الجسر بين الجماهير والشمس لم تكبد الساء بعد فوصل الرصيف وقد تجمهر فيه الناس رجالاً وساً، وانه لا ين راكب وماش وواقف على حلول الرصيف ^أ وخصوصاً بقرب الجسر . لأن الرسل سيرون عليه بانتقام من منزل ولـي العهد في الريـض ^{بـ} بعدوة قرطبة الى القصر الكبير . وقد تفرقت الاجناد في الطرق لمنع الزحام وخصوصاً على الجسر

فظل سعيد سالقاً يغلـه في الرصيف الى الجامـع فـلم يجد ابن عبد البر فيه ^{وـلكنه} وجد خادمـاً حـقليـاً وانـفـقاً بـانتـظـارـه فـلـما رـأـى سـعـيدـاً قـالـ لهـ « ان مـولـانا الفـقيـه سـبقـكـ الى السـطـحـ المـشـرـفـ فوقـ الـبـابـ وـرـاءـ هـذـاـ الجـامـعـ وـيـرـغـبـ إـلـيـكـ انـ تـذـهـبـ إـلـيـ هـنـاكـ لـتـشـرـفـ مـنـ ذـلـكـ اـسـطـحـ عـلـىـ النـبـرـ وـالـجـسـرـ وـالـرـصـيفـ وـالـقـصـرـ جـيـعاً »

فـسـاقـ يـغـلـهـ إـلـيـ ذـلـكـ الـبـابـ وـعـلـيـهـ سـطـحـ مـشـرـفـ لـاـ مـشـلـ لـهـ فـيـ الـعـالـمـ ^(١) فـخـوـلـ وـتـرـكـ

الـبـغـلـةـ لـخـادـمـ وـصـدـ إـلـىـ السـطـحـ مـنـ سـلـمـ يـجـانـبـ الـبـابـ فـرـأـىـ الفـقـيـهـ جـالـاـ بـيـنـ اـنـظـارـهـ فـوـقـ

لـهـ وـرـحـبـ بـهـ وـقـالـ « اـذـنـيـ اـنـبـتـكـ بـالـمـبـيـ » إـلـيـ هـذـاـ وـلـكـتـيـ أـعـلـمـ إـنـكـ تـسـرـ بـهـذـا

الـنـظـارـ الجـيلـ ... »

فـوـقـ سـعـيدـ إـلـيـ جـانـبـهـ وـتـلـفـتـ إـلـيـ ماـ يـشـرـفـ عـلـيـهـ فـإـذـاـ هوـ يـرـىـ النـبـرـ وـفـيـ القـوارـبـ

مـنـ جـهـةـ الـجـنـوبـ وـلـوـقـهـ الـجـسـرـ وـعـلـيـهـ الـاعـلامـ تـقـرـقـقـ فـوقـ الـاـيـرـاجـ وـقـدـ تـزـاحـمـ النـاسـ وـتـحـاـكـتـ

مـنـ آـيـمـ وـفـيـمـ الـعـرـبـ وـالـصـلـابـيـ وـالـبـرـيـ وـالـمـسـتـعـربـ (وـهـوـ فـيـ اـمـطـلـاحـهـ الـاسـبـانـيـ الـذـيـ

يـتـكـلـمـ الـعـرـبـ) مـنـ الرـجـالـ وـالـنـسـاءـ وـالـأـطـفالـ يـخـالـهـ الـبـاعـةـ بـالـأـطـبـاقـ عـلـىـ روـؤـسـهـمـ وـفـيـهـمـ مـنـ

يـحـمـلـ طـلـاماـ أـوـ فـاكـهـاـ أـوـ قـنـلاـ وـالـسـقـاةـ يـحـمـلـونـ الـجـارـعـيـ ظـلـورـهـ يـنـادـونـ سـبـيلـ يـاعـطـشـانـ وـبـيـنـ

هـذـهـ الـأـخـلـاطـ مـنـ النـاسـ رـجـالـ الـجـنـدـ قـشـابـهـ مـلـابـسـهـ وـفـيـهـمـ الـصـقـالـيـ الـبـيـضـ وـالـرـجـالـ الـعـيـدـ

وـقـدـ رـتـبـواـ صـفـوـاـ حـسـبـ رـتـبـهـمـ وـاجـنـاسـهـمـ . فـوـقـ صـفـ ^{جـ} مـنـ الـعـيـدـ عـلـيـهـمـ الـجـوـاشـنـ وـالـأـقـيـةـ

الـبـيـضـ وـعـلـىـ روـؤـسـهـمـ الـخـوذـ الصـقـلـيـةـ وـسـيـنـ إـيـدـيـهـمـ التـراـسـ الـمـلـوـأـةـ عـلـىـ طـولـ الـجـسـرـ إـلـيـ بـابـ

الـجـنـانـ مـنـ اـبـوابـ الـقـصـرـ يـخـالـهـمـ فـرـسـانـ مـنـهـمـ



الفصل الحادي عشر

الصور

وأَوْمًاً الفقيه إلى سعيد أن يلتفت شماليًا غريباً فهو ابنية القصر وبساتينه فرأى ما يبهره من القصور المختلفة الاشكال وبينها الحدائق والبساتين تخللها البرك والبحيرات والاحواض من الرخام المنقوش وعليها تماثيل من الرخام أو النفحة على اشكال مختلفة يجري ماؤها من انباب بعضها كأنواع الحيوانات . أكثرها من الرخام وبعضاً من التفاصيل والبعض الآخر من الذهب تلألأً عن بعد في أشعة الشمس . وبعض الاحواض عليها تماثيل من المخاسن المسموأة على اشكال جميلة والماء ينسق من جوانبها فيثلون رشاشه في هبوطه بالوان قوس القزح . فانبهر سعيد من تلك المناظر ولم تسبق له رؤيتها من ذلك السطح المترف فقال « بالحقيقة ان الخليقة الناصر قد ابدع في تدبير هذا القصر واقفاته . واغرب ما فيه هذه الاحواض المنقوشة وعليها التماثيل يتغير الماء من جوانبها أوروباً وأفواها . هل هو ماء النهر حمل إليها؟ »

ففتح الفقيه وقال « ماء النهر ؟ .. وهل يصعد الماء من هذا الوادي إلى هذه المصانع ؟ . إنما هو ماء محظوظ من هذه الجبال العالية على المسافات البعيدة .. وقد انفقوا في سبيل جبله ما لا يقدر من الاموال . يكفي ان تتصور اجراء هذا الماء من تلك الجبال الى هذه القصور في قنوات من الرصاص . فكم تقدروا من الخمور وبنوا من القصاب لتدبير الماء في جريانه بالانابيب المذكورة . ثم تصور توزيع الماء بعد وصوله الى هذه القصور في البحيرات والبرك والصهاريج حتى ينصب من تماثيل النفحة او الرخام او المخاسن المسموأة وبعضاً يجري من انباب الذهب . غير ما أنفقه في نقش هذه التماثيل الرخام فوق الاحواض »

فكان ابن عبد البر يكلم سعيد مطرقاً يفكّر حتى فرع الرجل من كلامه فقال له « لا يدهشني مقدار ما أنفق من الاموال أكثر من اتخاذ هذه التماثيل . . . فهل اثيم له بالتقاذفها وهي محرومة على ما أعلم »

فهز الفقيه رأسه وقال « من افتي له ؟ انه أتفى لنفسه »

ثم استوقفها صوت التغیر فالتفتوا نحو الجسر فرأوا الناس يتسبّبون بخواصه لشاهدته او لثكل الرسل وقد أقبلوا على آفراسهم وعليهم الألبسة المذهبة تناولن بقصوة الشمس فوق السروج المنخفضة وقد أحاطت بهم كوكبة من الفتیان الوصفاء من شباب الصقلية عليهم الدروع السابحة والسيوف الحالية وقد امتطوا الأفراس الجياد عليها الجم الخلاة بالذهب . وقد بالغ عبد الرحمن

باظهار الآية واعظمة ارهاباً للاعداء

فأراد سعيد ان ينزل عن السطح فقال له « والى أين ؟ ان الطريق مسدود بالناس ولا سبيل لنا الى القصر الا ان فالانقل ان غلقت هنا رياضاً غير الركب ثم ندركه على عجل او نسبقه من طريق مختصر اعرفه .. انظر الى ما أراده أمير المؤمنين من الارهاب باتفاق أحسن رجاله في طريق أولئك الرسل . ان رجاله العبيد مصفوفون على الجسر وهذه كوكبة من الشيان الاصغر تحيط بالرسل .. لا ترى هؤلاء الروم قد أحناروا ووسمهم خوفاً ورعباً . انظر الى باب الجنان كنصب عليه من الاعلام وكم وقف مجاهديه من الفرسان وعليهم الألبسة الثمينة . هؤلاء ذوو الاسنان من الشيان الصقالية وقد لبسوا الياسن وبأيديهم السيوف ووراءهم من هذا الباب في الداخلي الى الباب الثاني من ابواب القصر صفت من الرماة وقد شجعوا قسيهم وسمائهم . وإذا أمعنت نظرك في الوقوف بالباب الثاني وما وراءه رأيت طائفة أخرى من الصقالية الاكابر في أثمن من ذلك وأبهج .. لا رب عندي ان أولئك الارواح قد دهشوا من هذه المخالفة . وسترى اغرب من ذلك متى اتيت القصر ورأيت ما أعدوه هناك من الرياش والآلات ومظاهر الملك والبهجة الدولة .. »

قال سعيد « اخاف ان يبدأ الاحتفال قبل وصولنا فيذهب تعينا سدى »

فهز راسه استخفافاً وقال « لا يبدأون قبل وصول الخطباء .. ومع ذلك فاني أخذك

من طريق مختصر نصل منه الى القصر قبل وصول الناس اليه »

قال « اغفل اذا شئت »

لخوّل التقىه وتحوّل سعيد معه فلما صارا في الطريق اشار الى سعيد ان يترك بغلته

ويسيء معه ما شأناً لأن ذلك اسهل عليهما

فasher سعيد الى خادمه ان يحفظ بالبلغة ومشى مع التقىه . فسار به سيف اليساتين بين الاشجار والرياحين وقد مرّه المishi هناك بدل الزكوب ليتمكن من رؤيّة كل شيء فكثيراً ما وقف عند بعض الاحواض الرخامية يتأمل انصباب الماء من جوانبها او من اواسطها في الانابيب المختلفة الاشكال والالوان وحوّلها البشّاريون يعمدونها بالاصلاح والزري والتقطيم . ولاحظ التقىه اعجبه بما شاهده هناك فقال له « اراك قد دهشت مما تراه في هذا القصر من البدخ فكيف اذا دخلت الزهراء ، ورأيت قصورها وقاعاتها وحدائقها وقبابها كيف اذا رأيت التبة التي قرميدتها من الذهب .. »

فصاح سعيد « قرميدتها من الذهب ؟ .. اني استغرب ذلك من امير المؤمنين بعد ان اخذ اخلاقه فصار نائباً عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الناهي عن اتخاذ ذلك .. »

فأولماً التقىه بسباته على شفته السفي ان « دع هذا الان »

الفصل الثاني عشر

القصر الزاهر

وما زال يحصلان من بستان الى بستان ومن حدائق قصر الى حدائق قصر آخر وقد سبق الموكب حتى اطل على القصر الزاهر ، وهو من اجمل ابنية القصر الكبير فاقبه سعيد على المخصوص لواجهته فرأى عليها نقوشاً كالوش على المعمد في اشكال جميلة بين اقواس مغوفة باشكال هندسية عريضة تخللها الابواب في الاسفل وهي في غاية ما يمكن من اتقان النقش . ويزينها في الطبقة العليا التوافذ والاحذية والقناطر كالرواق القائم على اساطين الرخام . وعلى تيجانها نقوش وكتابات فوق التيجان الاقواس قد تقطعت سقوفها من بعث متداخلة ورسمت فيها الآيات والدعوات حفرأ او تصويراً . وعلى افارييز الشاييك ايات من الشعر مذهبة والافاريز من الشكل المترافق . وتنهي تلك الطبقة بطريق يارز هو امتداد السطح الى الخارج وعليه نقوش في غاية الجمال . وحول التوافذ زجاج ملون مصنوع على اشكال هندسية في اجمل زينة

لم يستطع سعيد التفسر في ذلك البناء طويلاً لما رأه يابه من الحرس وقوفاً وهم من خاصة الفييان الاكابر والمقدمين . عليهم الالبسة الفضفاضة وعلق اكتافهم الظماز الذهبية وعلق روؤسهم القلانس المفرمية الشكل يزيّنها الطراز المذهب وقد تقلدوا السيف الذهبية وهن في الرجال قامة وجالاً وهيبة ما يستوقف الابصار . فتبرع سعيد من تلك العظمة ولم يكن يتصور اباه الملك تبلغ الى هذا الحد فقال في نفسه كيف يكون اليه الداخلي الذي اعدوه لاستقبال الرسل . ولم يستطع دخول القصر الا بعد ان رأى الحرس رفيقه الفقيه ابن عبد البر وتحققوا انه من حاشية الامير عبد الله وصنيعة الحكم للدخول وتبعه سعيد . فشيئا في طرقات بين الاشجار مفروشة بالازهار والرياحين حتى اتيا الباب الخارجي وقد فرش من عتبته الى الدليل وصحن الدار وهو اليه الدار وخارج بعنان البسط وكرام الدرانك وغلات ابواب الدار وحدياتها يظلل الدياج ورفع السotor

وصعدا من ذلك المحن على بعض درجات من الرخام المذهب الى اليه واسع قد نقش سقفه وافارييز بالذهب والالوان الزاهية اكثراها الاحمر والازرق والاصفر . وقد جالت جدرانه بالدياج وفرشت ارضه بالسجاد الشميين ونصبت المقاعد والكراسي في جوانب اليه على حسب الرتب والمناصب

وفي صدر اليه ضريح الخليفة من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت فوقه قبة فيها

نقوش وايات على ابدع تصوير . وقد فاحت رائحة الغبار من مبشرة مذهبة نصبت في بعض جوانب البيه . ولم يوْذن بدخولها هذا المجلس لأن الخليفة لم يكن قد وصل بعد . فوقما حاولين وسعيد يتأمل كل شيء ويحمل فكرته في كل شيء . ثم لاحت منه التفاحة فرأى ياسرًا ينظر إليه فأشار سعيد أنه يريد الدخول فتقدم ياسر وقال له « لا يجوز الدخول قبل قيام الخليفة ولكن لا يأس من دخولك أخلسة من باب سري تجلسان في مكان لا خضر منه وتريان الناس عند دخوطي وهي انتظمت عقد الجلوس تجلسان في هذا المكان مع جماعة الفقهاء » وأشار إلى المكان

فسر سعيد بهذه الفرصة ودخل ومعه ابن عبد البر حتى وقفوا وراء بعض الأساطين في آخر البيه بحيث يربان كل قادم ولا يراها أحد ولم تخض هنديه حتى سمعا لغطًا ورأيا الحصين في حركة فعلم ابن عبد البر ان الناصر قد أدى فتوى وبات الدعوه في وجهه . فادرك سعيد ذلك فالتفت إليه وقال « اظن مولانا أمير المؤمنين قادماً »

فأشار الفقيه برأسه أن « نعم »

ثم رأياه مقبلاً وقد تزريا بزي الخلافة فنظر سعيد إلى الفقيه كأنه يستفهمه فقال له بصوت خافت « لو دخلت على أمير المؤمنين منذ بضع عشرة سنة لرأيت لباسه يختلف عنه الآن ولم تره هذا القصيب بيده فإنه قضيب الخلافة ولم يكن خليفة الامانة بضع عشرة سنة . ولذلك رأييه الآن يلبس العامة المرصعة بالجواهر ويحمل القصيب بيده . وهذه بردته مثل بردة سائر الخلفاء لكنه جعلها يضاء تشبيهاً بلباس أقربائه بين أميّة الشام . وترى تحت البردة قباء من الوشي وهو لباس الامويين في أيام دولتهم بالشام »

كان الفقيه يتكلّم بصوت منخفض يحاذر أن يسمعه أحد خلوات القاعة من الناس وهذا المكان وسعيد شاهق يبصره إلى الناصر يتبعين ملامحه ويستطلع فراسته فرأاه أيضًا اللون مشرقاً حمرة أزرق العينين وفي عيشه هيبة وقوة وقد مشى ويده قضيب الخلافة والجلال يغلي في جبينه والدكاكه ينبعث من عينيه وقد وخطه الثيب . وشغل سعيد على الحصوص بما على عمامته من الجواهر والثفات نحو الفقيه فرأاه ي LANG في الأزواد خوفاً من وقوع بصر الخليفة عليه فقال له « إن أمير المؤمنين فوق ما كنت أتصور ويظهر لي مع كون والدته أمة نصرانية إن هيبة الخلفاء لم تنقص شيئاً »

الفصل الثالث عشر

استقبال الرسل

فقال الفقيه « لا اخبارك تجهل ان أكثر الخلفاء في الدولتين الاموية والعباسية اهابهم من الآباء ويعضون من الجواري اماماً مولانا في نصرانية جليلة وكان امها مريدة »^(١)
وفي اثناء هذا الحديث كان الخليفة قد جلس على السرير في صدر البابو فوق عرش
مرتفع ووقف بين يديه جماعة من كبار الفتيان يثلوون اوصاره وعليهم البزة تأخذ بالبصر
ما فيها من الطراز المذهب والالوان الزادية . وسعيد لا يرفع بصره عن الناصر وقد همه امره
كثيراً

فرأه يتضرر الى باب البابو ويقسم ويشير برأسه مرجحاً فالثالث سعيد فرأى الحكيم
ولي العهد داخلاً في لباس فاخر ونقارية الشاب تخلق في وجهه وقد فاحت منه رائحة المسك
ومن يره يعرف انه ولد العهد لانه كان يلبس القنسوة الخاصة بذلك . فلما اقترب من ايده
ناداه اليه واجلسه الى يمينه وهو يبتسم له
ثم دخل ابنه الامير عبد الله وكان البابو قد تکاثر فيه الناس فلم يعد الفقيه يخشى
ان يسمع صوته فلما دخل الامير عبد الله استلقت نظر سعيد اليه وقال « هذا مولانا الامير
عبد الله كيف تراه ؟ »

قال سعيد « أرأه أحسنهم جميعاً ... أني أرى النقوى ظاهرة في وجهه واغتنم لهم
خيره في الالباس لاختيار الجلبة والعمامة الساذحة وكان في غنى عن هذه الملابس الفاخرة
بما يزيد عليه من الخلل الحيدة »

فقال الفقيه « لقد احببت بفراستك كبد الحقيقة ان الامير عبد الله يفعل ذلك بي
مازله فإنه من الزهد والثقوى على جانب عظيم حتى تکاد لا تجده عنده من الخصيـان احداً وهو
على غير رأي والله من هذا القبيل ولذلك سموه الزاهد . وله شعر حسن »^(٢)
فقطع سعيد كلامه قائلاً « هذا هو الرجل المطلوب .. انه اذا تولى الخلافة اعادها
إلى رونقها وتقواها من الادران الخارجية »
فهمس الفقيه في اذنه « دعنا من هذا الان »

وجاء بعد عبد الله أخوه عبد العزيز فالاصبع فروان ثم أشار الخليفة إلى المخصوصين الأكابر الموكلين باستقبال الناس وادخلهم إلى مجالسهم وفي جملتهم ياسر ان بدخلوا سائر بيبي مروان فدخل المذذر ثم عبد الجبار ثم سليمان مجلسه عن بيسار الخليفة ثم دخل الوزراء على مراتبهم ميناً وشالاً . واخيراً دخل الفقهاء فاندمس ابن عبد البر وسعيد في جملتهم وجلسوا في أماكنهم المعدة لهم

ودخل الشعراء فاقاموا في مصافهم . واصطفت العجائب من ابناء الوزراء والملوكي والوكالات وغيرهم وقوفاً في اطراف الباب وراء جدار قصير يفصل الباب عن شبه الرواق حوله . فكان من ذلك منظر يطيب له الشجاع وقد زاده هيبة سكوت الناس حتى الخليفة وأولاده

وجاء ياسر بعد قليل فوق بجهيت يعلم الخليفة اذا وقف هناك ان عنده امراً يريد عرضة عليه فاستقدمه فأخبره « ان الرسل في الباب الخارجي هل يأمر بادخالهم » فقال « ادخالهم »

فهاد وقد حل الحضور ان الرسل قادمون فالتجهيز الابصار نحو الباب واذا ياسر قد عاد ثم نهى فتقدم الرسل خائعين وهم بضعة عليهم رئيس منهم وقد لبسوا الياس كبار الروم فتقدمن الرئيس وكان عليه القلاسورة والبرنس خلماهما قبل دخوله فتناولها بعض الخدم . وفعل مثل ذلك رفاته من الرسل

فتشوا اولاً بين صفين من الجندي في الباب الخارجي حتى انتهوا الى الباب الداخلي خلماً وقع بصرهم على سرير الخليفة خروا سجدة سوية ثم نهضوا ومشوا بضم خطوات وعادوا الى السجود . فعلوا ذلك مراراً الا رجالاً منهم كان في آخرهم يحمل جبة من الدبياج على كفيه باحترام فاكتفى باحتفاء رأسه ولا دنووا من سرير الخليفة تنجي الوفد الا رئيسه نقدم وهو على يد الخليفة يقبلها فامتنع الناصر من ذلك وأشار اليه انت مجلس هو ورفاته على وسائل من الدبياج مصوحة بالذهب أعدت لهم على نحو عشرة اذرع من السرير^(١) . فجلسوا الا حامل الجبة

الفصل الرابع عشر

المقدمة

وبعد هذه المقدمة أذن لهم الخليفة بالكلام وكان يخاطبهم على يد الترجمة . فنهض رئيس الوفد وتقدم الى السرير باحترام وقدم للخليفة تلك الجعة بعد ان تداولها من حاملها . فأشار الخليفة الى من يفتحها ففتحها احد الخصيان فوجده داخلا درجة من الفضة عليه غطاء من الذهب قد نقشت فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . ففتح الدرج فوجد فيه كتابا من رق مصبوغ لونا مهادياً مكتوباً بالذهب بالخط الاغريقي (اليوناني) . هو كتاب صاحب القسطنطينية قسطنطين بن ليون اليه . وداخل هذا الكتاب مدرجة (رسالة) مصبوغة ايضاً ومكتوبة بالفضة بالحرف اليوناني ^(١)

فتداول الخليفة الكثابين وأخذ يقلب فيما فوجد على الكتاب الاول طابع ذهب وزنة اربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وأما المدرجة ففيها وصف هدية قسطنطين الخليفة الناصر التي كان قد ارسلها مع الوفد وعددها ^(٢)

وكانت انتظار الجلوس متوجهة الى ما يضمته ذلك الكتاب فأشار الخليفة الى من يترجمه فقرأوا العنوان على ظاهره مترجمه « قسطنطين وروماني المؤمن بالسميم المكان العظيم منك الروم » في سطرين ثم « العظيم الاستحقاق والفاخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس اطال الله بقاءه » في سطر آخر . فامر الخليفة من يهوى الاحتفاظ بالكتاب ويسلم المقدمة ولكنه احب ان يعرف مفردات المقدمة فاستوقف ابياه منها ام كتاب فرح به أكثر من سائر المقدمة . وهو كتاب الحشاش تأليف ديسقوريدس العالم الياني الشهور . فامر الخليفة باحضار الكتاب لكتلبه والنظر فيه فأقر به . فإذا هو مكتوب بالخط الاغريقي وقد صورت فيه الحشاش كلها بالتصوير الرومي الجميل . وجاء مع هذا الكتاب ايضاً كتاب هرشيوس صاحب الفصوص وهو تاريخ للروم فيه اخبار المصور وقصص الملوك باللغة اللاتينية وكان في جملة ما كتبه اليه ^(٣) « ان كتاب ديسقوريدس لا يجيئني فائده الا برجل يحسن العبارة باللسان اليونياني ويعرف اشخاص تلك الادوية فان

(١) المتن ج ١ - ١٢٠ المتن ج ١

(٢) طبقات الاطباء ج ٢

كان في يدك من يحسن ذلك فزت أهـا الملك بفائدة الكتاب . وأما كتاب هروشيوس فعندك في يدك من الطبيـين من يقرأ بالـانـطـيـني . وإن كـثـفـهـمـ عـنـ قـلـوـهـ لـكـ منـ الـطـبـيـنـ إـلـىـ الـسـانـ الـعـرـبـيـ »

فـلـاـ اـطـلـعـ الـأـصـرـيـ ذـلـكـ الـكـتـابـ اـبـسـطـ نـفـسـهـ وـسـرـسـرـورـاـ كـثـيرـاـ بـذـلـكـ الـمـدـيـةـ وـاعـزـ بـسـلـطـهـ وـجـلـالـهـ قـدـرـهـ . وـكـانـ سـعـيدـ فـيـ اـثـاءـ اـشـغـالـ الـخـلـيقـةـ بـمـشـاهـدـةـ الـمـدـيـةـ يـحـادـثـ جـارـهـ الـفـقـيـهـ . وـلـاـ كـادـ الـخـلـيقـةـ يـفـرـغـ مـنـ مـشـاهـدـةـ الـمـدـيـةـ آـنـ سـعـيدـ اـضـطـرـاـبـاـ عـلـىـ وـجـهـ الـفـقـيـهـ فـعـلـ اـنـهـ يـتـهـبـ مـنـ الـوقـوفـ لـلـخـطـيـةـ وـمـ بـسـوـالـهـ فـسـقـهـ الـفـقـيـهـ إـلـىـ السـوـالـ قـائـلاـ «ـ هـاـخـنـ فـيـ الـجـلـسـ وـلـاـ يـابـثـ الـخـلـيقـةـ اـنـ يـدـعـونـيـ لـلـخـطـابـ فـاـرـأـيـكـ مـاـ مـلـفـعـ؟ـ . اـسـتـطـلـعـ لـيـ الـطـالـعـ»ـ فـاسـتـخـرـ سـعـيدـ الـكـتـابـ مـنـ جـبـيـةـ خـلـصـةـ وـفـتـحـهـ وـأـخـذـ يـقـلـبـ فـيـهـ وـيـنـظـرـ إـلـىـ الـحـضـورـ حـوـلـهـ وـيـمـدـ النـظرـ فـيـ الـكـتـابـ وـابـنـ عـبـدـ الـبـرـ يـنـتـظـرـ مـاـ يـقـولـهـ . وـلـاـ طـالـ سـكـوتـهـ شـغـلـ بـالـلـهـ وـارـتـبـكـ فـيـ اـمـرـ وـعـاقـفـةـ اـنـ يـسـعـ مـاـ يـحـزـنـهـ . وـهـوـ سـيـفـ ذـلـكـ الـاضـطـرـابـ سـعـ صـوـتاـ يـنـادـيـهـ مـنـ صـدـرـ الـيـهـوـ عـرـفـ اـنـهـ صـوـتـ الـحـكـمـ وـلـيـ الـعـدـ يـقـولـ «ـ يـسـعـنـاـ الـفـقـيـهـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـبـرـ الـكـسـيـبـيـ فـيـ وـصـفـ هـذـاـ الـجـلـسـ الـحـافـلـ»ـ

وـكـانـ الـخـلـيقـةـ هوـ الـدـيـ طـلـبـ إـلـىـ وـلـيـ الـعـهـدـ اـنـ يـخـتـارـ مـنـ يـرـىـ مـنـ الـفـقـاءـ أـهـلـاـ لـلـخـطـابـ قـبـلـ اـنـ يـنـقـدمـ الـشـعـرـ ، لـتـشـيدـ فـاـخـارـ اـبـنـ عـبـدـ الـبـرـ لـانـهـ كـانـ صـنـيـعـهـ وـكـانـ يـدـعـيـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ تـأـلـيـفـ الـكـلـامـ مـاـلـيـسـ فـيـ وـسـعـ غـيـرـهـ — فـلـاـ اـسـمـ اـبـنـ عـبـدـ الـبـرـ ذـلـكـ التـسـاءـ اـجـفـلـ وـزـادـ اـرـتـبـاـكـهـ وـوـذـبـ الـخـطـابـ مـنـ خـاطـرـهـ لـكـنـهـ وـقـفـ وـقـدـ اـمـتـقـعـ لـوـنـهـ وـأـخـذـتـ لـحـيـهـ تـرـقـصـ فـيـ وـجـهـ وـشـفـانـ تـرـقـصـانـ وـزـادـتـهـ اـبـهـةـ الـقـاـمـ وـجـلـاـ فـارـجـ هـلـيـهـ وـلـمـ يـهـنـدـ إـلـىـ كـلـمـةـ يـقـولـهـ . فـفـلـيـهـ الـخـجـلـ الـقـنـوـتـ فـاغـيـ عـلـيـهـ وـسـقـطـ إـلـىـ الـأـرـضـ فـاـشـفـلـ سـعـيدـ بـاـقـاطـهـ وـالـأـهـمـاـمـ بـاـمـرـهـ حـتـىـ اـفـاقـ فـاجـلـهـ وـأـخـذـ يـخـفـفـ عـنـهـ

وـنـهـضـ فـيـ اـثـاءـ ذـلـكـ اـسـمـاعـيلـ الـقـالـيـ صـاحـبـ الـأـمـالـيـ وـكـانـ حـافـرـاـ لـخـطـبـ وـخـطـبـ اـيـضاـ مـنـذـرـ بـنـ سـعـيدـ أـحـدـ الـفـقـاءـ فـاـجـادـ كـثـيرـاـ وـآلـ ذـلـكـ إـلـىـ تـوـلـيـهـ الـفـضـاءـ بـعـدـ حـيـنـ . ثـمـ اـثـدـ الـشـعـرـ اـقـائـمـهـ إـلـىـ اـنـ الـقـضـ الـأـسـفـالـ وـنـفـقـ الـنـاسـ وـمـفـىـ كـلـ مـنـهـمـ إـلـىـ سـبـيلـهـ



الفصل الخامس عشر

تَبَيَّنَ

أما سعيد فشارك رفيقه الفقيه في اسفه الى ان قال له « والله اني كنت خائفاً لهذا الفشل من قبل ولذلك رأيتني ارتبتك في الجواب لاسألك عن الطالع » ; فقال « لا أدرى ما الذي انساني الخطاب كأنني لم اخط منه حرفاً ولم يلمس ذلك من سوء الطالع — اظن وجود القالي افسد علي طالعي »

قال « لا بل هو منذر بن سعيد .. يائمه افسا الدنيا حظرظ وطوالع . أيرفع على الفقيه ابن عبد البر ويغلق المنذر بن سعيد !!! » قال ذلك بتنمجة الآسف وهو رأسه وعمد ان يتم غرضه فاظلبه اسفه الشديد على ما الفق لابن عبد البر وقال « والامر الذي ساء في على المخصوص ... » وسكت فابدره الفقيه قائلاً « لابد ان يكون ساء لك ارتباكي مع اعتقادك الا كيد اني قادر على الكلام وقد سمعت خطابي وانجذبته به » فقطع سعيد كلامه قائلاً « ان ارتبا لك ساء في طبعاً ولكن هناك امر آخر كدرني .. دعنا من ذلك الان »

فازداد الرجل رغبة في الاستطلاع فقال « وماذا لك؟ .. قل »

قال « ساء في اني سمعت ولي العهد ... ولكن اخاف ان اكون خطئاً .. »

قال « لا لا .. قل ما سمعته؟ .. »

قال « اخافني سمعته يقول لما رأاك وقعت مغشياً عليك ووقف منذر بن سعيد وخطب ما خطبه .. سمعت ولي العهد يقول (هذا صاحبها الاولى) او ليس الکسياني فلا ادرى ما اذا يهمي » فقال الفقيه « ألا تدري وانت تستطلع الغيب؟ .. أظنك تخاف تكديرني ... قل ولا تخاف »

قال « اخافه يعني منصة القضاء »

قال « قد احببت وستحال هذا المنصب المنذر بورك له فيد .. »

قال سعيد وهو يضحك قائلاً « لك اسوة بالامير عبد الله العالم الزاهد . لم تكن الخلاقة اولى بي .. »

فاحس ابن عبد البر من تلك الساعة بتنمجة على الحكم رغم ما كان غارقاً فيه من نعمه . فان فشله وفوز زميله منذر بن سعيد هاج حده واعماله عن الحقيقة وزاده اغتراراً بنفسه

فنسن مقتوه الى تصادم الطوالع وكان لقول سعيد تأثير كبير على اعتقاده فنون انه مظلوم وان الحكم هو السبب في ظلمه فاحس بالنقمة ضده ولم يكن سعيد غافلاً عما جال في خاطر القبيه وهو الذي أثار كامن حقده وهاج عاطفة الحسد فيه من متذر والنقمة على الحكم فلما تبع الى افضلية عبد الله في نيل الخلافة على أخيه الحكم نظر الى القبيه فرأى في ملامحه قبولاً للاتصال ولكن الخوف يمنعه من التصرّف فابدره فائلاً بصوت ضعيف لثلاً يسمعه أحد سواه « لعلني طوحت في قولي الى ابعد مما يجوز لي . . . ولكنني قلت ذلك مدفوعاً بالانتصار للحق . . . وأنا ورافق ايم الكتب واعرف ما يقتضيه ولبي العهد منها ولكن مالي وله . . . » قال ذلك واظهر انه يريد الاقتراف عنه

فتوسم ابن عبد البر من ذلك التلميح شيئاً بضمه « الاطلاع عليه فعمد الى استخراج ذلك السر من سعيد ويزعم انه يفعل ذلك بمهارة ودهاء فقال « مهما يكن من اطلاعك على ذلك فاني اعلم بذلك به وأنا كاتب قد عاشرت الحكم طويلاً »
قال « مهما عاشرته فانك لا تعرف عنه ما اعرفه انا فاته يستحبني ان يعرف الناس وخصوصاً القبيه انه يطالع الفلسفة فنقل ثقتهم بيديه »

فبعث القبيه وقال « يطالع كتب الفلسفة ؟ . . . نعم بـالله من خليفة فيلسوف . ان الخلقاء يقاومون الفلسفة ويضطهدونهم خوفاً على عقائد الناس فكيف يكون الخليفة نفسه من اهلها »

فتجاهل سعيد عن مقدار ما اثر ذلك الخبر في القبيه واظهر انه قد آن له ان يفارقه .
وكان القبيه أكثر رغبة في الاقتراف خاطر خطر له يريد ان يسمى فيه
وكأنه قد خرجا من التصرّف حق اتياب اسطلح حيث تراكم البنين فقال القبيه
« سنفرق الآن . . . لا تزعل يا صاحبي ان الزمان يدور وسوف يصل الحكم واياه . . . »
وسكت وتناظر سعيد بالتجاهل وقال « متى آتني بكتاب العقد الفريد الى الامير عبد الله ؟ »
قال - بعد يومين هل تعرف مازله ؟ «
قال « اين هو »

قال « في قصر مروان خارج قرطبة بالارباض »
قال « اعرفه . . . استودعك الله . . . لا تزعل يا فقيه . . . »
قال « سنكلم بعدئذ . . . لا تنس ان تجلب عابدة معك لاني كللت الامير بشأها وهو يحب ان يراها »
قال « مسعاً وطاعة » وركب بغلته وذهب يطلب مازله

الفصل السادس عشر

الفقيه في طريقه

فارق الفقيه ابن عبد البر سعيداً وهو يتنى لو طال الحديث يتها في مسألة الامير عبد الله لانه رأى في الطعن على الحكم وايه شفاء ما تولاه من الخجل في تلك المخلافة . وهو من ترثته الدينية مثال الى التحصيل التقليد القديمة ورفض كل جديد فرأى في انتقاد الناصر لافتائه الخصيان والتوسيع في البذخ والترف باباً للنقمـة عليه . ولكنـه كان غضباً على الحكم فـلا سمع ما قالـه سعيد من جهة الفلسفة حل لنفسـه الطعن فيه . ولم يـشـأ ان يـتـبـتـ الخبر عـنـهـاـ انـيـكـونـ كـاذـباـ فـيـقـعـفـ الـبـاعـثـ عـلـىـ الطـعـنـ وـهـوـ يـحـثـ عـمـاـ يـقـوـيـهـ

فـفـيـعـظـمـ الطـرـيقـ إـلـىـ يـتـهـ فـيـ اـمـالـ هـذـهـ الـمـواـجـسـ وـهـوـ لـاـ يـتـبـهـ لـبـلـةـ كـيـفـ تـسـيرـ وـلـاـ إـلـىـ رـأـسـاـ اـيـنـ يـقـدـمـ . وـلـوـ لـاـ خـادـمـ الـذـيـ كـانـ يـدـيرـهـ اوـ يـزـجـرـهـ اوـ يـبـهـ الـمـارـةـ لـسـيرـهـ الـغـرـتـ اوـ تـاهـتـ . وـخـصـوـصـاـ عـلـىـ الجـسـرـ لـانـهـ كـانـ غـاصـماـ بـالـرـاجـعـينـ بـعـدـ اـقـفـاءـ الـاحـتـالـ . وـلـاـ قـطـمـ الجـسـرـ قـلـ الاـزـدـحـامـ . وـمـاـ زـالـ رـاكـبـاـ حـقـ اـقـرـبـ مـنـ قـصـرـ مـرـوـانـ وـهـوـ مـنـزـلـ الـامـيـرـ عـبـدـ اللهـ وـلـمـ يـتـبـهـ الاـ وـهـوـ بـالـقـرـبـ مـنـهـ فـاـسـتـوـقـ الدـاـبـةـ وـاـشـارـ إـلـىـ السـائـسـ اـنـ يـجـولـ زـمـامـهـ اـنـهـوـ مـنـزـلـهـ لـعـلـهـ اـنـ عـبـدـ اللهـ لـمـ يـعـدـ إـلـىـ قـصـرـهـ بـعـدـ لـاشـتـغالـهـ بـالـحـدـيـثـ مـعـ اـيـهـ اوـ اـخـيـهـ . وـهـوـ مـعـ ذـلـكـ يـخـجـلـ اـنـ يـقـابـلـ

سـاقـ الـبـلـةـ إـلـىـ يـتـهـ وـهـوـ عـلـىـ مـقـرـبـةـ مـنـ قـصـرـ مـرـوـانـ قـرـبـلـ وـدـخـلـ غـرـفـةـ وـرـعـ فـيـهاـ فـرـاجـيـتـهـ وـاتـكـاـ لـلـاسـتـراـحةـ بـخـاءـ الطـاهـيـ يـدـعـوـهـ إـلـىـ الـمـائـدـةـ فـتـذـكـرـ كـاـنـ جـائـعـ فـنهـضـ فـاـكـلـ وـعـادـ إـلـىـ بـلـسـهـ وـأـوـزـعـ إـلـىـ الـخـادـمـ اـنـ لـاـ يـدـخـلـ عـلـيـهـ أـحـدـ الـخـاـسـ الـرـاحـةـ وـهـوـ بـالـحـقـيـقـةـ يـطـلـبـ الـاـنـقـرـادـ خـجـلاـ مـنـ النـاسـ بـسـبـبـ فـشـلـهـ فـيـ الـخـطـابـ حـتـىـ تـصـورـ النـاسـ كـلـهـمـ عـيـونـاـ تـغـامـزـ عـلـيـهـ اوـ تـهـزـأـ بـهـ لـتـابـلـجـهـ اوـ تـلـمـثـ اـنـهـ . وـاـصـبـحـ اـذـاـيـ الـخـصـيـ اـبـطـاـ بـتـنـيـذـ اـمـرـهـ توـمـ اـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ اـحـقـارـاـ لـهـ بـسـبـبـ ذـلـكـ الفـشـلـ — وـمـاـذـلـكـ الـاـ مـنـ ضـعـفـ النـفـسـ اوـ الـجـيـنـ . وـلـوـ كـانـ قـويـ النـفـسـ لـمـ يـبـالـ بـفـشـلـ قـدـ يـصـيبـ كـلـ اـنـسـانـ وـلـكـانـ لـهـ مـنـ تـنـاظـهـ بـمـوـاهـبـ الـأـخـرـيـ مـاـيـذـهـ بـدـهـشـةـ ذـلـكـ الفـشـلـ . اـمـاـ هـوـ فـانـهـ أـعـظـمـ ذـلـكـ عـنـدـ نـفـسـهـ وـلـوـ اـطـلـعـ الـآـخـرـونـ عـلـىـ مـاـفـيـ خـيـرـهـ لـاـ مـتـصـفـوـهـ تـناـولـ الطـعامـ وـهـوـ مـنـقـبـضـ النـفـسـ فـسـرـ هـضـمـهـ فـزـادـهـ ذـلـكـ تـلـكـاـ فـيـ اـنـكـارـهـ وـتـعـقـيـاـ لمـصـيـبـهـ . فـلـاـ خـلاـ بـنـفـسـهـ اـخـذـ يـفـكـرـ فـيـ مـاـيـشـيـ خـلـيـهـ وـيـرـهـ بـيـنـ يـدـيـ الـامـيـرـ عـبـدـ اللهـ وـهـوـ مـاـ اـنـقـلـ مـنـذـ اـنـضـمـ اـلـيـهـ يـفـغـرـ بـفـصـاحـهـ وـقـوـةـ عـارـضـهـ فـكـفـ يـظـهـرـ مـنـهـ هـذـاـ الـفـعـفـ ؟ـ فـلـمـ يـجـدـ خـيـرـاـ مـنـ اـنـ يـجـعـلـ السـبـبـ اـرـتـبـاـ كـاـ طـرـاـ عـلـيـهـ لـشـيـ شـاهـدـهـ فـيـ تـالـكـ الجـلـسـةـ وـيـشـرـكـ

عبد الله معه في المصيبة وينجزه إلى مشاركته في الانتقام . ولما خطر له هذا الفكر ابسط نفسيه . وكانت الشس قد مالت نحو المغيب فنهض وليس ثابه وتحقق بجاهه الخصي فامر ان يسرج البغلة فامسرجها فركب وسار يطلب قصر مروان منزل الامير عبد الله . وكان هذا الامير شاباً في مقتبل عمره قد تثقف كاتثقف سائر اولاد الاصغر وشب على حب العلم والادب مع تقوى وتدبر اصم . لم يكن حراً الفكر مثل اخيه الحكيم ولذلك فإنه لم يكن يستدعي غير الفقهاء المتعصبين الذين ينكرون النظر في غير علوم الدين ولم يكن يقتني غير كتب الادب والدين ، ولو فتشت مكتبه كلها ما وجدت فيها ورقة في الفلسفة او المنطق او الطب او غيرها من كتب الطبيعيات . واما اخوه الحكيم فربما وجدت عنده كثيراً في هذه المواقف لكنه لم يكن يظهرها بمحاراة للعامة في اميرالم . وكان الامير عبد الله صادق الطوعية ينير دهاء او تعلق . ونظرآ لتفوته وتدبره فكل من يأتيه من جهة الدين يغليه او يسلط على افكاره . ولذلك كان يحترم الفقهاء ويقر بهم وخصوصاً ابن عبد البر لما سبق الى ذهنه من سعة علمه ومقدراته على حل المشاكل — ليس لدليل محسوس وإنما اعتقاد ذلك بناء على دعوى الفقيه لنفسه

الفصل السابع عشر

الامير عبد الله

ولم يكن قصر مروان بعيداً عن منزل ابن عبد البر وكان يمكنه ان يأتيه مائياً ولكنه أحب المانعنة على مظاهر الاية برکوب البغال لثلاثة يقول قائل ان فشله في ذلك اليوم حط من قدره أو اذله . ولو لا ذلك الفشل لذهب الى منزل الامير مائياً ولم يبال لوثقه باحترام الناس له . وأما فشله اليوم فقد صغر نفسه فاصبح يخاف العار من أقل الامور

وصل ابن عبد البر الى باب حدائق القصر وحملها رأه الباب نهض وفتح له الباب فدخل على يفلته الى الحديقة والسايس يمشي في أثره حتى اذا اقترب من باب القصر نقدم الحاجب — وهو خصي جميل الصورة أصله من خصيان الزهراء جاري بالناصر أهدته الى الامير عبد الله فاجب به وجعله كالمواشر . وقربه لما آتاهه من لطفه وخفته روحه . راسمه (ساهر) — فلما رأى ابن عبد البر مقبلًا اسرع اليه ومساعدته في الترجل عن يفلته وهو يرجح به . فسألته عن الامير عبد الله فقال « هو في مكتبه يطالع »

فطلب إليه أن ينثئه بقدومه فقال «ليس على الفقيه حجاب» فاستأنس ابن عبد البر ومشى في آخره حتى دخل القاعة وهي مفروشة بالعنائس والمسائد بجلس وخرج ساهر لعلم مولاه بقدوم الفقيه . ومكث هذا والمواجس تقادمه في ماسيره في وجه الأمير من التغير . ولم تمض لحظة حتى أقبل الأمير عبد الله وبده كتاب يظهر من نقاقة اطرافه انه كتب من عهد قريب فوقف الفقيه وتأدب في السلام . فلم يجد في وجه الأمير تغيراً فابتسمت نفسه وأقبل يختبر عبارات الاطفال يعطيها فشه وعبد الله يسايره حتى جلس إلى جانبيه والكتاب لا يزال في يده

قال ابن عبد البر «أرى في يد الأمير كتاباً جديداً»

قال «نعم هو كتاب جديد وهو لفقه حي يرزنق»

فنظر الفقيه في ظاهر الكتاب وقال «لا أذكر أنني رأيت هذا الكتاب بين كتب مولاي قبل الآن»

قال «لأنه أثنا في هذه الساعة»

قال «في هذه الساعة من أين؟»

قال «بعث به إلي أخي الحكم وللي العهد . وكانت قد خاطبني بأنه ونحن في اليوم»

فلا سمع اسم الحكم واليهو تذكر شيئاً كثيرة وكاد يظهر التأثر في وجهه لكنه تحمل

وقال «يقول مولاي أن موالده حسي»

قال «نعم وهو الآن في قربابة وقد شاهدته في هذا الصباح وسمعت خطابه»

فأثنى الفقيه وقال «ألهنه» كتاب الأمالي لاسماعيل بن القاسم القمي فقد عدل عن أنه

ألف هذا الكتاب لولانا وللي العهد وطاف البلاد في البحث والتنقيب من أجله كتاب نفيس»

قال «نعم هو بيته وقد قدمه لأخي فلذكره لي في صباح هذا اليوم وارسله إلى لا طالعه وإذا أتعبي كلفت أحد الوراقين بنسخه»

فأطرق الفقيه حينما وهو بتأمل ثم قال «ولماذا لم يقدمه الذي للامير عبد الله؟ وهو يعرف قدر العلم»

ففحشك عبد الله وقال «لا أدرى وهل تزعم أن أخي لا يعرف قدر العلم؟» فاجاب وهو هاز كتفيه «هو يعرف كل شيء طبعاً ولو لاذلك لم يجعله أبوه وللي العهد» وظاهر من ملامح وجهه أنه يضر بشئ آخر

قال عبد الله بسذاجة وصدق نية « ربما كان هذا من اسباب ولادة العهد . ولكن الولاية آتاك اليه لأنك أكبـر أخوته »

قال الفقيه « ليس الكبر شرطـاً من شروط الولاية فـإن الخليفة يجب أن يلـتفـت فيـمن يـولـيه بعدهـ انـ يـكونـ أهـلاًـ لـالـحـكـومـةـ وـتـكـونـ شـرـوطـ الـخـلـافـةـ مـتـوفـرـةـ فـيـهـ . . . ولـذلكـ رـأـيـناـ كـثـيرـينـ مـنـ الـخـلـفـاءـ عـدـلـواـ عـنـ أـكـبـرـ أـوـلـادـهـ إـلـىـ مـنـ هـمـ دـوـنـهـمـ فـيـ السـنـ اوـ بـاـيـعـواـ غـيـرـ أـبـاهـمـ رـغـبةـ فـيـ مـصـلـحةـ الـسـلـيـنـ »

الفصل الثامن عشر

الوشية

نـقـوـصـ عـبـدـ اللهـ فـيـ ذـاكـ الـكـلامـ خـرـوجـاـ عـنـ الـمـأـلـوفـ مـيـاعـهـ مـنـ هـذـاـ الـفـقـيـهـ . . . ولـكـنهـ كـانـ حـسـنـ الـفـلـنـ فـيـهـ قـالـ « لـمـ يـعـدـ الـخـلـفـاءـ عـنـ أـكـبـرـ أـوـلـادـهـ إـلـىـ سـوـاـمـ الـأـسـبـابـ خـالـفـ شـرـوطـ الـخـلـافـةـ »

قال « هل يـذـكـرـ مـوـلـايـ الـأـمـيـرـ شـرـوطـ الـخـلـافـةـ ؟ »

قال « أـعـرـفـ طـاعـشـةـ شـرـوطـ »

قال « هل وـجـدـتـ يـنـهاـ أـنـ يـكـونـ أـخـلـيقـةـ أـكـبـرـ أـخـوـتـهـ ؟ »

قال « كـلـاً .. وـلـاـ انـ يـكـونـ أـبـنـ أـخـلـيقـةـ السـابـقـ . . . فـإـذـاـ حـمـلـنـاـ بـذـاكـ وـجـبـ اـخـيـارـ وـلـيـ العـهـدـ مـنـ جـمـهـورـ الـسـلـيـنـ . . . وـاـنـاـ فـيـ تـوـاـدـاـ صـطـلحـ عـلـيـهـ اـخـلـفـاءـ بـعـدـ جـعـلـ الـاسـلـامـ مـلـكـاـ عـضـوـاـ »

قال الفقيـهـ « مـاـنـاـ وـلـدـاـ دـعـاـ مـنـهـ وـقـلـ لـيـ إـذـاـ شـتـ ماـهـيـ اـهـمـ شـرـوطـ اـخـلـافـةـ وـاوـطـاـ »

قال « اوـطـاـ حـفـظـ الـدـيـنـ عـلـىـ اـصـوـلـهـ الـمـسـتـقـرـةـ وـمـاـ اـجـمـعـ عـلـيـهـ سـلـفـ الـأـمـةـ فـإـنـ ظـهـرـ مـبـتـدـعـ اوـ زـاغـ ذـوـ شـيـهـ عـنـهـ اـوـضـعـ لـهـ الـحـجـةـ وـبـيـنـ لـهـ الصـوابـ وـاـخـذـهـ بـاـ يـلـزـمـ مـنـ الـحـقـوقـ »^(١)

قال الفـقـيـهـ « يـكـفيـ هـذـاـ الشـرـطـ .. فـهـلـ هوـ مـشـوـفـ فـيـ مـوـلـاناـ وـلـيـ الـعـهـدـ ؟ »

فـاستـغـرـبـ عـبـدـ اللهـ مـوـالـهـ وـقـالـ « كـيـفـ لـاـ .. دـعـاـ مـنـ هـذـاـ اـبـهـثـ الـآنـ »

قال « دـعـاـ مـنـهـ اـذـاـ شـتـ وـلـكـ الـأـمـرـ يـاـ مـيـديـ . . . ولـكـتـيـ لـمـ يـمـدـ يـكـتـنـيـ كـثـيـانـ مـاـيـفـيـ نـفـسيـ مـنـ النـيـطـ . . . بـعـدـ اـنـ كـسـتـهـ اـعـوـاماـ . . . »

فـنـقـرـسـ عـبـدـ اللهـ فـيـ وـجـهـ فـرـأـيـ الـجـلـدـ فـيـهـ قـالـ « وـمـاـ ذـاكـ ؟ »

قال « أـقـولـ مـاـ فـيـ نـفـسيـ ؟ »

قال «قل .. لا باس عليك»

قال «ما برجتْ منذ أستدت ولادة العهد إلى مولانا الحكم وأنا أقول في سرّي ما إذا لا تكون لسيدي الأمير عبد الله تعلي أن شروط الخلافة أوفر فيك مما فيه .. ينفي لسيدي أن يعتقد صدق نبغي في خدمة المسلمين .. ولا ينفي عليه أنه صنيعة مولاي الحكم وأنا اعرف الناس به .. وقد خدمت مولاي الأمير أيضاً وأظلمت على الحقيقة في الأميرين .. فكنتُ كأخطر لي هنا أخاطر أشعر بانتقاض وانا اكتم ذلك عن مولاي .. وأمام الآن فلا أجد بدّاً من التصرّع بعد أن كدت افتقض او اففتحت في ذلك الموقف بالامس .. فلما استطع كلّة اقوطا ولا اثنان الامير يقترب ذلك الى جهلي فما هذه اول مرّة وقف فيها خطيباً كما تعلم .. ولكنني اعترف لك أنه لما شاهدت مجلس أمير المؤمنين وابنائه إلى جانبيه ورأيت تمييز الحكم بالولاية والشارقة والجلس مع علي بن قفضل الأمير عبد الله وما ترجوه الأمة على بده لم أتمالك عن الغضب وانتقمت نفسي وشغل خاطري حتى اضفت رشدي .. فلما طلب إلي الكلام لم استطعه» كما رأيت .. قال ذلك وقد بدا الاهتمام في حياده وعيشه وتندى جيشه بالعرق

فلا سمع عبد الله كلامه اعتقاده لكنه لم يفتح بانتقاده فقال «اراك تقول ما تقوله من غريبك لنفكك فلا ينفي لك أن تحمل ذلك ذريعة للعلم على ولّي العهد .. ولو لا اعتقادي صدق طورتك لم أصبر على مسامع دلامك — ان الحكم اجدر مني بهذا الثصب من كل وجه انه أكبر مني سنًا وأوسع علماً وأكثر دراية»

نخاف الفقيه عاقبة تصرّعه وكاد يُغلب على أمره بين يدي عبد الله فعمد إلى التخلص فقال «قد أسرتْ فهم مرادي يا سيدي فما أنا طاغٌ على ولّي العهد ولكنني أقول ما أعرفه .. ومع ذلك فاتت صاحب الرأي وكنت احبيك تغتب صدق نبغي في خدمة المسلمين .. انت اعلم مني بما صارت إليه الخلافة من الانقسام بالترف والانحراف عن خطبة اخلفاء الراشدين لم تز ما يأتيه أمير المؤمنين من تقديم الحصيان دون سواه حق كادت السلطة تأول إلى غير اهلها — لا أخاف أن يقع ذلك في زمن الناصر لعله وقواه ولكنني أخاف منه في أيام الحكم وهو لا يزال ..»

قطع عبد الله كلامه وقال «دع هذا الحديث إليها الفقيه وحدثنا بما يفيد — أي اراك تطاولت في طعنك إلى والدنا الناصر صاحب هذه الدولة وهو الذي اقام بينها وكتب الكفار وغلب الاعداء .. ونصر الدين»

فابتدره الفقيه قائلاً «حاش الله ان انكر ذلك عليه وانما انا اخاف من يخليه — الا تخاف على الاسلام اذا كان خليفته يقرأ كتب الفلسفة؟»

فصاح عبد الله « كتب الفلسفة .. ؟ تعنى ان اخي يقرأ هذه الكتب .. معاذ الله ..
واما فرض انه يقرأها فما علينا الا النصيحة له ان يتركها .. »
فابتسم ابسامه اغتصاصية وقال « نصحه .. هل تظنه يقبل النصح ؟ فلتركته عسامه ان
يهشدي »

وشعر الفقيه انه فشل بوسايه ولم يجد في نفسه قوة على الاقناع . وكانت الشمس قد توارت
وراء الافق واقيل الظلام . ولم يشعر الفقيه بذلك الا لما رأى احد الخدم دخل ويدله
مسرجة اضاء مسراجها ووضمه على دكة في بعض جوانب القاعة . فذكر الفقيه سعيداً الوراق
وما سمعه من تعريضه بالامر الذي باحث الامير عبد الله به فلجل الخوض في الموضوع ريثما
 يأتي وكان على موعد من مجشه في تلك الليلة

الفصل التاسع عشر

سعید و عبد الله

وها في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً الوراق بالباب ياسidi ؟ »
فالثفت عبد الله الى الفقيه كأنه يستفهمه عن سبب مجشه فقال الفقيه « افلته قادماً
بالكتاب الذي اخبرت مولاي عنه »
فقطع عبد الله كلامه قائلاً « العقد الفريد .. مرجحاً بكل قادم علينا بدل هذه الغاف »
خرج الحاجب ثم عاد ورفع الستارة عن الباب حتى دخل سعيد وقد ابرقت عيناه
ونبلت الميسنة في عياه خيراً ووقف . فدعاه عبد الله الى الجلوس فجلس على وسادة وهو لا يحمل
 شيئاً .. »
فقال عبد الله « انت سعيد الوراق .. افلته رأيك قبل الان .. مرجحاً بقدومك .
اين العقد الفريد ؟ »

قال « هو خارجاً ياسidi هل ادخل به عليك »
قال « كيف لا ؟ »

فنمض وعاد الكتاب بيده ملفوتاً بلاهة من الحرير فوضعه على وسادة بين يدي الامير
عبد الله فأخذ يقلب فيه ويشتمل نظافة خطه وحسن تبويبه وضبط كتابه وسعيد صامت
ثم قال عبد الله « انه خط جميل .. »
فقال الفقيه « الم اقل مولاي انه خط فاتة ؟ »

فاثقفت عبد الله الى سعيد كأنه يستشهد فقال « نعم يا سيدي وقد رأها الفقيه بعينه وسمع كلامها فقطع الفقيه كلامه وقال « ألم أقل لك ان قاتي بها معك الليلة ليراه مولانا الامير ابن في؟ »

قال « قد اتيت بها وهي في دار الجواري »

قال « عبد الله سنسنقدمها بعد قليل ... هل جاءك كتاب جديدة غير هذا؟ »

قال « سمعت بكتاب لا يزال صاحبه يعمل في تأليفه وهو احسن كتاب الأدب على الاجمال لانه يبني عنها جيمماً »

فططاول عبد الله عند ذلك وقال « افلانك تعني كتاب الامالي للقالي » وتناوله من جانبه وقدمه اليه ليراه

فأخذته سعيد وفتح اول صحفة منه فوجد عليها علامه الحكيم فقال « هذا المولاي ولـي العهد ... قد علـت ان الامام اباعلي اسماعيل القالـي أـللـهـ لـهـ .. بالـحـقـيقـةـ انـ مـوـلـاـنـاـ الحـكـيمـ يـذـلـ الـامـوـالـ فـيـ اـقـنـاءـ الـكـتـبـ وـيـرـغـبـ اـهـلـهـ فـيـ التـأـلـيفـ »

فاحس عبد الله بغيره من هـذاـ الـاطـرـاءـ وقال « هل هـذاـ هـوـ الـكـثـابـ الـذـيـ اـشـرـتـ اليـهـ الانـ؟ـ »

قال « كـلـاـ ياـ سـيـدـيـ »

قال « واـيـ كـتـابـ هوـ؟ـ »

لـظـاـهـرـ سـعـيدـ بـالـتـرـدـدـ وـقـالـ « كـتـابـ آخـرـ اـهـمـ مـنـ هـذـاـ رـجـاـ زـادـ عـلـىـ خـمـسـةـ اـضـافـةـ ۱۰۰۰ـ »

قال « وـمـاـ اـسـمـ مـوـلـهـ؟ـ »

فـنـظـرـ سـعـيدـ إـلـيـ الـفـقـيـهـ كـانـ يـوـسـطـهـ فـيـ اـسـعـفـ الـأـمـيـرـ مـنـ ذـكـرـ اـسـمـ الـكـتـابـ .ـ وـلـمـ يـكـنـ الـفـقـيـهـ عـلـمـاـ بـشـيـءـ مـنـ ذـلـكـ فـظـهـرـ الـاسـتـغـرـابـ فـيـهـ .ـ فـلـمـ عـدـ اللـهـ الـانتـظـارـ قـالـ « مـاـ بـالـكـ يـاـ صـاحـبـ ؟ـ الـعـلـكـ نـدـمـتـ عـلـىـ كـلـامـكـ ؟ـ »

فـاظـهـرـ التـلـطـفـ وـالـاسـمـطـافـ وـقـالـ « تـمـ نـدـمـتـ وـكـانـ بـنـبـيـ لـيـ اـنـ اـحـفـظـ مـاـ اـؤـتـمـتـ عـلـيـهـ مـرـاـ وـلـكـنـ لـسـانـيـ سـبـقـيـ »

فـازـدـادـ عبدـ اللهـ رـغـبةـ فـيـ مـعـرـفـةـ ذـلـكـ السـرـ وـقـالـ وـقـدـ بـانـ التـغـيرـ فـيـ عـيـنـيهـ فـيـقـيـهـ إـلـيـ الـكـلـامـ فـائـلاـ »ـ تـحـفـظـ ذـلـكـ مـرـاـ عنـ مـوـلـاـنـاـ الـأـمـيـرـ .ـ وـمـنـ تـحـافـ الشـاهـ؟ـ »

قال « اـخـافـ مـنـ لـاـ يـفـضـلـهـ فـيـ الـحـكـمـ غـيرـ اـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ »

فـقـيـمـ عبدـ اللهـ اـنـهـ يـعـنـيـ اـخـاهـ وـلـيـ الـمـهـدـ فـقـالـ « اـذـاـ كـانـ الـأـمـرـ يـعـلـقـ بـاـخـيـنـاـ الـحـكـمـ مـاعـلـيـكـ

اذا قلته لي من ياب العلم بالشيء؟

قال « يصح لي مولاي الامير ان اقول كلة »

قال « نفضل قل »

قال « ان الكتاب من كتب الادب ويليق بالامير عبدالله أكثر مما يليق بأخيهولي
العهد لعلني باليدي كل منها الى اي صنف من الكتب » . . .

فاستبشر الفقيه انه سيدكر ميله الى كتب الفلسفة فلما رأه سكت اتم كلامه من عند
نفسه فقل « اذنك تعني ان الحكم يميل الى اقتداء كتب الفلسفة »

فعرض سعيد على شفته السفل واظهر انه استاء من تصريح الفقيه وتصدى للدفاع
عن الحكم فقال « من قال لك ذلك؟ . ربما اقتني وللي العهد بعض كتب الفلسفة لكنه
ارغب في كتب الادب والشعر واللهجة .ليس هو الذي حمل القالبي على جمع هذا الكتاب
وهو من كتب اللغة . . . وذهه مكتبه وفيها الوف من هذه الكتب . . . دعنا من
هذا الان »

فقال الامير عبدالله « لم اعد اصبر على كمان اسم ذلك الكتاب واسم مؤلفه بعد
ما تقدم من هو؟ » قال ذلك بلحن الأمر
فاظهر سعيد انه يقول ذلك اذاعاناً لامر و قال « ان الكتاب ياسيدي في الغداه واسم
الاغاني »

قطع الامير كلامه قائلاً « الاغاني لوصلي »

قال « كلاماً ياسيدي ان مؤلفه ابو الفرج الاشبيلي الاديب المشهور وهو من بني
امية . . . ان الكتاب لم يخرج للناس بعد ولكنني سمعت عنه شيئاً كثيراً واطلعت على بعض
اوراقه في بغداد . . . ولكن لا فائدة لنا من القول فقد علمت ان مولانا وللي العهد بعث من
يشتري الكتاب من مؤلفه واوسماء ان يبذل له ما شاء من الدنانير . . .

فالتفت الفقيه الى سعيد وقال « فاذا اراد مولانا الامير عبدالله اقتداء من يمنعه؟ »

قال لا اعلم ولكنني اعلم ان وللي العهد بعث من يشتريه ثم انا عرفت ذلك سرّاً واما
بحث به هنا صدفة واذاعاناً للامير »

فتشتت عن عبد الله ليشغل نفسه عملاً جال في خاطره من الغيرة على تقدم أخيه عليه حتى
في الامور الادبية كاتبوا الكتاب ونحوها واخذ يقلب صفحات المقدمة الفريدة بين يديه
فابتدره سعيد وهو يظهر انه يستغل استغرابه فقال « هل رأيت اجمل من هذا الخط
يا سيدى . . . واستأثره في تناول الكتاب ففتح الفصل الاول منه وهو يبحث في ما يصحب

السلطان فوضع يده على فقرة من ذلك الفصل وقال « اظن مولاي اتبه هذه القاعدة من الخط اتها خط اي علي ابن مقالة الكاتب الشهير في بغداد وقد توفي من بعض سنتين (٥ ٣٢٨) »

فصاح عبد الله « ابن مقالة ؟ هذا خطه ؟ خطه ياده ؟ »

قال « كلا يا مولاي ولكن الجارية التي نسخته من مولدات بغداد وقد اخذت الخط عن ابن مقالة نفسه . . . »

فعمل عبد الله يتفرس في الخط وسعيد يوجه نظره الى فقرة أخرى من ذلك الفصل وفيها حكاية قديم عمر بن الخطاب الى الشام . واخذ يظهر انه يقرأ هذه القطعة اعجباً بخطها فقرأ منها « ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حار ومعه عبد الرحمن ابن عوف على حار فتلقاها معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه . فلما قرب منه نزل اليه فأعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن ابن عوف اتعبت الرجل . فأقبل عليه عمر فقال يا معاوية أنت صاحب الموكب آنذا مع ما بلغتي من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال ونم ذلك . قال لانا في بلد لا نفتح فيها من جوايس العدو ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني بذلك اقت عليه وان نسيتني عنه انتزعت . فقال لئن كان الذي تقول حقاً فاه رأى أرب وان كان باطلًا فاتها خدعة اديب » (١)

ثم قرأ بعده ببضعة عشر سطراً حكاية قديم أبي موسى الاشعري على عمر بن الخطاب وفيها من المبالغة بالزهد والرغبة عن الملذات ما فيها فقرأ منها قول عمر « قال ياربيع امالو نشاء مالأنا هذه الرحال من صلائق وسبائك وصناب ولكنني رأيت الله تعالى نهى على قوم شهوااتهم فقال أذهبكم طيابكم في حياتكم الدنيا واستقتم بهما . ثم امر أبو موسى أن يقرني وأن تستبدل بأصحابي »

وكان سعيد يقرأ ذلك ويوقع النبرات في اماكنها بحيث يتضح المعنى المراد . وكان عبد الله يسمع ويعتبر لقرب عهده بكلام الفقيه عن بذخ ابيه وحفظ الفقيه ذلك فقال « الله در ابن الخطاب وسائر الخلقاء الراشدين فقد كان احدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ وفي رجله نعلان من ليف وحائل سيفه ليف ويشي في الاسواق كبعض الرعية واداك ادمي الرعية أسمعه أغلفظ من كلامه وكالو يعودون هنا من الدين الذي بعث به النبي صلوات الله عليه وسلمه (٢) ابن هم وain الخلقاء بعدهم ؟ »

(١) المقد الدرج ١ (٢) الغري

فقال سعيد « صدق الفقيه ان الجديرين بالخلافة قليلون وقد تغير الناس وقلبت احوالهم بعد الراشدين فانقسموا في الابهة والتزف ولم يفعل ذلك احد منهم الا دل على قرب ذهاب دولته كما اصاب العباسين في بغداد لاواخر دولتهم وأخاف ان يتطرق ذلك الى هذه الدولة . والحق يقال لا ارى بين ابناء امير المؤمنين اقرب باخلاقه وتدينه من الراشدين غير مولانا الامير عبد الله فهو النبي الزاهد ^(١) .. لا اقول ذلك لفتنة وقائما الله منها قان الامر قد استتب الآن اولانا الحكم ولكنني اقول ما يخطر لي ... »
 فنظر الفقيه الى عبد الله من طرف خفي وأشار بعينيه كأنه يستشهد بما قاله سعيد
 على صحة قوله

الفصل العشرون

وخف سعيد ان يقول الفقيه شيئاً يضجر منه عبد الله لانه كان خمسة ذهنه يكاد يستطلع ضمير مخاطبه خروج الحديث وقال « مالنا وطننا الان . هل يأذن الامير بالنصراني ؟ »

فأظهر عبد الله الاستغراب وقال « انصرافك ؟ الى اين ؟ .. اين هي الجارية التي ذكرتها ؟ . هل هي جارتك ؟ »

قال « هي جارية لي ولكنها جارية ادب وشعر ومنادمة وليس لها شيء غير ذلك . فاتها ستفت وحفظت الشعر واقتنت الخط والغاء والقرب على الآلات .. هل يأمر مولانا باستقدامها الساعة ؟ »

فصفق عبد الله فأتى ساهر الحاجب فأمره ان يستقدم الفتاة نخرج وعاد فادخل عايدة وانصرف فدخلت وهي ساعتين في اجل حالاتها لاتها هيأت نفسها للاقة ابن الخليفة الناصر حسب وصية سعيد او استهواه . فلبست ثوباً لطيفاً واصاحت شعرها واظفمت اسنانها فضلاً عما في وجهها من اهمية والذكرة

فلما وقع نظر عبد الله عليها شعر بيل لها واستلطفها وأشار اليها ان تعمد فعمدت متأدبة وقد اطربت حياء قاتدرها الامير قائلًا « ما هو اسمك يا حسناء ؟ »

قالت « عادة يا سيادي »

فأعججته رخامة صوتها فقال: «قد أنتَ سعيد إنك تحفظين الشعر وآخبار العرب
فأي الشعر تحفظين؟»

قالت: «ماشت يا سيد.. من شعر الجاهلين أو المسلمين أو المحدثين كاتشاده»
قال: «هل اطلعت على جهرة أشعار العرب لابي زيد؟»

قالت: «نعم وحفظت نوادره وديوان الحماسة للبحترى وطبقات الشعراء لابن قتيبة
وقرأت أكثر دواوين المحدثين وكثيراً من كتب الأدب وأخرها كتاب العقد الفريد
هذا... إنه كتاب جيل»

قال: «لقد زدته جالاً بخطك الآتيق...» قال ذلك وتناول كتاب الامالي بيده
ولم يكُن يفتحه حتى قالت: «ليس هنا كتاب الامالي للقالي؟»
فاستغرب معرفتها إياه وهو يحسبه لم يتصل بسواء بعد أخيه الحكم فقال: «وهل
قرأته؟»

قالت: «تصفحته على عجل حفظت منه شيئاً علق بذهني أتلوك منه إذا شئت
ما يتعلق بأخبار أجدادكم بني أمية في الشام»

فأبرقت أسرته أعجبها وسروراً وقال: «هات ما يخطر لك»

قالت: «هل أقص عليك حديث عبد الملك بن مروان لما خرج لقتال مصعب بن
الزبير؟ إن عبد الملك كان رجلاً شديداً استخلاص الخلافة لنفسه وطالبوها كثيرون
حاربهم واستقل بها - يعجبني من حماسه وعلوه منه خروجه خاربة مصعب من الشام
إلى العراق وقد أرادت أم يزيد ابنه (أمرأته) منه عن المسير فقالت: «يا أمير
المؤمنين لو أقت وبعثت اليه لكانرأي» فقال لها: «ما ألى ذلك سيل» فلم تزل
تشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب فلما يئست منه رجمت فبكى وبكي حشمها
معها. فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال: «وات أيضاً من يبكي؟ قاتل الله
كثيراً كأنه كان يرى يومنا هنا حيث يقول:

إذا ما أراد الفوز لم تفن همه حسان عليها نظام دري بزيناها
نهته فلما لم تر النهي طافت بكى ما شجاها قطيناها

ثم عزم عليها بالسکوت وخرج^(١) - إن عبد الملك إليها أمير رجل طلاق معاشر لم
تره لم ينفك عن الخلافة حتى ناطها فقال فيه كثير:

احتاط يداه بالخلافة بعد ما أراد رجال آخرون أغاثها

(١) امالي القالي ج ١

وكان الامير عبد الله في اثنا عشر كلامها ينقار الى ما يبدوا في وجهها من ملامح الاعجاب
يعلو همة عبد الملك وقع كلها في اذنيه وقوع النغم الشجي على قلب الصب المتم واحس
 بشيء استفزه للحس ف قال « لقد احسنت يا عايدة وهل تحفظين لغير بني امية؟ »
 قالت « ويعجبني من الشعر يامولي ما يستحب المروأة وبهيج الاربعية كقول
 زهير بن ابي سلمى من معلقتها :

ومن لم يلد عن حوضه بسلاحة
 ومن يجهل المعروف من دون عرضه
 يفره ومن لا يبني الشتم يشم
 ومن يجهل المعروف في غير اهله
 يهد حمده ذما عليه ويندم
 ومن لا يزال يستحمل الناس نفسه
 ولا يغشا يوما من شهر يأسا
 ومهما تكون عند امرىء من خليفة
 وان خالما تختفي على الناس تعلم

فما بلغت الى هذا صاحب التقى « الله در هذا الجاهلي ما ابلغه ان كلامه يحرك المهم » أراد
 استئناس همة الامير عبد الله . أما عبد الله فأخذته الطرد من حسن القاء عايدة وتتجاهل
 امر الحاس . وكان كتاب الامالي في يد مر قلبه حتى ألقى على ايات اشار باصبعه عليها
 وقال « ان احسن مما ذكرت قول علي بن عباس هذا :

وحديها السحر الحلال لو انه لم يجئ قتل المسلم المحرر
 ان طال لم يجعل وان هي اوجزت وذا الحدث انها لم توجز
 شرك العقول ونهاية ما مثلها لطعن من وعفلة المستوفى

قالت سعيد الى عايدة وطال « قللي يا عايدة من الحاس »
 قال عبد الله « اغلبك تخف على الخروج .. والله لا اطبع لي بشيء من ذلك والتقى
 يعلم رأيي »

قال سعيد « اذا لم يكن ذلك باعث فالخروج مظاهرة سوء »

فقالت عايدة « ويعجبني قول عمرو بن كلثوم من معلقتها :

اذا ما الملك سام الناس خفنا اينا ان نقر الخسف فيما
 الا لا يجهل احد علينا فجهل فوق جهل الجاهلينا

فطرب التقى لهذا المعنى واستفادة السرور حتى ضحك وهو يتنظر الى عبد الله . فقال
 عبد الله وهو يقلد انشادها « فجهل فوق جهل الجاهلينا .. »
 قال ذلك وتدبر الجد في عينيه فرأى سعيد الوقوف عند هذا الحد فقال « الامر
 الامير ان تغنى له شيئا ؟ »

قال « وهل تحسن النزاء ، وعَنِّي من تعلم ؟ »
 قال « تعلمت على مغبني بغداد خلاة الموصلي وحفظت أغانيه »
 قال « غني لا ما تعرفينه »
 قالت « هل أغنى نداء ابراهيم بن المهدى الذي شفأه النزاء عن طلب الخلافة فقضى
 عمره كأنه من العامة ؟ انه كان طروراً ولهم نداء حسن »
 فقال الفقيه « غني يا عابدة انه نداء ابن خليفة يسمى ابن خليفة ولكن شأن ينتها
 فأخذت تغني

هل تطمسون من السماء نجومها باكفكم أو تسترون هلاماً
 أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقاموا

الفصل الحادى والعشرون

الانصراف

فطرب عبد الله واخذت عابدة يجتمع قبلة واحس بليل نحوها غير ميل الناس الى الاماء
 لانه آنس فيها عزة وقرة وادياً ورقه فاحب ادتها وبالاغتها وذكراها فامر بالآذنة من الفاكهة
 والاطعمه والاشربة المتشعة لانه لم يكن يمس الخضر ولا التمر ولا يطريقها
 فلما مدت المائدة وليس عليها شيء من الخمور نظر سعيد الى الفقيه كأنه يسأله وقال
 له « هذا اولى بها » وأشار الى المائدة وخلوها من الخمور . ففهم عبد الله انه يشير الى
 الخلافة . ولكن حسب نفسه فهمها خلسة مع انها مقصودة . لكنه تجاهل واستعاد النذلة
 صوتاً آخر ففتحته وغنت غيره حتى طربوا فقال الامير عبد الله « الا تعرف عابدة الفرب
 على المعود او غيره »

فاللقت سعيد اليها فدلت يدها الى جيبيها فاستخرجت عيدانها واوناراً واخذت تركبها
 وتشدها فصارت آلة كالقانون واقتلت نضرب عليها ضرباً ممنينا اسكن الامير بلا مدام فقال
 لسعيد « ما اسم هذه الآلة ؟ »

قال « هذه القانون يا سيدى »

قال « لا اذكر افي رأيتها من قبل »

قال « ان مخترعها لم يزل حياً وهو عالم كبير لكنه من رجال الفلسفة . واند تعمق
 بابحاثها والفقها كثيراً »

قطع كلامه قائلاً « اغلبك تعني الفارابي التركي الفارسي الذي نشأ في الشام »
قال « نعم هو يعنيه »

قصدى القىقى للكلام فـ قال « أليس هو صاحب القصة مع سيف الدولة يوم حضر مجلس غنائه وهو لا يعرفه وسألة اذا كان يعرف الغناء فاستخرج آلة ضرب بها فبك من في المجلس ثم فكرها ورکبها وضرب ضرباً آخر فنام من في المجلس ؟ »

قال عبد الله « بلى هو نفسه وهذه هي الآلة التي ضرب عليها وقد تكنت عابدة من اخذها عنه »

فازداد الامير عبد الله انجذباً بالفتاة وتعلق بها فقال « الا تبيع هذه الحسنة ؟ »

قال « اجلها عن وصمة البيع والشراء ياسيدى ولكننى اكون أنا وهي في خدمة الامير ابده الله »

قال « أما انت فاود ان تعدل عن الورقة للناس وتخصى بفضلك فتكون خازن كتبى
فتحقات وآباءه هل تستطيع ذلك ؟ »

فأشعر عبد الله برأسه مطيناً وقال « انى أعد من اسباب سعادتى ان اكون في خدمة مولاي الامير فابنل جهدي في مصلحته .. وقد كنت أعلم بان اقول له ان عابدة لا تخلي عنها لانها ألتقتى وانا احفظها اشياء من الادب والشعر لم تعرفها وكان على انى اتردد عليها حيناً بعد آخر .. »

قطع عبد الله كلامه قائلاً « لاحاجة الى التردد انت تفهم في هذا التصر وتنولى توبيخ الكتب في اماكنها وتسعفي في التفتيش عن الكتب في مظانها فاني لا اريد ان تكون في قرطبة مكتبة خيراً من مكتبتي »

وأشار سعيد برأسه مطيناً وسكت

فشق الامير عبد الله بفمه ساهر فقال له « أعددوا داراً خاصة لزيارتا سعيد وادخلوا عابدة دار النساء مكرمة »

توقف سعيد ب يريد الانصراف فدعاه الامير عبد الله للبقاء هناك فقال « لا بد لي من الانصراف لتدبر امورى والتفرغ لخدمة مولاي »

وذهب القىقى وهو يقول « واما انصراف ياسير الامير الى منزلي »

اما عابدة فـلا أحسست بيقائماً وحدها نظرت الى سعيد وقد توردت وجهتها من الحماد
لبقائهما وحدها هناك . فتقدم سعيد اليها وربت على كتفها وقال « لا تخافي يا عابدة انى في
چاشه الامير عبد الله وسكنوبن معززة مكرمة » واثنت على الامير وقال « بأمر مولاي

ان تأتي القهرمانة لمرافقتها الى دار النساء فتسأنس بها «
فأمر فاتت القهرمانة الى باب القاعة . نفرجت عابدة معها وهي تلتفت الى سعيد وقد
شقّ عليها فراقه
أما سعيد والفقير فودعا الامير عبد الله وركب كلّ منها بعنه وانصرفا . ولا خرجا
من الحديقة قال الفقيه « لا نثبت ان نصل الى منزلي .. ألا تخوّل معي نكث هذه يه ونيت
عندى الليلة ؟ »

قال «لا يأس من ذلك» وتحمّلاً ودخلوا وقد سرّ الفقيه بزوله لأنّه عزم على الاستئثار به في اقناع الأمير عبد الله بما أراده على الحكم. ولم يعلم أن سعيداً أكثر رغبة منه في ذلك ولكنّه أكثراً دهراً وأوسم صدرأ

دعاه الفقيه الى غرفة واسعة فيها سراج مضي ؟ وقد فرشت ارضها بالحصى والبسط في في ابسط ما يكون . وأمر الفقيه خصيه ان يبعد فراشين يفرشهما بـ تلك الغرفة ففعل . واخذ النقيه في تخفيف ثيابه ودعاع سعيد يثوب خفيف ثبديله . فبدلاً لثيابه وجلس كل منها على فراشه وسعيد يقرأ كل حركة من حركات الفقيه كأنه في ضميره . والنقيه يحس للسه يجدال في اغراقه على عبد الله

الفصل الثاني والعشرون

الموارد

فلا جلا قال الفقيه « انا عملنا اشياء كثيرة في هذا اليوم »
 قال سعيد « ولكنني انتهى بالخير ». ان الامير عبد الله « افضل عاقل وافلك تردد عليه
 كثيراً فياليتك تقيم عندنا فسكن معاً وتمعاون على الدرس وتساعد في خدمته اني اشعر بيل
 شديد اليه ولا اذخر وسماً في كل ما يرضيه بعد ما آنسنه من لطفه وتواضعه »
 فقال الفقيه « كثيراً ما دعاني بالإقامة في قصره وانا اتردد واما الان فاني مجيب وسانقل »
 ثم اعتدل في مجلسه والافت الى سعيد والسراج وراء ظهره فوقع نوره على عيني سعيد فزاد حما
 لمعانها واشراقاً وتغيراً وفيها قوة كادت تغلب عليه فقال « ان من يحب الامير عبد الله يحب
 ان يعرفه حقيقة من كثرة »

فقل سعيد « ظهر لي انه كثير التواضع راغب في المزلة والتقادع عن السياسة ولو لا ذلك ما غلنت أخاه الحكم ينال الخلافة دونه »

فأشرت اساري الفقيه فرحاً بهذا التصریح وقال « وقد تعبت وانا اشرح له ذلك وهو ينکره عليّ » فإذا ساعدتني اقمناه فاني ارى في عينيك الاقناع « قال « انا لا اتمس اقناعه بالقوه ولا اغله يحتاج الى اقناع في افضليته على أخيه ولكنني يخاف الظهور بذلك فإذا تحقق ووثيق بخطبه صريح بما يدور في خلده ثم هو لا يكفيه ان يفضل نفسه على أخيه بالقول ولا بد من العمل »

قال « نبدأ اولاً بالقول .. هل تتعذر انه اولى بالخلافة من أخيه ؟ »

قال « يجب ان تبدأ انت بذلك .. اقمعه اولاً ان اخاه الحكيم متكبر يظن نفسه فوق اخوته وسائر اهله وبين له ان في قرطبة وسائر الاندلس احزاباً كبيرة غير راضين عن بذخ الناصر وامراهه في البزاء وغيره وانهم ناقون على الحالة الحاضرة وربما بايعوا واحداً من غير ابناء الناصر فهو اولى بهذه المبادعه فهذا يرون عليه القبول ... »

وكان الفقيه مصغيًّا بكليته الى ما يقوله سعيد وقد ادھشه دھاوٌ وشعر بالفرق العظيم بين رأيهما وتحقق انه اذا اتي الامير من هذه الوجهة اقمعه : ولكن كبرياته منعنه من التصریح بفضل سعيد بهذا الرأي فقال « بورك ذيك من رجل عاقل وهذا ما خطط لي ان اقوله للامير ولكنني اخاف اذا سألي اين هذه الاحزاب ان اعجز عن الجواب »

فاشار سعيد بسبابته الى صدره وقال « اسألني عند الحاجة فادلك . واحذر اذا ذكرت ما تقدم للامير ان تشير اليه او تذكر اسبي الا اذا سألك عن الاحزاب قل له ستأل سعيداً الوراق لعله يعرف لانه كان كثير الخلط بالناس . فهمت ؟ »

فسرَه طلب سعيد ان لا يذكر اسمه في ذلك فيحسبه عبد الله هو صاحب تلك الآراء فيعلو في عينيه فقال « فهمت .. انت لا تزيد ان اروي شيئاً من ذلك عنك »

قال « نعم . لأن الغرض تقديم النصيحة للامير ولا عبرة في من يقدمها »

فرح الفقيه بذلك واراد خدام الحديث فقال « سأفعل كما امرت .. اظنك في حاجة الى الرقاد الان .. استودعك الله الى صباح الغد »

وتحقق فجأة اطمئني فقال له اخرج السراج من هذه القاعة » فالخرجه وتوسدا للرقاد فقام كلها ملء عينيه والآمل ملء صدره واكثرها رجاءً الفقيه فانه تصور الفوز طوع ارادته وانه متى حاج عبد الله على أخيه مالك تاحية الدولة ولم يقدر ما يعترض ذلك من المواتق وما يقتضي تقلب عبد الله من المشقة ولكن كثيرون من اصحاب الاوهام يقتنهم الخيال ويكتفون بالقواعد النظرية أو المعيقات القليلة وقطعاً ينظرون في ذلك من الوجهة العملية فيقلب الفشل على مشاريعهم

الفصل الثالث والعشرون

عبد الله بن نفسه

اما الامير عبد الله فلما خلا بنفسه بعد ذهاب سعيد والفقير مكث برهة وافكاره تائهة والكتاب في يده يقلبه كاه يتصفّحه ولكنّه لم يكن يرى شيئاً لاستفراره في ما كانوا فيه وقد جاش في صدره امر لم يخطر بباله من قبل — لم يخطر له منذ استدانت ولایة العهد لأخيه ان في الناس من يراه اولى بها منه ولا هو خطر له شيء من ذلك . ولكن الانسان لا يربح ضعيفاً متقلياً ما دام عباد نفسه يوئرها على غيرها ويرى فيها من الفضائل ما ليس في سواها . فهو ضعيف من هذا القبيل فإذا اردت اغراه او تحريضه على امر لا تجده راغباً فيه بين له علاقته به وعائده عليه فلا ثبات ان تراه يهم به

وعبد الله لم يكن يخطر له مناظرة أخيه الحكم على الخلافة ولذلك فاته استغرب تعریفه بشيء من هنا الشان واتبره . لكنه ما لبث ان اختلى حتى اخذ ياجي نفسه ويحدثها بما لا يكن ان يكتشف به احداً — وافكار الانسان من حيث مكاثفة الاخرين بها ثلاثة طبقات : الاولى اسرار يطلع عليها اصدقائه ومعارفه والثانية اسرار لا يطلع عليها الا اخوه اصدقائه او امراءه ولا يتجاوزها بما غيرهم وهو حريم على كناتها عن سواهم . وهناك خواطر لا يطلع عليها احداً ولو علم أنها تتصل بسوء شخص عيشه وافتضح أمره . وفي هذه الخواطر حقيقة ضمير الرجل وكنه طبيعته وقد يكون الفرق بينها وبين ما يظهر للناس من افكاره تناقض عجيب — وقد تقاربان ولا تختلفان الا قليلاً وأكثر الناس دهاءً ابعد ما بين ظاهرهم وباطنهم

ولم يكن عبد الله من اهل الدهاء ولكن ما سمعه تلك الليلة حاج في قلبه حسد أخيه على ولایة العهد وبالغ في كهان ذلك حتى وذلّ لو يكتمه عن نفسه . وفكّر في حاله وعجزه عن مناورة أخيه فأخذ يتعلّل بما يتفق عن ابهة الدولة وفضل على متابعة الملك فقال في نفسه « ان متابعة الحكومة كثيرة وما الذي يرجوه الانسان من دنياه غير التسع بالحياة على الدّال طرق واغترها وانا لا ينقصني شيء من لوازم الحياة وتواصيها وليس عليَّ من واجبات الخليفة ما يشغلني عن مطالعة الكتب والتبحر في العلم ولا ينقصني شيء من الوسائل التي للخلافة لاقتناء اسباب الراحة والتعميم » وخطر بباله حالاً ما سمعه تلك الليلة من عابدة فاحس براحة واند و قال في نفسه « ان جلوسي مع هذه الجاريات اطار حها

الاشعار واحاديثها واسمع غناها خير من الامر والنهي وما يشوبها من تعب القلب وخوف الفتنة او الخنجر من اهل المذاقين وغيرهم «

وكان يذكر في ذلك وهو واقف امام منضدة عليها كتاب العقد الفريد وآخذ يقلب صفحتاه وال حاجب واقف بباب ينتظر امره في ما يريد من امر الرقاد . ثم انتبه عبد الله نفسه فالفت فرای المائدة لا تزال هناك وعليها الفاكهة فتناول تفاحة وقطعها والتقم بعضها وهو غارق في بخار المواجبس ولم يشرح خاطره لانه لم يستقر على رأي يعول عليه فاختفت تصادفه الخواطر بين ان يصفي لقول الطاعتين على أخيه او يبق على ما كان عليه من حسن الظن فيه

واخيراً رأى حسن الظن ادعى الى السلام والوفاق فطرد تلك الخواطر من باله وصف بيته من جهة أخيه وذهب الى فراشه . فعادت الى ذهنه صورة عابدة وتذكر ما سمعه من حدثتها فاحسن « بلادة واصبحت بعد وجودها في منزله من اكبر اسباب التعزية ووعد نفسه بمجالستها والفتح بادبها

بات تلك الليلة على عزم الاخلاص لأخيه الحكم والتسليم له بحق ولانية العهد فلما اصبح دخل مكتبه وهي عبارة عن قاعة كبيرة في جدرانها رفوف فيها الكتب على غير نظام فوضع كتاب العقد الفريد في صدر كتب الادب بحيث يقرب شاؤله عند الحاجة وآخذ يقلب ما بين يديه من كتب الفقه والحديث ويعود الى الادب والشعر فكان يرى مشقة في الوصول الى الكتاب المطلوب فآخذ يعمل نفسه بتقديمها مدق عاصم

الفصل الرابع والعشرون

رسول ولي العهد

مضى معظم النهار ولم يعد سعيد ولا الفتيبة فلا كان الاصليل . الانتظار فنذكر عابدة فامر حاجبه ساهر ان يأمر القبرمانة بارسالها اليه في القاعة لي tumult بجدبها ريشا يأتي الرجالان او أحدهما وقد احسن باشتياق الى لقياها ليرجع الى حديث الامس ويظهر لها ماعول عليه من إغفال امر ولانية العهد ويتحقق ان يوافقاه على رأيه فيزداد رسوخاً في الامر عاد الحاجب وقال « ان جار يتك عابدة آتية » فامر ان يعد مائدة من الفاكهة والحلوي وبعض الاشربة المثلثة فاعدها في غرفة الامس وجلس عبدالله ويده كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة يقلب فيه

وبعد قليل جاءت عابدة وهي في أوجِ حمْلِ ما كانت بالامس تلقاها بالترحاب وامرها بالحلوس وسألها اذا كانت تحسن الفرب على العود فاجابت «نعم»

فأمر بإحضاره فتناوله ولاحظ فيها خجلاً أو اتقاضاً فظن ذلك ناجحاً عن استبعادها لنبأ سعيد فابتذرها قائلاً «كيف وجدت نفسك عندنا يا عابدة» قالت «بخير يا سيدي وكيف لا أكون سعيدة وأنا في ذلك» قال «لكن يظهر انك استبطأت سعيداً كاستبطاته أنا ولكنه لا يلبث أن يأتي ولا يعود إلى النبأ»

فلا سمعت ذكره توارد المم الى وجهها فظن عبد الله ذلك من الخجل وما درى ما يخليج في قلها من الميلام بسعيد فقال «لا يلبث سعيد ان يأتينا وقد شعرت بال الحاجة اليه في هذه الساعة لا دخلت مكتبي ووجدت الكتب فيها مبعثرة ومبتهلة ترتيبها .. انه رجل حكيم وقد وقع من نفيي موقفاً حسناً .. وبكفي من فضله انه كان وسيلة في قربك» فازداد تورداً وجدتها وعمدت الى التخلص فقالت «لعل هذا السبب الاخير اقل حسنه بالنظر الى مولاي الامير واما بالنظر الى هذه الجارة فهو فضل كبير» ففرح عبد الله بلطف اسلوبها وتحقق انها راضية بالمقام عنده فقال «لابل الفضل لمعلى بذلك وارجو ان نستطيع مكافأته على هذا الصنع ..» فنهدت وقالت وهي تصلح المود في حجرها «ان سعيداً يسحق ثقة مولاي الامير واذا جربه وجده حكياً عاقلاً صاحب رأي وهمة يتفاني في خدمته» قطع عبد الله كلامها بلطف وقال «لا تزیده الا سلماً معافى ولها بغيرته خير مساعد يرتب مكتبتنا ويهديها الى مظان الكتب النفيسة»

قالت «نعم ولكن» يقين في كل امر يقترح عليه «قالت ذلك وهي تشاغل باصلاح وترمشوش واظهرت عند الفراغ من هذه الجلة ان العود قد تم إصلاحه وضررت عليه صوتاً من الاوصوات المطربة وغشت فطرب عبد الله .. وقدم اليها بعض الفاكهة والحلوى وأخذ في تقييظ الصوت الذي سمعه وإطراء صناعتها فيه وهي تتواضع وتندو في الفرب والفناء وعبد الله متذملاً على وسادة لا يزيد ارتفاعها في الفتاة الاً انجذباً وطرجاً وقد صوب رأيه بالاكتفاء عنها سائر مطاعم الاخلافة

وهما في ذلك دخل الحاجب ووقف مجبر يعلم عبد الله انه يريد ان يخاطبه فالثالث اليه وأشار يده يستفهمه عن غرضه فقال «ان في الباب رسول من مولانا وفي العبد يحمل

كتاباً الى مولاني الامير»

قال «ولي العهد؟» وقد ساءه الرجوع الى ثنيٍ من أمره

فقال «نعم يا سيندي»

قال «اين الكتاب؟»

فخرج وعاد والكتاب بيده فسله الى الامير ختناوله وهو يجلس وفضه ووجهه نحو نافذة يدخل منها النور واخذ يقرأ، وقد توقفت عابدة عن الغناء واخذت ترائيه فرأى في وجهه تغيراً وهو يتفرس في الكتاب، وبعد قراءته ثم اعتدل في مجلسه وطوى الكتاب وجعله تحت الوسادة واراد التظاهر بعدم الالكترا ثم يخف على عابدة ما تولاه من الاضطراب ولكنها لم تعرف السبب فرأى من الادب ان تبقى صامتة فتنتظر امره

اما هو وبعد الاطلاق هنئه وقف وتظاهر انه يطلب حاجة في الغرفة الاخرى فشى الى الباب ثم رجع كأنه تذكر شيئاً يستدعي رجوعه وقعد في مكانه وعاد فاستخرج الكتاب من تحت الوسادة واراد قراءته ثم شعر بالظهور من قلبه بين يدي عبادة فاراد ان يومها غير الواقع فقال «ما بالك لا تدينين يا عابدة؟»

خناولت المود وقلت «خفت ان اشغل مولاي عن قراءة الكتاب ولعل فيه ما يهمه او يدعوه الى اعمال الفكر فتشوش عليه عودي»

قال «ليس فيه شيء» وبذا الانقضاض في وجهه ثم قال «غنى يا عابدة .. غني ما شئت»

فأخذت المود وغفت صوتاً آخر فاقتفها وقال «غنى قول عمرو بن كلثوم الذي ذكرته بالامس:

اذا ما الملك سام الناس خسفاً اينا انت نقر؟ الخسف فينا

الا لا يجهل احد علينا فتجهل فوق جهل الجاهلين»

فادركت من طلبه ان في الامر سرّاً غاظه وكانت تد علث ان الكتاب جاءه من أخيه فقامت بعض الشيء فأخذت تغنى وتحمود وهو يتربع لها والنضب ياد في محياه



الفصل الخامس والعشرون

الجواب

ثم جاء الحاجب ووقف يهاب السرقة ذكر عبد الله انه ينبي له ان يجيب الرسول على كثابه فقال « العل الرسول يتوقع مني جواباً؟ » فاشد ساهر برأسه ان « نعم »

قال « قل له ليس عندي جواب » قال ذلك بالحن التهذيد فخرج ساهر وفعل ما امر به عبد الله لكنه لطف الاسلوب فبدلاً من ان يقول « ليس عند الامير جواب » قال « سيجيئ عن الكتاب بعد الان » ف قال الرسول « أمرت ارجع بالجواب الساعة »

فاكير ساهر ان يبلغ الامير كلامه على هذه الصور فاستهل وهم بالرجوع وكانت الشمس قد فاربت الغروب فسمع وقع حوارف بغلة في الحديقة ثم رأى الفقيه فادماً على بعاته حتى اذا وصل ترجل وهم بالدخول فرأى رسول الحكم بالباب فعرفه فتقدم الرسول وسلم على الفقيه فسأله عن سبب وجوده هناك فقال « جئت برسالة من مولانا وللي العهد وانا واف

النفس الجواب . . . »

فدخل الفقيه وهو يقول في نفسه « ماذا عسى ان تكون تلك الرسالة » حتى اقبل على مجلس الامير واعبادة فاسأذن ودخل فدعاه الامير الى الجلوس والغريب ياد في محياه فعلم الفقيه ان سبب غضبة متعلق برسالة الحكم فسره ذلك لانه يساعده علي مرآمه فقال « مالي أرى مولاي غبياً؟ »

قال « لا شيء . . . » واحب التظاهر بعدم الاكتئان

قال الفقيه « رأيت رسول وللي العهد بالباب .. هل بلغك خبر قسمه؟ »

قال « نعم وقد تصرفناه ... لم يذهب؟ »

قال « رأيته لا يزال واقفاً »

فصفق عبد الله فدخل ساهر فابتدره قائلاً « لم تصرف الرسول؟ »

قال « بلغته امر مولاي فقال انه يريد الجواب الان » -

فلم يملك عبد الله عن التحفز للوئوب ثم تراجع وقال « قل له ليس عندي جواب فليغير »

قال « قلت له يا مولاي ولم يمض »

فاظهر الفقيه اشتراكه بقضب الامير فقال « عمياً من هؤلاء .. ا يقول له الامير
امض ولا يغطي ؟ وهل هو الا رسول مأمور ؟ » وانتهت الى الامير وقال « هل يذن
مولاي ان اعلم رسالته وانا اصر فه حالاً »
فقال الامير عبد الله يده الى الكتاب فاستغمر جه من تحت الوسادة ودفعه الى الفقيه
وقال « هنا هو الكتاب .. اقره لنفسك »
فتناوله وقرأه واذا هو :

« من الحكم ولـيـ العـهـدـ الىـ اـخـيـ الـامـيرـ عـبـدـ اللهـ
ـ اـمـاـ بـعـدـ فـقـدـ بـلـغـنـاـ انـ جـارـيـةـ اـدـيـةـ تـحـفـظـ الشـعـرـ وـتـخـسـنـ الـفنـاءـ جـاءـتـكـ فـاحـبـيـنـاـ انـ
ـ زـراـهـاـ فـاـذـاـ جـاءـكـ كـتـابـيـ اـنـذـهـاـ اـلـىـ مـعـ رـسـوـلـ وـاتـ فـيـ خـيـرـ وـعـافـيـةـ »
ـ ثـمـ رـفـعـ الـفـقـيـهـ بـصـرـهـ اـلـىـ الـامـيرـ فـرـآـهـ يـنـظـرـ اـلـيـهـ وـيـتـوـعـ رـايـهـ فـقـالـ «ـ قـدـ قـرـأـهـ
ـ بـاـسـيـدـيـ فـاتـرـىـ ؟ـ »

قال « قد دعاه رأيي وهل ترى ان اجيئه الى طلبه ؟ »
فرأى الفقيه ان يقتضي ذلك الفرصة لاتارة نعمة الامير على اخيه فقال « قد رأيت
ـ صـوـاـبـاـ ..ـ وـلـاـ اـظـنـ الـحـكـمـ يـعـنيـ بـطـلـبـهـ هـذـاـ الاـ اـسـتـثـارـ لـفـسـهـ كـانـ يـرـىـ ذـلـكـ مـنـ
ـ حـقـوقـ وـلـاـيـةـ الـعـهـدـ »

فاغتصب الامير عبد الله محكمة وقال « نـمـ مـنـ حـقـوقـ وـلـاـيـةـ الـعـهـدـ ..ـ اـلـمـ يـكـفـيـ
ـ سـكـونـيـ عـنـ تـلـكـ الـوـلـاـيـةـ حـقـيـقـةـ تـعـدـىـ اـلـىـ هـذـاـ »
ـ فـقـالـ الـفـقـيـهـ «ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـانـ هـذـاـ اـمـرـ يـتـعـلـقـ بـسـعـيـدـ وـلـهـ فـيـ الرـأـيـ اـلـوـلـ بـعـدـ
ـ اـمـرـ مـوـلـايـ »

قال « مـهـماـ يـكـنـ مـنـ ذـلـكـ فـلـيـسـ لـرـسـالـةـ اـخـيـ جـوابـ »
ـ قـالـ «ـ لـاـ اـرـىـ بـاسـاـ مـنـ اـنـ تـحـبـيـهـ عـلـىـ كـتـابـهـ بـاـتـرـاهـ »
ـ قـالـ «ـ مـاـذـاـ اـكـتـبـ اـلـيـهـ ؟ـ »

ـ قـالـ «ـ اـكـتـبـ ماـشـتـ ..ـ اـعـتـرـ لـهـ اـنـكـ لـاـ تـقـدرـ اـنـ تـحـبـيـهـ عـلـىـ طـلـبـهـ لـاـسـابـ عـنـدـكـ
ـ لـاـسـتـطـعـ بـيـانـهـاـ »

ـ فـنـادـيـ الـامـيرـ عـبـدـ اللهـ «ـ سـاـهـرـ »
ـ فـدـخـلـ الـحـاجـبـ فـقـالـ «ـ اـلـيـ بـدـوـاـةـ وـقـرـطـاسـ »
ـ بـخـاءـ بـهـماـ فـتـنـاـوـلـ الـقـلـمـ وـكـتـبـ :
ـ «ـ اـلـيـ الـحـكـمـ وـلـيـ الـعـهـدـ مـنـ اـخـيـ عـبـدـ اللهـ »

« اما بعد فقد جاءني كتابك فتأملته ملياً فلم اجدني قادراً على اجابة طلبك فيه
فاعذرني والسلام »

وختم الكتاب ودفعه الى ساهر وقال له « سلمه الى الرسول »
فخرج ^{اوسله اليه}

وعاد الامير عبدالله الى ما كان فيه وأشار الى عابدة ان تغى وكانت قد لحظت شيئاً
فيها لما سمعته من ذكر سعيد في اثناء الحديث فلطفقت تغى

ستعلم في الحساب اذا الثquina غداً يوم القيام من التلوك
ويقطع الشزاد عن انس من الدنيا وتقطع المعموم
الى ديان يوم الدين غفى وعند الله تجتمع الخصوم

فكانت تغى وعبد الله مطرق بغير راسه وقد جاشرت به عاطفة الاعتبار ولا فرغت من
اليت الاخير رد قوله « وعند الله تجتمع الخصوم » ثم قال « رحم الله ابا العثيمية »
واغتنم الفقيه تلك الفرصة وجعل يطري عابدة وصوتها وهي تبكي في النساء واحد عبد
الله بحاجة الى سعيد فقال « الا تظن سعيداً يأتي الليلة؟ » ثم صاح « ساهر »

فتقدم الحاجب فقال « انيرا السراج »

فخرج ثم جاء بعض الخدم بالسراج وسيء اثناء ذلك اجاب الفقيه على سوال الامير
 قائلاً « اظن سعيداً لا يلبث ان يأتي وقد اصبح مجده ضرورياً الان على ما اغلن »
قال « لا بد من حضوره فإنه صاحب راي »

الفصل السادس والعشرون

المائدة

وهم في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً اوراق بباب »

قال الامير « يدخل »

فدخل سعيد ووجيه يتدفق عليه وذكاء فثقاء الامير مرجحاً

وكان اكثرهم سروراً عابدة فانها لم ت Malik عدد دخوله عن الاتمام ونظرت اليه وهي

ترى انها تغازله فابتسم لها وجلس وهو يحيي الامير ثم الفقيه

فقال الامير « مرجحاً بصالحتنا سعيد لقد ابطأ علينا »

قال « كنت مشغلاً بتدبيز شؤون منزلتي حتى انفرغ خدمة مولاي » ثم اشار الى

عايدة وقال «كيف رأيت عايدة اليوم؟» قال «انها تأتينا كل يوم بطراب جديد يبارك الله فيها» ثم نادى ساحراً وامرها ان يهتم بهيئة الطعام

وبعد هنالك حضرت المائدة فقاموا اليها واغتنم الفقيه غفلة من عبد الله وقص على سيد امر الكتاب الذي جاء من الحكيم وما اجاب عليه . فلما جلسوا الى المائدة قال سعيد «هذه اول مرة اتناول بها الطعام مع الامير عبد الله بن امير المؤمنين الناصر وهو شرف عظيم لي والفضل في وصولي اليه يرجع الى هذه الفتاة الادبية» واشار الى عايدة فاجابت عايدة وعيتها تلمان وقالت «بل الفضل لك يا مولاي يوجد في هنا فلولاك لم اقبل هذه النعمة بمنادمة الامير»

قطع الامير كلامها قائلاً «والحق يقال انك صاحب افضل علي» فاني اعد هذا الاجتماع طالع عيش جديده لم ادق مثله من قبل »

وكان الفقيه ساكتاً فالتفت الى الامير وبيده صدر دجاجة يهويشه لقمة لنفسه وقال «كلكم اصحاب فضل الا ابن عبد البر السكين وهو اول من فتح باب التعارف» قال ذلك ووضع اللقبة في يده ونظر الى سعيد من طرف خفي وغزره فاجابه بإشارة لطيفة .. فضحك عبد الله وقد سري عنه وقال مازحاً «ليس الفضل لاحد منا وانا الفضل لابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فان كتابه دلتا على هذا الكنز الثمين» واوما الى عايدة سيد وسعيد بيد اخري

تناول سعيد سكاجة بين يديه وناوهها الى عايدة وهو يقول «ما بالك لا تأكلين يا عايدة خذني كلي من طعام الامير واشكرني الله على نعمه .. انك لا ترجين لعنة فوق هذه ...»

فبدت يدها لتناولها

قطع الفقيه كلامه وهو يمد يده لتناول قاسح الماء من الخادم الواقع في خدمتهم وقال « ولو كانت عند ملي العهد؟ .. » جعل هذه الفقرة تحفة لما قاله سعيد فاجابه سعيد «ما اظن ملي العهد اذا بلغه خبر عايدة ولو في العراق انه يتذكرها ثقلت من يديه . لكننا لا نرضى عن مولانا الامير بدلاً »

فلا سمع عبد الله ذلك الحديث اشرح صدره لانه توسم في سعيد مساعدآ له على رد طلب الحكم وهو يظنه يقول ذلك ولا علم له بكتاب الحكم فنظر اليه وقال «ما قولك اذا جاءنا كتاب اخي ملي العهد الان يطلب عايدة؟»

قال « لا اخذه يفعل بعد ان علم بدخولها منزلك فان ما ناله من شرف ولایة العهد يشغله عن ان يسلبك جارية تفتح بمحديها .. اني اجل حکمة ولي العهد عن ان يبلغ به الطمع الى هنا الحد فهو يدرك انه نال بولایة العهد حقه وزيادة أفالا يترك لأخيه فتاة يسر بمحديها ؟ »

فنظر عبد الله الى الفقيه وابتسم يزعم انه يفعل ذلك خلسة من سعيد يذكره بما اطلع عليه من كتاب الحكم في ذلك المساء فتجاهل سعيد واتم كلامه قائلا « وقد جرت عادة الخلقاء وولاة العهد في الاسلام ان يوسعوا لاخوتهم واعمامهم ابواب الرزق ويهدمون الجواري والسراري ويقطّعون الاقطاعات الواسعة ويفرضوا لهم الرواتب الباهظة ويهداوون اليهم المدايا الشينة تمويلاً لهم عمما خسروه من حق الملك وخوفاً من تفتقهم ومولانا ولـي العهد يعلم ذلك فكيف يعقل انه بدلاً من ان يهدي اخاه عشرات من امثال هذه الجاربة يطعن ان يسلبه ايها ؟ »

وكان سعيد بشكـلـهـ والـفـقـيـهـ يـعـجـبـ بـدـهـائـهـ وـحـسـنـ اـسـلـوـبـهـ فـيـ تـكـبـينـ عـبـدـ اللـهـ مـنـ حـقـهـ فـيـ رـفـضـ طـلـبـ اـخـيـهـ وـعـبـدـ اللـهـ يـعـقـدـارـ سـعـيدـ يـقـولـ ماـ يـقـولـهـ وـهـوـ لـاـ يـعـلـمـ بـماـ جـرـىـ وـكـانـ يـشـعـرـ عـنـدـ سـيـاعـ كـلـامـ سـعـيدـ اـنـ الـحـقـ بـحـسـمـ فـيـ كـلـ كـلـمـهـ وـاقـتـعـ باـقـوـالـ اـقـتـاعـاـ تـامـاـ فـاصـبـحـ يـعـدـ طـلـبـ اـخـيـهـ تـعـدـيـاـ تـجاـوزـ الـحدـ وـسـرـهـ اـنـ رـفـضـ الـطـلـبـ وـتـأـسـفـ لـاـهـ لـمـ يـغـلـظـ لـاخـيـهـ بـالـعـتـابـ

الفصل السابع والعشرون

كتاب آخر

ولما فرغوا من الطعام قاموا الى قاعة الاستراحة وعادوا الى السماح وسعيد يبالغ في اطراءه حابدة . وعبد الله يزداد طرباً بصوتها واعجاباً بادبها وجالها حتى اتصف الليل وكادوا يتصرفون اذا باهدر دخل وبيده كتاب فوق حبه حيث يعلم الامير انه يريد مخاطبته فناداه وقال « وما ذاك ؟ »

قال « كتاب يا سيدى »

قال « من ؟ »

فقدم بـهـ اليـهـ وـهـوـ يـقـولـ «ـ مـنـ مـوـلـاـنـاـ وـلـيـ الـعـهـدـ »

فَلَدَّ عبدُ اللهِ بْدَه وَتَنَاهُ الْكِتَاب فَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ أَخْيَهُ الْحَكْم فَأَخْتَاجَ قَبْلَهِ
فِي صِدْرِهِ تَطْلُعًا لِما عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ وَقَدْ حَلَّ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَكَانَ يَدَاهُ تَرْعَثَانِ
وَهُوَ يَفْضُهُ . وَتَنَاهُ الْجَمِيعُ بِاعْتِنَاءِهِمْ وَهُمْ يَنْكِبُونَ فِي مَا يَحْمِيُهُ الْأَسْعِيدُ فَإِنَّهُ كَانَ طَلَّابًا
هَذَا لَكَ وَلَمْ يَفْتَهُ خَبْرُ الْكِتَابِ إِلَّا لَهُ هُوَ الَّذِي بَعَثَ وَلِيَ الْعَهْدَ عَلَى كِتَابِهِ بِغَيْرِهِ
يَشَاهِدُهُ وَلَكَنْهُ أَسْتَخدِمُ فِي الْوَصْولِ إِلَى ذَلِكَ دَهَاءَهُ وَحْسَنَ تَدْبِيرِهِ

فَقُضِيَ عَبْدُ اللهِ الْكِتَابُ وَقَرَأَهُ وَلَمْ يَقُلْ أَنَّ رَمِيَّهُ إِلَى سَعِيدٍ وَقَالَ لَهُ « مَا اسْرَعَ
مَا صَدَقَ ظَنِّكَ بِولِيَ الْعَهْدِ . . . هَذَا هُوَ كِتَابُهُ أَقْرَاءُهُ »

فَتَنَاهُهُ سَعِيدٌ وَهُوَ يَقُولُ « هَلْ أَقْرَأُهُ جَهَارًا؟ »

قَالَ « أَقْرَأُهُ وَلَيْسَ فِينَا مَنْ يَحْسِنُ الْاحْتِرَاسَ مِنْهُ »

فَأَخْذَ يَقْرَأُهُ وَالْجَمِيعُ مُنْصَتُونَ :

« مِنْ الْحَكْمِ وَلِيَ الْعَهْدِ إِلَى أَخِيهِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللهِ

« أَمَّا بَعْدَ فَأَنِّي أَسْتَبْعُدُ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْيَّ بِمَا كَتَبْتُ وَكَمْتُ أَنْكِرْتُ لَوْلَمْ يَكُنْ بِخُطْكِ
وَعَلَيْهِ خَاتِمُكَ . . . اطْلُبْ مِنْكَ جَارِيَةً فَتَضَنِّ بِهَا عَلَيَّ وَأَنْتَ رَعَاكَ اللَّهُ لَا جَهَلَ مَرْزَلَةَ وَلِيَ
الْعَهْدِ لَدِيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِيَ هَذَا ارْسَلْ جَارِيَةً مَعَ رَسُولِيَ الْمُلْيَلَةِ وَعَهْدِيَ
بِفَعْلَتِكَ وَحْسَنَ نَظَرِكَ إِنَّكَ فَاعْلَمُ « أَنْ شَاءَ اللَّهُ »

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقْرَأُهُ وَيَقْفَعُ كُلَّ فَقْرَةٍ وَيَهْزُّ رَأْسَهُ أَسْتَغْرِبًا حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِ
الْكِتَابِ فَيَدْفَعُهُ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ اللهِ وَاطْرُقَ . وَكَانَ الْأَمِيرُ وَهُوَ يَسْمَعُ الْكِتَابَ يَنْتَظِرُ إِلَيْهِ
بَادِيَةً فَرَآهَا قَدْ تَرَكَ الْعُودَ مِنْ مَدْهَا وَبَدَتِ الدَّهْشَةُ فِي مَحْيَاهَا وَتَلَامِسَتْ كَأْنَهَا تَخْفِرُ
لِلْهُوْضِ فَعَظَمَ ذَلِكُ عَلَى الْأَمِيرِ فَلَمَّا أَعْدَ سَعِيدَ الْكِتَابَ إِلَيْهِ سَأَوَّلَهُ وَقَالَ « أَرَيْتَ مَا بَلَغَ
مِنْ طَعْمِ أَخِيِّي؟ » أَصَانَهُ وَاجْمَلَهُ وَالْقَسْ رَضَاهُ وَهُوَ يَهْدِنِي وَيَلْحِنُ فِي طَلْبِهِ؟ »
فَقَالَ سَعِيدٌ وَهُوَ يَظْهِرُ الْأَسْتَغْرِبَ « لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِيَخْطُرْ بِبَالِي أَوْ اسْدَقْهُ لَوْلَمْ أَقْرَأْ
هَذَا الْكِتَابَ بِشَمْسِيَ »

فَقَالَ الْفَقِيهُ بِالْحِنْدِ الْفَاثِ الظَّافِرِ « أَمَا أَنَّا فَلَمْ أَكُنْ أَسْتَبْعُدُهُ وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى مَوْلَانَا
بِشَلِّ ذَلِكَ لَأَنِّي كُنْتُ أَتَوْقَعُهُ . وَهُوَ حَفَظَهُ اللَّهُ يَحْسِنُ الْقَلْنَ بِأَخِيهِ وَرِبِّهِ أَسَاءَ الْقَلْنَ فِي
وَحْسِبِيِّ أَقُولُ مَا مَقْلَتَهُ لِغَرْضٍ لِي فَهَذَا كِتَابُهُ جَاءَ شَاهِدًا يُؤْيِدُ قَوْلِيَ . فَأَعْلَمُكَ يَا مَوْلَانِي
الْأَطَاعَةُ أَوْ الْأَطْرُوحَجُ . . . فَإِنَّ الرَّفْضِ يَجْرِي إِلَى الْبَلَاءِ »
فَأَكَبَرَ عَبْدُ اللهِ تَهْدِيَ الْفَقِيهِ وَاسْتَخْفَافَهُ بِعَزْمِهِ بَيْنَ يَدِيِ الْفَتَاهِ فَقَالَ « الطَّاعَةُ؟
وَهُلْ لَوْلِيَ الْعَهْدَ طَاعَةً عَلَيَّ فِي مَثْلِ ذَلِكَ؟ » لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَطْلُبْ نَسَائِيَّ وَأَوْلَادِيَّ إِلَيْهِ

او لعله يريد ان اقوم في خدمته ايضاً » قال ذلك وهو يهز راسه
قططعت عابدة كلامه وهي ^{تهم} بالتهوض قائلة « لا احب ان اكون سبباً للخلاف
بين الامير واخيه فالاولى ان اخرج انا من هذه الدار واعود الى خيائي او ارجع الى
بادي . وما انا ماما يستحق التمازع عليه — عهدنا ابناء الخلقاء يتمازعون على الخلافة
وينادون الجواري والمنفيات والمقاطعات »

فَدَعَهُ اللَّهُ بِدِهِ إِلَيْهَا وَامْسَكَهَا بِثُوبِهَا وَاجْلَسَهَا وَقَدْ هَاجَتْ فِيَهُ الْأَرْجُمَةُ وَقَالَ «الْأَ
تَعْلَمُنَ اَنْ خَرَوْجَكَ مِنْ مَنْزِلِي اَهَمَّ لِي كَأْنِي عَاجِزٌ عَنْ صِيَانَتِكَ فِيهِ» ۰۰۰ مَقْ بَلْغَ
مِنْ اخْرِيْ اَنْ يَأْخُذَنِكَ مَقْ قَسْرًا وَإِنْ تَأْنِي لَهُ ذَلِكَ فَلَا اَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْمَنْزِلِ قَبْلَكَ ۲۰
قَالَ ذَلِكَ وَبَانَ الْغَضْبُ فِي عَيْنِهِ وَقَدْ نَسِيْ مَوْقِفَهُ

فلست وهي تظير الانكسار والاذغان وتنظر الى سعد كأنها تستجده

فخطر سعيد الى الامير عبد الله وقال « تمهل يا مولاي . اعرني سمعك لحظة »
فسكت الامير وقال « قل اني سالم »

فُلْكَتْ سَعِيدٌ فِي أَطْرَافِ الْقَاعَةِ كَمَا يُخَاطِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ وَقَالَ « هَلْ تَحْنُّ فِي مَكَانٍ مَصْوَنٍ لَا يَأْسٌ عَلَيْنَا إِذَا نَكَامَنَا مِنْ وَاسْ أَوْ رَقِيبٍ ؟ »

قال عبد الله « تمهل » وصفق بفأ الحاجب فقال له « لا نحب أن يدنو من
نا أحد»

قال « سمعاً وطاعة يا سيدى » وخرج وأغلاق الباب وراءه

فقال عبد الله سعيد « تكلم »

فارسل معید نظرة في عيني عبد الله خرتهم الى داخل احثائه فاحس انه ملوع
ارادته فقال سعيد « لا ينبيني الامير عبد الله ان يخرج عن رشده ويطعن على أخيه ولبي
العهد ويرد طلبه الا وهو على يقين ما يجر عليه ذلك من العواقب الخطيرة .. فعليك ان تتبع
في العواقب ثم تقول ما تريده .. وقد ظهر لي من تلاوة هذا الكتاب ان ولـي العهد كتب
الـيـكـ كـتابـاـ مـثـلـهـ يـطـلـبـ فـيـهـ عـابـدـةـ فـرـدـتـ طـلـبـ فـاعـادـ الـطـلـبـ مـشـفـعاـ بـالـتـهـديـدـ وـالـوعـيدـ
فـعـلـيـكـ اـذـاـ اـزـمـعـ الرـفـضـ اـنـ ثـبـتـ فـيـهـ وـلـوـ هـمـاـ كـلـكـ ذـكـ ذـكـ منـ الـامـورـ .. وـالـفـاذـعـ وـاطـعـ
واـجـعـلـ اـنـكـ لـمـ تـرـ عـابـدـةـ وـلـاـ اـتـ مـنـ زـكـ »

فقطعت عابدة كلامه قائلاً «اسمح لي ياسيدى ان اتريك الى امر تعلم لم يعزب عن فطشك .. انى لا ارى من الحكمة ان تحمل الامير على مفاضلة اخيه وهو صاحب القول اليوم ولا اراء قادرًا على رد طلبه ولا احب ان اكون وسيلة لهذا التغاضب فالاولى ان

الخرج انا من هذا المكان قبلاً فيكون عنده اني غير موجودة هنا . واخاف اذا رد مولانا الامير طلبه وانا باقية هنا ان يهدولي الى الاخذ بالقوة وانا اعترف لك اني لا اريد بدلأ من سيدى الامير عبد الله فلا ابرح هذا المكان الا قتلة »

فاعظم الامير عبد الله تعلق عابدة به مع ما يختلط قوله من الشريخ اللطيف واخذته الحبة وقال « قلت لك يا عابدة انك في جواري ولا يستطيع احد ان يأخذك قهراً »

فقال سعيد « اذا كان مولاي الامير مصيناً على الرفض فليفعل وعلمه اذا تبصر في عاقبة ذلك يكون قد خدم مصلحة وصلاح المسلمين »

فاطرق عبد الله وهو يفك في مغزى كلام سعيد

فتصدى الفقيه للكلام قائلاً « ارجو ان يكون سيدى الامير قد فهم مغزى هذا القول .. وانا ازيدك بياناً » قال ذلك وزحف حق لاصقت ركبته ركبة الامير وقال بصوت منخفض « انذرك يا سيدى ما قلته لك بالامس عن ولادة العهد وما يقوله الناس عن امير المؤمنين واستاده اياماً الى الحكم دون سواه ؟ . قلت لك يا مولاي ان الحكم لا يرى الناس كفاءته لهذا المنصب لاسباب ذكرتها لك . وهم غير راضين عنه لكنهم لا يحسرون على الكلام ان لم يجدوا من يطالبه بها سواه وهم يرون الامير عبد الله اولى بها من الجميع . فاذا طلبها وجد انصاراً كثاراً اذا وافقني وقت بهذا الامر فما عليك الا ان تقول »

الفصل الثامن والعشرون

الجواب

وكان عبد الله في اثناء ذلك مطرقاً يفك و قد رجم اليه صوابه و احس بثقل الامر الذي يحرضونه عليه وندم على ما فرط منه عليه بجهله من القيام به لكنه استقل الرجوع عن كلامه حالاً فرأى ان يمثال في الخلوص فقال « ارى كلام صاحبنا سعيد اقرب الى الصواب فانا ينبغي لنا قبل الاقدام على هذا الامر ان نتدبر و ننظر فيه قبل ان تشعل ناراً لا نقوى على اطفائها . لا سيما وان امير المؤمنين هو صاحب الدولة اليوم فقيامي بما تدعوني اليه يمدد خروجاً عليه وهو لم يعرض لي شيء ، ولا ارى عمل اخي الحكم الا من عند نفسه قد ارتکبه عن طيش ولعل والدي امير المؤمنين اذا عرف به ارجعه عنه »

فقال سعيد « لئن نطبق بالصواب ورأيت رأي اهل الحزم والمعاه فما الذي تنوسر

هل نطيع اخاك في ماحتلاته »

قال « كلا بل ارده فاذا اصر رفع الامر الى امير المؤمنين »
فقال القبيه ، لا ارى من سداد الرأي ان تضيع هذه الفرحة التي ستحت لك .. انها
فرصة ثمينة يا سيدى ولا تخف .. ان في قربطة الوفا ينتظرون كلة من الامير عبد الله
في ايده .. و اذا اطعنى وعمات برأني ادلك على الطريق .. والا فاقفل ما يدلك »

فنظر عبدالله الى سعيد كأنه يستشيره فقال سعيد « ان ما يقوله الفقيه قرين الصواب وانا اعلم الناس بدخلائل هذا الامر وازيد على ما قاله ان في قرابة عصابات قوية تجتمع سرًا وهي ناتجة عن امير المؤمنين نفسه خلروجة في سيرته عن مثال الخلفاء الراشدين وقريبه الخصيـان والصـةـالـةـ والـعـيـدـ دون اصحاب هذه الدولة ورافعي علم الدين الحـيـفـ وـمـ يـرـونـ الدولة صـائـرـةـ يـذـلـكـ اليـغـيرـ اـهـلـهاـ وـكـانـتـ الـامـالـ عـالـقـةـ بـيـنـ سـيـخـلـهـ لـعـلهـ يـنـبـحـ طـرـيقـاـ غـيرـ طـرـيقـهـ وـيـرـجـعـ اليـ الصـوابـ وـكـانـتـ اـنـكـارـهـ مـتـجـهـةـ اليـ مـوـلـايـ الـامـيرـ يـظـنـونـ اـخـلـافـهـ تـسـبـيرـ اليـهـ فـلـاـ رـأـواـ اـبـاهـ باـعـ الحـكـمـ وـلـمـ يـلـفـتـ اليـ الـامـيرـ عـبـدـ اللهـ قـطـعـ جـبـ آـمـلـمـ وـيـشـواـ منـ الـاصـلاحـ فـاـذـاـ حـلـبـهاـ مـوـلـايـ الـامـيرـ رـأـىـ منـ يـشـدـ اـزـرـهـ وـالـاـذـاـ ظـلـلـتـ عـلـىـ بـيـعـةـ الـحـكـمـ فـاـنـ مـيـاعـهـ مـعـكـ وـلـيـسـ مـنـ الـحـكـمـ الشـرـعـ فـيـ تقـضـيـةـ بـيـعـةـ فـاـنـ لـاـ اـشـبـرـ عـلـيـكـ بـاـنـ تـقـعـلـ اوـ لـاـ تـقـعـلـ وـلـكـنـنـيـ اـقـولـ مـاـ اـعـلـمـ وـاـنـ صـاحـبـ الرـأـيـ »

فأعجب عبدالله يا في كلام منعид من النزاهة والحزم وصدق التصيحة لانه ما زال يعبد تصيحة ابن عبد البر مشوهة بالغرض لانه ناقم على الحكم وهو الذي حرمه من القضاء فقال عبدالله « الله درك من حكيم عاقل وقد فهمت مقالك فهل ترى سرعة النبوض؟ »

فاجاب وهو يظاهر الجد « لا ... بل انا ادعوك الى التبصر في العواقب فان ظلورك
يئن ازعة اخيك على ولايتك العهد امر عظيم يغير الى قتن وحروب اذ لا يسهل علي الحكم
الثاذل عن شرف قلده اياه ابوه ولا يصح للامير عبدالله بعد ان يطلب ذلك المنصب ان
يرجع عنه صاغراً . واذا رجع هو فانصاره اللذين سيقومون بنصرته لا يرجعون حتى يستدروا
الخلافة الى اهلها الذين يعرفون قدرها ويقومون بشرؤطها لان قيام هو لا دليل جا بشخص
الامير عبدالله ولكنهم احجو افضلاته اللائقة بالخلافة رغبة في مصلحة القسم . فاذا طالب
بها هو ثم رجع عنها طليوه السواه ... ارانا قد خرجت اعن الموضوع وخش في مسألة طمع
ولي العهد بعابدة فإذا رجع عن طلبه لم يبق داع مستجبل لما وآنه والا فترى ما يكون »
وكان عبدالله والفقير وهابدة شخاصين الى سعيد يسمعون كلامه ويعجبون لما فيه
من الحساس ولا سبي عبدالله فاته فهم اشياء لم تكن تخطر ببالهم فهم وجود عصائب واحزاب

تذكر مبادئه وتحب مبادئه . ولو كان من أهل المطاعم لأخذ «المبادئ» ذريعة للنهوض عليه لكنه كان ضعيف الرؤية وأغام سبق إلى الامر بالآباء وظل مع ذلك يتهيب من مواجهة أخيه ويختلف سقطة أخيه فعمد إلى المسالة وساعدته على ذلك ماسعه من سعيد فقال «قد علمت شيئاً لم أكن أعلمها ...»

فقطع الفقيه كلامه قائلاً «والذي عليه أقل من الواقع وستكشف لك الأيام قدر نفسك وتعلم أنك رجاء الآلوف والوف الآلوف» فاوماً سعيد يده إلى الفقيه وقال «لا ينبغي ان تخرض مولانا الأمير حتى يضاً فإن الصبر اولي والثانية لا بد منه .. فالآن ما الذي يراه مولانا؟»

قال الأمير «أني ارى الفقيه متسرعاً وافقك على الثانية وطول الآلة ولذلك فانا مرحبٌ هذا الامر الى فرصة اخرى لاني لا ازال ارى امير المؤمنين يصرفي ويقف في طريق أخي ف يريد عن هذا التعدد فاذا لم يفعل ذلك فالايات يتنا»

فقطع سعيد كلامه قائلاً «نعم الرأي رأيت وربما ادرك امير المؤمنين عند اطلاعه على عمل ولبي العذانه اساء الاختيار في ما عهد به اليه فيرجع الى الصواب وينقل ولاية العهد اليك ...»

فزاد عبد الله تكيناً من رايه فقال «فاذأ نوجل ذلك الى فرصة اخرى ولبحث الان في طلب أخي»

فقالت عابدة «مهما يكن من رأي الأمير في طلب أخيه فاما خارجة باسمه من هنا القصر» قالت ذلك ونهضت وهي تجمع حزارها إلى صدرها وقد القت العود من يدها فامسكت عبد الله بطرف ثوبها واقعدها وقال «كيف تخرجين؟»

قالت «اخراج باسم مولاي لاتي رايتي سبباً للنزاع مع أخيه ووو ...» فقطع الأمير كلامها قائلاً «اما باسمي فلا تخرجين» . وقد قالت لك انه لن يحال قلامة من ظفرك وهذا انا كاتب اليه الجواب الساعة» والنفت الى سعيد كأنه يستشيره في ما يكتب

قال سعيد اكتب اليه بما ترى ولا تشدد الوطأة فان الحكمة تقتفي حرف الاسلوب ثلاثة تغير القلوب . اذا اذلت ان اكتب هناك كتبن فاذا استحسنست مالا كتبه وقمعت عليه والا ردته» قال «افعل»

وكان الدواة والقرطاس لا يزال هناك فتناول سعيد القلم وكتب :

« الى الحكم وفي العهد من أخيه سعيد»

«اما بعد فقد اخذت كيابك وعجبت لاختنك في طلب تلك الجازية بعد ان اعتذرتك اليك عن نوالها وانت مع ذلك تهددي وتعرض بما لك من المتنزلة عند امير المؤمنين حفظه الله ولا امير المؤمنين اجل من ان يجازيك في طلبك او لملك تحسب ذلك من حقوق ولادة العهد — على رسلك ليس هذا من الصواب في شيء وقد رأينا الخلافة في الدولتين الاموية بالشام والعباسية في العراق وفي دولة الامير مروان هنا اذا اكرموا احد ابنائهم بولادة العهد عوضاً عن صائر الاباء والاعمام بالاعطية الجزيلة ووسعوا لهم في ارزاقهم ووالهم بالمدايا من الجواري والسراري والقصور والاقطاعات. فاذا عللت ذلك رجوت ان تعدل عن رأيك الى ما هو جدير بك في مساعدة حرمة اخليك بعد ان هنأك بما تائبه من حق الخلافة . وانت اعقل من ان تغير قلبه عليك — وفنحن احوج الى الشكائف على عدونا من الانقسام فيها وتنا والسلام»

فلا فرع سعيد من الكتابة دفع الكتاب الى الامير فقرأه فاعجبه اسلوبه ولم يدرك ما فيه من التهديد فوقع عليه وختمه ونادى الحاجب وامرءه ان يدفعه للرسول ففعل

الفصل التاسع والعشرون

ختام الجلسة

اما سعيد فاراد ان يشغل الامير عبد الله عن ذلك الشأن فقال «هل يا امير مولانا ان يسمع صوتا من عابدة قبل النهاب الى الرقاد ام يفضل سماع الاحاديث والاشعار؟» قال «نعم شيئا من اخبار العرب»

فالتفت الى عابدة وقال «قهي علينا ما تعرفيه يا عابدة»

قالت «وما عساي ان اقول بعد ما سبتيه من الخلاف بين الامير وخيه اود لو افي لم اخلق او افي لم اخرج من بغداد ولا اكون سببا لهذا الخلاف»

قططع الامير كلامها قائلاً «انت تتقفين على وجودك وفنحن شاكرون له لانك ربى مكانة مجلسنا واذا وقع خلاف بيني وبين اخي العله اول خلاف وقع بين اخوان ولو استطعت الصبر على الشيء لم ارض بالخلاف .. ولكن اخي يتجاوز حداته .. ما لنا ولدنا كقهي علينا ما يسلينا ساعة ثم نصرف»

فقصت بعض الاخبار وانشدت بعض الاشعار بعبارة فصيحة معرية زادت الامير تعلقاً بها واخيراً ذهب كل منهم الى فراشه ولكل منهم هاجس واشد تلك الموجس عند الامير عبد الله

فانه لما توسد الفراش اخذ يراجع عبارة كتايته الى أخيه فخذل كعباً عبارات لا تخلو من الشدة ولكنه استسلم للقضاء وقال في نفسه «لماها فرصة يعود خيرها على» واستهل العمل بشورة الفقيه في المطالبة بولاية المهد وعلق نفسه ان اباه لا بدح الخلاف يذكر بين الاخرين الى هذا الحد

بات تلك الليلة ثالثاً تقلب في اثنائهما كثيراً وما حدق ان علم القبر حتى يكرر الى انتبهة وبعد الى سعيد بن ابي ورد تأهب لترتيب الكتب فطلب الى الامير ان يسعفه ببعض الخدم يساعدونه في حل الكتب من اماكنها الى مكان يفرق فيه بينها حسب المواضيع . فجاء كتب الادب على حدة وكتب الفقه وحدها وكذلك فعل بكتاب الحديث والتفسير والشعر ولم يجد بينها كتاباً في الفلسفة او الطبيعيات او نحوها من الكتب المترجمة عن اليونانية لأنهم كانوا يعدون اقتئالها من قبيل الزندقة وكان الامير عبد الله مشهوراً بالقوى والزهد حتى سمه الزاهد^(٤) وقد رأى في ما تقدم انكاره امر هذه الكتب على أخيه لما قيل له ان اخاه يقتنيها — وكان ذلك الاعتقاد شائعاً في العالم الاسلامي عملاً بما يربده اخلاقه وهو لاد كانوا يتذمرون امر هذه الكتب مراعاة للدين على ما يفسره الفقهاء في ذلك العهد . وكان رجال السلطة يراعون اقوال الفقهاء احتجاجاً بتفوذهم لدى العامة لان هؤلاء لم يكونوا يحكمون بثل الدين على ما يفسره رجاله

فكان للفقهاء في الدول الاسلامية يومثلي نفوذ عظيم وقد يكون الخليفة او السلطان لا ينكر الفلسفة ولا يعتقد مخالفتها للدين ولكنه يصطفيها أصحابها مراعاة لشعور العامة على ان الفلسفة لم يكن لها سوق في الاندلس الا بعد زمن الناصر اي بعد ان دخلتها رسائل اخوان الصفا في اواسط القرن الرابع فتبين فيها ابن ياجه وابن رشد وابن الطفيلي في القرن السادس للهجرة .اما ایام الناصر الذي يجن في اثنائهما فكان قراء الفلسفة فيها قليلاً وكان قد دخل بعض كتبها في ایام عبد الرحمن الاول وانما يأخذ بمضمونها ومن علم النجوم والرياضيات ولم يتبين من العلماء في هذه الفنون الا بضعة قليلة . واما كان رجال الدين يحرمون هذه المواضيع اقتداء بالدولة العباسية فانها كانت تطارد رجال الفلسفة وتتهمهم بالكفر من اسائل ائمدة الاسلام

الفصل الثلاثون

الجني الغضبية

كان عبد الله يرافق حر كات سعيد في انتقاء الكتب حسب الموضع وربما مساعدته في فرزها وهو في شاغل من نفسه باسر أخيه وتأبده . ونحو الظاهرة احسن بالغراف في صحفه وتعب فأخبر سعيداً انه ذاهب للراحة . وبيقي سعيد ثم جاءه الفقيه فلما قيل له ان عبد الله في فراشه اقى سعيداً وأخذ يساعد ويهادنه ويذكر كل منها بما عاه ان يكون جواب الحكم على كتاب عبد الله الاخير مع ما فيه من المفارز . فكان الفقيه يزعم انه يتبايناً بما سيكون حتى قال «كأني ارى جند الحكم واعوانه قادمين للقبض علينا وعلى عابدته» فهز سعيد كتفيه كانه يقول «لا اعلم» ثم قال «لا احب ولی العهد ب فعل ذلك» . مالا وله فقلت ماشاء ان عابدة لا تذهب اليه ولو رضي الامير عبد الله

فضحك الفقيه واقترب من سعيد وفي يده كتاب يفضح عنه الغبار ويقدمه اليه ليضعه في مكانه وقال «وزيادة القول ان التغور قد وقع بين الاخرين ولا يليث اميرنا ان يواافقنا على القيام وانت ترشدنا الى الاحزاب فلا يغفي العام الا وقد انتقلت ولایة العهد او الخلافة الى صاحبنا»

نظر سعيد في عيني الفقيه وقد استغرب تسرعة في الحكم كيف انه تصور بلوغه الى اقصى المراد وهم لا يزالون في اول الطريق بل لم يخطوا خطوة واحدة بعد . ومن الناس من تراه مريع التسلك بمحب الامل حسن الفتن بالشهر اذا تصور عملاً يعود عليه بالتفع فبحجر الثصور او الفتن يحسب الامر قفي وانه تائل ما يريد . فهذا وامثاله لا يرون الدنيا الا من وجهها الايض ويعبر عنهم بالمنفاثلين لأنهم لا يتوقعون دائماً الا الخير وكان الفقيه منهم . خلافاً لفتنة الاخرى التي لا يتوقع اصحابها في اعمالهم الا اللشل وهم المشائون وكان سعيد لا من هو لاء ولا من هو لاء وانما كان يقيس المستقبل على ما يراه في الحاضر . فكان رأيه في عاقبة تلك الخبرة يختلف عن رأي الفقيه ولكنه كان لهاته يتظاهر بالجهل والسداحة حتى يدس ما يريد دسه من الاغراض . وكان ينظر الى الفقيه نظرة الى طفل لا يعرف من احوال الدنيا شيئاً فيدرره كما يشاء .

قضوا ذلك النهار في المكتبة والامير عبد الله لم يخرج من فراشه . ولما امسى المساء ذهب الفقيه للسؤال عن الامير فقيل له انه عموم وعندہ ساهر الحاجب فاستاذن في الدخول عليه فاذن له وسألته عن حاله فرأى الجنى قد أخذته فقال له «الا تأمر بالطيب يراك؟»

قال «وأي طيب؟»

قال «الأطباء كثيرون في قصر أمير المؤمنين وإذا ثشت استحضرنا لك سمان بن قاج طبيب أمير المؤمنين نفسه أو أحمد بن جابر طبيب ولبي العهد^(١) أو غيرهما من الأطباء ومكثيرون»

فهز رأسه وقال «لا هذا ولا ذاك ..»

فقال الفقيه «إذا ثشت استشرت سعيداً صاحبنا فإنه عالم بفن العلاج مثل علمه بسائر العلوم .. إنه رجل عجيب»

فما ذكر سعيداً أحسن؟ الأمير عبد الله بارتياح وقال «إن هذا الرجل من نوادر الزمان .. وأشكر الله لاني وقت للوصول إليه .. ولذلك فضل في ذلك» فاطرق الفقيه تأديباً وقال «بالحقيقة إن سعيداً نادر المثال ..»

فقال الأمير «وعابدة؟ أليست نادرة المثال أيضاً؟ .. هل رأيت مثلها فسادة أديمة تعرف الشعر والفناء؟ .. وكأنه تذكر حديث الامس فاتقبضت نفسه فابعدوه الفقيه قائلاً «هل يا ذن سيدتي في استقدام سعيد لعله يصف لك علاجياً؟»

قال «ادعه إن لم يكن للعلاج بدوانه فللانس بروبيته»

فأشار إلى ساهر فخرج وعاد وسعيد معه وكانت الليل قد ضرب مسراحته وانبرى المصاييف ولاحظ سعيد من احرار عيني الامير ان الحني شديدة عليه فأخذ يده فجس نبضه واطرق كأنه يتأمل حركة النبض ثم قال «آلم يجمع مولانا الامير ما به» (البول)^(٢)

قال «قد جمعته في هذه القارورة» وأشار إلى الغلام فاتاه بقارورة قد جمع فيها البول . فتناولها سعيد ونظر في الماء هنئه ثم قال «إن مولانا مصاب بحمى غضبية وهذا النوع من الحني لا خوف منه وإن اشتد»

فأعجب عبد الله بسرعة حكمه ووافق ذلك ما في نفسه لانه يعتقد ذلك . وكانت هذه الحني معروفة عندهم بهذا الاسم يومئذ في اصطلاحهم فقال «اخذتك عرفت الحقيقة لاني اصبت بها مرة قبل هذه وشفيت منها .. يظهر انك طبيب ماهر»

قال «إن معرفة هذه الحني سهلة»

قال «كيف عرفتها .. وعَيْ من قرأت الطب»

قال «تعلمه بالزاولة بعشرة أيام الأطباء الشيخ محمد بن زكي يا الرازي رئيس بيت

(١) طبقات الأطباء ٤٦ ج ٢ (٢) كانت العادة في ذلك العصر ان الانسان حملها يشر بالحراف في صحته يادر الى جمع البول في قارورة يحملها الى طبيه يتساعد بها على تشخيص المرض وقد يكتفى بارسال التارورة

الشفاء في ينداد وهو الذي دبر مارستان الري والفقير الحاوي الذي عليه معول
الاطباء اليوم في دار السلام »

قال « صدقت ان الرازي امام اهل الطب ولكنني أحبيه مات »

قال « فعم انه مات منذ بضع عشرة سنة وقد جاء في كتابه المشار إليه وصف كاف عن هذه المحبى »

قال « ما هو العلاج ؟ »

قال « انه يعالجها بالمرحات من الحكایات والسماع الطيب واللعل ودخول الحمام
بالماء الفاتر والثمر الخ بدهن كثير والتغذية بما يبرد ويرطب »^(١)

فقال الفقيه « اللهم درك من طبيب نظامي .. ان العلاج سهل ، اما المرحات فهذه عادة
قرية وعدوها رخيصة والحمام الفاتر سهل المثال »

فasher عبد الله الى الغلام ان يعدوا له حماماً فاتراً والثالث الى سعيد وقال « سأدخل
الحمام بعد قليل وفي خرجت منه تأمر عابدة ان تنبهنا صوتاً مفرحاً »

فتهض سعيد وهو يقول « سأعود الى الامير بعد قليل وهي عادة .. رعياً طاف من
فناة طافع كثيرة »

وخرج ومعه الفقيه ثم احضر له الروح ليقرئ به عند الخروج من الحمام . وبعد
ساعة بعث الامير اليه انه خرج وترى خباء سعيد ومعه عابدة تحمل عودها وجاء
الفقيه ودخلوا على الامير في غرفته واخترت عابدة تضرب على عودها وتغنى وكان
الامير قد احس براحة من خروج من الحمام فانشرح صدره لسماع القصاء واستأنس
بالفتاة وزاد تمسكاً بها وشعر براحة تامة كأنه لم يكن به باس . فلما اقضى بعض الليل اشار
سعيد عليه بالرقاد باكرأ الشماس للراحة فاطاعه وخرجوا على ان يبكون في الغدوة
كل الى منزله في قصر مروان

وفي صباح اليوم التالي خلا سعيد بعابدة يعلمها شيئاً من الشعر . وهي ائمها كانت
تلذ بمحالاته شفاماً بمحديته وتفتماً برؤيته لما عالمته من تعلقها به فانها كانت تعشقه وتنقاني
في جبه لا ينادي بما تجشمته في سبيل طاعته



الفصل الحادي والثلاثون

طارق

وهو في ذلك جاءه رسول الامير يستقدمه إليه فاسرع وقبل وصوله إلى باب القصر لحظ ان بالباب رسول اصحابها من صقالبة الناصروتاً كد ذلك لما اقبل على الباب فرأى الرسول واقفاً هناك وقد ترجل عن جواهه وبجانب الججاد هودج عليه الاستار مرخية كان فيه امرأة

فما اقبل على الباب تقدم الحاجب ساهر واستقبله وأشار إليه ان يدخل على الامير فدخل توأم فرآه لا يزال في فراشه وقد نزع عمامته ولبس قبعة النوم . ورأى الفقيه بين يديه وكلاهما ساكت وفي يد الامير رقيقة عرف من العلامة التي على ظهره انه كتاب من امير المؤمنين . فتجاهله وجاء وهو يبتسم وينظر الى الامير نظرة مستفهم عما هو فيه وابتدره قائلاً «كيف أصبح مولانا؟»

قال «اصبحت بخير من فضل الله وقد فارقني الحمى لكنني لا اظنه الا مائدة الى قريباً»

قال «لانحنت ياسيدى .. انها لاتعود بعد ذهابها .. وماذا أرى؟» وأشار إلى الرقة فشار عبد الله إلى الفقيه ان يغلق الباب ومدد يده وتناول الرقة إلى سعيد فتناوله وقرأه وأعاد قراءته ثم نظر إلى الفقيه فرآه ينظر إليه وينظر ما يبدو منه فنلت سعيد حولة ثم وجه كلامه إلى الامير عبد الله وقال «هذا شأن آخر لم يخطر لي حلوله ..»

قال الفقيه «لم يخطر لك ولا مولاي ولكنه خطر لي .. وقلت له ولم تصدقوني» قال سعيد «لم يخطر لي ان امير المؤمنين يعلى .. ولي العهد على طلبه» فقال الفقيه «استغرب كيف لم يخطر لك ذلك وانت الحكيم العاقل الذي لا يفوته شيء .. الا تعان الرجل اذا اقتسى في الترف والقصف طلب الزبادة منها؟ واما تعود الاستبداد هان عليه الظلم؟»

وكان عبد الله مطرقاً يفك فرفع رأسه وقال «يهون عليه ان يظلم ابنه ايضاً؟» فقال الفقيه «هو لم يظلم ابنه ولكنه ظلم الامير عبد الله الذي الزاهد انتصاراً لابنه العامل على رأيه في كل شيء .. انتصر لولي عهده»

فقطع سعيد كلامه قائلاً « انه لم ينصر ولـي العهد وانا بطلب عايدة الى قصرو »
قال عبد الله « يطلبها اليه ليعطيها لولي عهده .. » قال ذلك وحرق اسنانه واستلقى
على الفراش وتنهى

فقال سعيد « لا تغصب يا سيدى كن على يقين ان ولـي العهد لا ينالها وقد سمعت
من عايدة نفسها في الامس انها لا تنجب اليه ولو قطعوها اربأ »
قال « ولكن هل نعمى امر والـي في ارسالها ؟ الا ترى انه يطلب افادتها اليه في
هودج القصر ؟ لم تر اهلوهوج في الحديقة ؟ »

قال « نعم رأيته وادا ذهبت الى التصر فهو قصر از هراء لا يقيم فيه ولـي العهد كما نعلم »
قال الفقيه « ولكنـه يختال هذه الخليفة علينا لعلـمه ان الـامير عبد الله لا يمكن ان يعمى
امر والـهـو في رسـل الفتـاة حـالـاً وـمـقـ صـارـتـ في قـصـرـ الـخـلـيـفـةـ سـلـعـهاـ الـخـلـيـفـةـ الـىـ ولـيـ عـهـدـهـ . . . »
فاطرق سعيد هنـيـهـ وـهـوـ يـعـمـلـ فـكـرـهـ ثـمـ اـعـادـ النـظـرـ الـىـ الرـقـ وـقـرـأـ تـائـيـةـ وـقـالـ
« لا يمكن ان يفعل ما تقول فـانـهـ يـطـلـبـ اـرـسـالـ عـاـيـدـةـ لـيـراـهاـ بـعـدـ اـسـعـ بـادـبـهاـ وـرـخـامـةـ
صـوـتـهاـ فـمـ هـوـ يـقـولـ اـنـ سـعـ ذـلـكـ مـنـ ولـيـ عـهـدـ وـلـكـنـ اـذـاـ رـآـهـ لـيـعـطـيـهـ اـيـاهـ . . . »
قال الفقيه « وهـلـ تـقـنـ ولـيـ عـهـدـ يـسـكـتـ عـنـهاـ وـلـاـ يـطـلـبـهاـ مـنـ اـبـيهـ ؟ وـاـذـاـ طـلـبـهاـ مـنـهـ
هلـ تـقـنـ اـمـيرـ المـؤـمـنـينـ يـغـضـبـهـ وـيـتـعـهـ عـنـهـ ؟ »

قال سعيد « اـخـلـنـهـ يـغـضـبـهـ وـلـاـ يـعـطـيـهـ اـيـاهـ . . . »

فقال الفقيه « وهـلـ يـرـضـيـ الـحـكـمـ بـذـلـكـ ؟ وـرـضـخـ كـاـرـضـخـ مـوـلـاتـاـ الـامـيرـ ؟ »
فقطع الـامـيرـ كـلـامـهـ قـالـلـاـ « انـ طـاعـةـ وـالـدـيـ فـرـضـ عـلـيـهـ وـعـلـيـهـ فـاـذـاـ لـمـ يـرـضـ اوـ اـذاـ
آـخـرـ وـالـدـيـ عـلـيـهـ اـجـازـيـةـ » وـلـاـ وـصـلـ الـىـ هـنـاـ اـعـتـدـلـ فـيـ جـلـسـهـ وـقـدـ أـخـنـهـ
الـغـضـبـ وـجـمـلـ يـحـكـ عـثـونـ وـيـهـزـ رـأـسـهـ يـتـشـاغـلـ عـمـاـ جـالـ فـيـ خـاطـرـهـ

فقال الفقيه « اـسـعـ يـاـ مـوـلـايـ .. اـذـاـ اـمـتـعـ اـمـيرـ المـؤـمـنـينـ عـنـ تـسـلـيـمـهاـ لـاـخـيـكـ وـغـضـبـ
هـنـاـ وـتـنـافـرـاـ كـانـ ذـلـكـ ذـيـةـ مـاـ نـرـجـوـهـ لـاـنـ الـخـلـيـفـةـ يـرـجـعـ عـنـ ذـلـكـ الـىـ حـسـنـ النـظرـ
وـيـجـعـلـ وـلـاـيـةـ الـعـهـدـ يـلـيـكـ . . . وـلـكـنـ مـاـ قـوـلـكـ اـذـاـ لـمـ يـتـقـاضـبـاـ عـلـيـهـ ؟ »

وـكـانـ الـامـيرـ عـبدـ اللهـ قـدـ اـشـتـدـ حـقـهـ حـتـىـ عـبـزـ عـنـ الـكـلـمـ وـخـصـوـصـاـ فـيـ الـخـرافـ
مـنـاجـهـ . . . وـالـرـجـلـ فـيـ خـالـ مـرـضـهـ ظـهـرـ لـهـ الـاـمـورـ غـيـرـ مـاـ ظـهـرـ لـهـ فـيـ حـالـ صـحتـهـ . . . فـرـيـاهـانـ
عـلـيـهـ وـهـوـ فـيـ اـعـتـدـالـ مـنـاجـهـ وـتـمـ صـحـتـهـ اـمـورـ لـاـ تـهـوـنـ عـلـيـهـ وـهـوـ مـرـيـضـ وـذـلـكـ اـمـرـ
مـشـاهـدـ لـاـ رـبـ قـيـهـ . . . حـقـ التـوعـكـ الـبـسيـطـ فـلـاـ يـبـعـتـ صـاحـيـهـ عـلـىـ حـدـهـ الطـبـعـ وـالـخـروـجـ
عـنـ الـاعـتـدـالـ فـيـخـونـهـ الصـبـرـ وـيـعـصـاهـ الـكـلـمـ فـيـقـولـ مـاـ لـاـ يـرـضاـهـ لـنـفـسـهـ وـهـوـ فـيـ صـحتـهـ . . .

فقال امير عبد الله كان يحمل نفسه مغض الكظم خوفاً من الفشل وكان يرجو نصرة أبيه فلما رأى أبيه يطلب نفس ما طلبه أخوه غضب وهان عليه الخروج . فلما سمع سؤال الفقيه « واداً لم يتغاضباً » صاح « اذا لم يتغاضباً فاغضب انا » فقال الفقيه « وهل تعرف الغضب ياسيدى ؟ »

فظر سعيد الى الفقيه شريراً وقال «اراك لا تحسن التعبير يا فقيه - أن العاقل لا يغضب الا قليلاً و اذا غضب كان غضبه عظيماً . الا تذكر ما كان من صبر مولانا و طول اذاته وكم اردت اغضابه و لم يغضب لانه كان يتسم باللفرج حافظة على كرامة امير المؤمنين و مراعاة حقوق اخيه فاما لم يجعله الصبر غضب وليس غضب مثله يجوز في كل حال لانه لا يغضب ورضى في كل ساعة كالاطفال وانما يصبر ويكتظم حتى اذا يئس من المسالة غضب فتفضي لغضبه الامم برمتها ولا يرضيه عند ذلك كلمة لطيفة . وانما يرضيه حقه ان يعود اليه بعد ضياعه » وكان يستكمل بالرحة الجد فلما وصل الى هنا تراجع واظهر انه صرح بما يكن يريد التصریح به

الفصل الثاني والثلاثون

إلى أمير المؤمنين

فأثر قوله في الامير عبد الله ورأى الحق في جانبه وحاول مع ذلك ان يمسك نفسه فلم يجد له مسوغاً بعد ان رأى اباء ضافر الاخاء على سلبه تلك الجارية فلاح له عند ذلك ان يكتب من المساعدة التي يرجو ان ينالها اذا تاهض اباء لكنه تهيب ان يطلب ذلك من قياده نفسه . ونظر سعيد في عينيه نظرة اكتشف بها مكنونات قلبه وادرك ما يحبوه في خاطره فعلم ان الطبيخة اوشك ان تنضج فاراد ان يتبعجل لفضحها فدعا من مجلس الامير ونظر اليه نظر الجد والاحقان وقال « اعلم يا مولاي انك لم تدخل وسعاً في مجاملة اخيك وات الان يبني لك ان تحامل اباك على شرط ان لا يقلل من منزلتك ولا يميز اخاك عنك فاذا المسك فهو امير المؤمنين . والا .. فلا يعدم الحق انصاراً »

قال الامير « ترى اذن ان ارسل اليه ماردة ؟ »

قال «الا يقول في كتابه أنه يجب ان يرافقها عيدها .. وانا سأكون معها كما انا معها هنا لا اعلمها واقفتها فلا تخف ان يتبع شيء من حملك »

قصدي الفقيه قائلًا « اذا دخلت عابدة قصر الزهراء لا تعود اليها ۰۰۰ اعلم هنا من الآن »

فقال عبد الله « فاذن لا اخرجها من منزلتي الا بالقوة »

فقال سعيد « ليس هنا من حسن السياسة في شيء ۰۰۰ سذهب الآن واذا مضى يومان ولم يؤذن برجوعنا حق لك كل ما تريده »

وكان الفقيه يفكك في الامر ولا يرى هذه الطريقة تليها مطلوبه فربما جلس سعيد هناك ولا يبقي له من يعول عليه في نصرة الامير للقيام على ابيه فقال « لا تأمن اذا

دخلت قصر الزهراء ان يمحجر عليك »

قطع كلامه قائلًا « لا تخف »

وهم في ذلك جاء ساهر وقال « ان الرسول يطلب الجواب حالاً »

فالثقت سعيد الى الامير فرأه ينظر اليه فقال « اكتب الى ابيك انك اطعت امره وارسلت الجارية مع استاذها واطلب اليه ان يبعدها اليك بعد يومين ۰۰۰ هل اكتب عنك لانك تعجب من الحجي ؟ »

قال « اقبل »

فتناول قرطاساً وقلمًا وكتب

« الى امير المؤمنين التاجر من ولده عبد الله

« اما بعد فقد أخذت كتاب سيدي الوالد يطلب به الجارية الادبية التي كان أخي الحكم طلبها لنفسه فلديه بالحسن على ان يكتفي بما منح من قسم الله وفضل امير المؤمنين ويترك لي هذه الجارية اقتنعم بادبها وغذيتها في وحدتي وانقطاعي ۰ ثم جاءني كتاب مولاي يتوجيهها اليه ليراهما ثم يبعدها فأقتنعم وفعلت وقد اقتنعمها مع استاذها سعيد الوراق ۰ وهو الذي جاءني بها واشترط ان يكون في صحبتها ليقرئها الادب ويشفظها الشعر وهو اهل لكتبة امير المؤمنين ۰ وعهدني بالمولى حفظه الله ان يجعل بما قال وعنده الوف من الجواري الحسان على اختلاف الاصناف فلا يدخل علي بهذه وقد استأنست بادبها ۰۰۰ وهو فاعل ان شاء الله »

ودفع الكتاب الى الامير عبد الله فقرأه ووقع عليه اسمه ودفعه الى ساهر ليعطيه الى الرسول ۰ واستاذت سعيد بالتهاب الى عابدة وكانت في غرفتها تنتظر امر عبد الله في اخزروج اليه ۰ فلما رأت سعيداً قادماً عليها خفق قلبها فرحاً بروبيه فمش لها ومضم علىها ومد يده لصالحتها فصالحته وقل لها يرقض فرحاً ولبت تنشطر ما يقوله

فاجلسها وجلس الى جانبها وهو ينظر في عينيها فلم تهalk عن الاطلاق فقال « قد وفقت

«الى ما يدرك»

فاجفلت وقالت « هل آن لانا ان نجتمع ؟ »

قال في

فُسْحَكَتْ فِرَحًا وَقَالَتْ «أَيْنَ؟»

فَالْمُؤْمِنُ فِي قُصْرٍ إِلَّا هُوَ أَكْبَرُ

فدهشت ولم تفهم مراده وبيان الاستغراب في وجهها وقالت « مالي ولذلك القصر ؟ »

قال «ان المهمة التي جئت من اجلها لا تم الا هناك»

قالت «أني لا أخلق التصور»

فقال «الا يسمى ذلك ان تكون معه هناك ؟»

قالت «كلا . لاني لا اكون لك»

قال «لا يتم لنا ما نريده الا يسد الذهاب الى ذلك القصر ومتكونين هناك جاري
مذادمة وادب الى أجل مسمى »

مذكرة وادب الى اجل مسمى

فقطعت كلامه قائلة « لا . لا اريد التصور . افضل ان اكون معك في كوخ حتى على ان اكون .. »

قطع كلامها وقال وهو قايس على يدها ينظر في عينيها «أريد أن تكون معًا هناك وقد وعدتِ أن تساعديني على الفرض الذي قمنا من أجله»

فأحسست بقشعريرة ذهبت بارادتها وشعرت أنها طوع ارادته ولم تهالك ان قال
«افعل ما تريده اذا كان ذلك يسر لك»

قال « لا يسرني فقط ولكنه واجب لا بد من قضائه فإذا فرغنا من هذه المهمة تفرغنا
للحياة معًا .. هل أنت على وعدك بأن تفعلي ما أوصيك به؟ »

قالت «نعم»
فند يده الى جيده واستخرج حتفاً فيه مسحوق وقال «احتفظي بهذا المقار لابنك
عما يطير له ان تهدا به»

فتـأولـتـ الـحـقـ وـجـعـلـتـ تـنـظـرـ فـيـهـ فـقـالـ «ـلـاـ تـنـظـرـيـ فـيـهـ طـوـيـلاـ»ـ سـوـفـ تـعـلـمـيـ مـاـذـاـ
فـقـطـلـنـ يـهـ وـخـيـثـيـهـ يـنـ اـشـلـاـكـ وـانـفـ اـنـهـ بـكـانـ الـدـرـ فـقـاتـ الـلـاهـ زـاـ كـمـ

فنهضت واصلحت من شأنها وهي مسرورة بأنها تفعل ما أمرت به ونبت ارادتها
لتعاضت عن مبنتها كائناً أخذلت بالامتناع

خرجت وركبت في الموج وتوجه هو الى الامير عبد الله فوعده ووعده الفقيه وطنا نها

وركب بغلته وسار في اثر المود - يطلبون قصر الزهراء
ولم يكن لهم بد من المرور على القنطرة فوق الوادي الكبير فجأة زوجه والرسول
يقتدهم وهم يسيرون في اثره وسعيد بيبي^٤ ما يقوله وعابدة داخل المودج تسترق النظر اليه
من خلال السجف كلاما ساخت لها الفرصة وكلما رأته تنهد وتقول كأنها تخاطبه «مالنا وللوك
والدول دعنا من هذه المطامع ولنشعر معاً في رغد وهناء» ليس في حسبة الملوك غير العناه
ولكن ابت مطامعك الا ان تشق وأشقي انا معك ولا ندرى مصيرنا اين يكون

الفصل الثالث والثلاثون

قصر الزهراء

وبعد ان قطعوا الجسر عرجوا غرباً بجوار القصر الكبير ثم ساروا شماليّاً يطلبون
الزهراء وهي في سفح جبل اسود على اربعة اميال من قرطبة والطريق بينها وبين قرطبة
حراة رملية

اقبلا على الزهراء عن بعد قبيل الظهر وكان يوماً صاحياً صفا جوه فيانت ابنيه الزهراء
كالجبل الرائحة تتخالبها الاغارس من الشجر والرياحين وتدعس الاشعة عن جدرانها
الملوونة بانواع الرخام او الاصباغ ويدتها الكتاب والمآذن والقناطر والعقود والاساطين
وعليها التفوح والتصاوير . غير الاحواض فوقها التأثير من المرمر المصفح بالذهب .
فديهش سعيد لتلك المناظر ولم تكن اول مرة رأى بها الزهراء ولكن له لم يكن تبين
تفاصيلها فرأى ان يلهم بقية الطريق بالاستفهام عنها فنادى الرسول الصقلي فوق
ولياء فقال سعيد « اي ارى الزهراء اعجب ما صنعه الادميون »

قال « نعم يا سيدي . قد اجمع الذين شاهدوها انها اعظم ما صنعه الانس وقد دخل
فيها من التفقة الطائلة ما لا يقدر . قان امير المؤمنين أخذ في بنائها منذ بضع عشرة سنة
ولا يزال العمل جارياً ولا أظنه يفرغ قبل مرور عدة سنتين »

قال سعيد « اتعرفكم بلغ مقدار التفقة ؟ »

قال « لا اعرف مقدارها تماماً ولكنني اعلم ان عدد العمالة فيها ١٠٠٠٠ عامل
وعدد الدواب ١٥٠٠ دابة . وقدروا ما ينفق فيها من الصخور المحوتة كل يوم بستة
آلاف صخرة سوى الآجر ، وأما الرخام فهو كثير في هذا القصر كثيرون ومع ذلك فان

أمير المؤمنين يثيب عن كل رخامة صغيرة أو كبيرة عشرة دنانير ولم يدع بذلك فيه ورثام الابعث في اشتراه ورثام حسب الاجناس . يطلب اليها الرخامapis من المرية والجسر من رية والوردي والاخضر من اسفاقيس وقرطاجنة . وفي بعض هذه القصور حوض من الرخام منقوش بالذهب قد استجلبه من القسطنطينية فانظر الى هذه الهمة العالية هل سمعت بذلك في الملوك ؟ »

فاحب سعيد ان يستزيد شرحاً عما في تلك القصور من ادلة البنحو والاسراف فقال « لم اسمع بذلك ولكنني سمعت بعض الملوك لا يكتفون بالرخام في ابنيتهم فيدخلون فيها الذهب والفضة » ٠٠٠

قطع الصقلي كلامه وقال وهو يضحك ويشير بيده الى قصر نحو الشرق « أرأيت هذا القصر الشاق هناك ؟ إنك لا ترى منه الا ما يكاد يخطف البصر من الاشعة اللامعة المتعددة عن الجدران والتواقد . ولو اقتربت منه لرأيتها عيناً . ان هذا القصر يعرف بالتونس ويسمى ايضاً المجلس الشرقي وفيه بيت المقام . وفي هنا البيت ١٢ تمثالاً من الذهب الاحمر من صنع بالدر النقيس من صنع دار الصناعة في هذه المدينة ينبعها صورة اسد الى جابه غزال فتساوح وغيرها من اصناف الحيوان مصنوعة من الذهب المرصع . ويخرج الماء من افواهها الى حوض كبير . ان بناء هذا القصر كلف أمير المؤمنين مالا يقدر . ولم يمول في مناظرة بنائه على غير ابناءه ولبي المهد ولا زوال العمل جارياً فيه . فاذا اعتبرت ما يقتضيه ذلك من الاموال عامت مقدار ماددخل فيه من الدنانير على اني سمعت صديقاً لي من خصيانته هذا القصر يقول ان أمير المؤمنين ينفق ثلث جبارية المملكة في بناء هذه القصور » فصاح سعيد « ثلث الجبارية ! ان ذلك كثير . ٠٠٠ اتعرف مقدار الجبارية يا صاحب ؟ » قال « اعرف انها نحو ستة آلاف الف ألف دينار هكذا يقولون » ١)

قال سعيد « فاعتبركم هو ثلثها واجع ذلك مراراً . لا يخلو هذا القول من مبالغة » قال الخصي « لا . لا أظنك تجده في مبالغة اذا عرفت كيف يبني قصر الخلافة ايضاً وهو البناء الذي تراه في اواسط هذه القصور . ان قصر الخلافة هذا سمه من الذهب والرخام الغليظ وفي وسطه البئر التي جاءتها هدية من اليون ملك القسطنطينية . ويفكفي ان تعلم ان قرميد هذا القصر من الذهب والفضة » ٢) غير الصربي القائم في وسطه معلوة بالزېق وجلس هنا القصر ابواب عدت على حداها من الماج والابوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي . ولا حاجة

في إلى زيادة التفصيل أذ لا تثبت أن ترى ذلك وأي العين فلا تستربع عند ذلك مهما قدرت النفقه»

فقال سعيد «لا تستهن بقدر الجباية ولكنني سمعت من بعضهم أن مقدار النفقه بلغ كل عام ٣٠٠٠٠٠ دينار فانظر كم يجتمع من ذلك حتى يتم البناء في أربعين سنة» وكانت عابدة تسمع حديثهما وتعجب وتأقت نفسها إلى رؤية ما هنالك من التحف وذهبت وحشتهاً من ذلك الانتقال

وكانوا يقتربون شيئاً فشيئاً حتى أقبلوا على باب الزهراء الأول ويعرف بباب الاقباء قد وقف عنده الحرس من الفرسان العبيد وبعض الحشم • قليراً أو الصقلي عرفوا أنه رسول الخليفة فتحوا له حق دخل بالطودج وسعيد معه يقترب في وجوه الناس هناك فرأى أكثرهم من العبيد . فشيء مسافة حتى أقبلوا على الباب الثاني من أبواب الزهراء ويعرف بباب السيدة • وهو عظيم قائم على اساطين وعلى البوابون واعوانهم بالالبسة الخاصة بهم • وبعد ان دخلوا هنا الباب جعلوا يرون بين الاشجار وبينها طرقات مرصنة بالحصى الملونة • وقد تزييت جوانبها بالرياحين والازهار • ونظر سعيد إلى ما حوله فوجد نفسه محاطاً بالقصور من كل ناحية • وأول ما استقبله القصر المردود فيه السطح المردم يجلس فيه الخليفة في الاحتفالات الكبرى • وإلى يساره قصر الخلافة يجلس فيو الخليفة للعمل وإلى اليمين قصر المؤنس وفيه بيت النام وغرف الجواري

الفصل الرابع والثلاثون

ياسر

وشغل سعيد بمشاهدة السارحين في تلك الحدائق من الغلستان الوصفاء عليهم الالبسة الملونة تزيدهم جمالاً وقد تقليدوا السيوف الحالية • غير كبار الحصيان وذوي الأسنان • ولم يلتفت أحد منهم إلى الطودج وأصحابه لانهم كثيراً ما يرون الجواري تحمل به إلى هناك وكان سعيد يبحث بنظره بين هؤلاء لعله يجد ياسراً صاحبه ثم أتباه أنه لا بد من ان يراه ليسلم إليه لتكون في عهدهاته حتى يطلبها الخليفة فادى الرسول فوق

فقال له «أين هو ياسر رئيس الحصيان»

فأشار بيده نحو قصر المؤنس وقال «نحن ذاهبون إليه»

فشي سعيد معه حتى اذا اقترب من ذلك القصر رأى الرسول يترجل بسرعة فادرك انه يفعل ذلك لانه راي احداً من يختشم منهم قادماً . فاللقيت فانا هو ياسر قادم وحوله الغلامان كانه ملك بين الابياع والاعوان . فاسرع الرسول اليه وقبل يده ووقف متأدباً فسألة عن خبره فدفع اليه كتاب الامير عبد الله وأشار الى سعيد . فاللقيت ياسر اليه وحالاً وقع نظره عليه عرقه وقدم ثحوه فاسرع سعيد اليه وحياة فابتسم ياسر له وتفاهماً . ثم اشار ياسر الى الغلام ان يأخذ عابدة الى غرفة خصوصية وان يحسن وقادتها حتى يأمره باستقدامها ففعل

ومشى سعيد الى جابه بين اساطين قاعة هناك وفوقها عريش قد تسلقت عليه الاعشاب فلما خلوا قال ياسر « اني مسرور بقدومك »

فقال سعيد « لو لا علي ان قدمي يسرك لم آت .. كيف انت وكيف مولانا؟ » قال « مولانا كما تعهدنا لا يهمه الا الافاق واتم تفسيون عليه مسايرته لنغير العرب ونحن لازماء يحسن مسايرتنا فلا العرب راضون ولا غيرهم - انت تعلم متزلي وبلاطي في خدمته فاني اراه يقدم تماماً عني ولا يخفى عليك من هو تمام هنا وانا قدسته حتى بلغ هذه المزلاة - دعنا من ذلك ما الذي جئت به اليوم؟ »

قال « لا تغير الموضوع - انت تستغرب حال تمام معك وتعجب كيف يريد ان يحيط من قدرك الا تعلم السب .. » قال « لا »

قال « السب انت احسنت اليه ولعلك احسنت الي شخص آخر فساعدته عليك » فاطرق ياسر لحظة وقال « صدقت صدقت انت رجل حكيم .. قد اصبت الحقيقة عرفت الان سب هذا التغيير »

قال « لا اعجب اذا عرفته انت الآن وأنا عرفته منذ ايام » قال « ما هو »

قال « السب اصله من الشخص الذي انت سب لعمته .. لسي الآن فضلك عليه فضاف اعداءك عليك »

قال « انت تعني الزهراء صاحبة المقام الاول عند امير المؤمنين وهي ليست بريئة من هذه التهمة لكنها اطاعت تماماً الخليفة فذكرت ذكرآ بارداً عند الخليفة ففترت رغبته فيـ وان كان لا يزال يظهر رضاها عني .. ولكتتنى اعلم كيف انا اذ منها .. دعنا الان من ذلك واخبرني بما جئت من اجله »

قال «ألم تأخذ الكتاب»

قال «نعم لكنه كتاب الى امير المؤمنين لم افتحه»

قال «هو من الامير عبد الله ارسله مع هذه الجاربة الى ابيه»

قال ارسلها هدية له؟

قال «بل رغم ارادته وكانت هذه الجاربة عندي وهي جاربة منادمة وأدب فراغب الامير الى ان اتركتها له وأكون معها في قصره ارب خزان كتبه فاطعنه . فلما سمع ولی العهد بخبرها كتب الى أخيه ان يرسلها اليه فلم يرض فشكاه الى ابيه فبعث الناصر يطلبها لنفسه فلم يسع الامير عبد الله الا الطاعة ولكن كتب اليه هذا الكتاب يرجوه فيه ان يعيدها اليه بعد ان يراها ولا اظنه يفعل»

فقال ياسر «واما ما فعلت بعد الله»

قال «التحسب لا يزال على سناجته وسهولته ؟ ان الامير قد تغير»

قال «قد تغير ؟ يشرك الله بالظاهر .. هل اتبه لنفسه وما آلت اليه حال الدولة»

قال «لحظت منه انه لا يسكن على الصنم اذا سامه ابيه ابوه»

وكانت يخادثان وهما يمشيان في ذلك العريش يسمحان لغريب البلايل والاصوات الكراكي وسعيد قد يهره كلاما رآه هناك . لكنه لم يصل بعد الى الموضوع الذي بهمه حقيقة ولكنها استبشر بقرب الوصول اليه وهو على قاب قوسين منه . ورأى انه ابطأ في ايصال الكتاب الى الناصر فقال «الا تأخذ الكتاب الى صاحبه؟»

قال «بل . هل قاتي معي ؟»

قال «أرفقك الى قصر الخلافة وبعد تقديم الكتاب فإذا امر الخليفة بادخالي دخلت»

الفصل الخامس والثلاثون

مجلس الخليفة

قال «حسناً» ومشى سعيد يمشي الى جانبها وانجذبت انتظار الخدم نحوه هذه المرة لانه مع ياسر رئيس الخصيان وهو صاحب الفوز الاكبر في قصر الناصر والناس لا يعرفون ما حدث في خاجره كلام القاريء . ولكن سعيداً شغل عن كل ذلك بخاتمة قمبر الخلافة فما اطل على بابه حتى يهره ما نزل فيه من التهجد وما على عينيه من بديع التش

وقف الحجاب تمهلاً لياسر فخاهم ثم سالم « هل عند امير المؤمنين احد؟ »

فاجابه رئيس الحجاب « ليس عنده سوى القاضي منذر بن سعيد »

فذكر سعيد هذا الرجل وقد حضر خطبته يوم الاحتفال برسول ملك الروم وادرك

انه اقام القضاة بسبب ذلك

اما ياسر فدخل ودخل سعيد معه فادهشه داخل ذلك القصر اضعاف ما ادهشه خارجه
لان جدرانه مبطنة بالرخام الغليظ الملون على اختلاف اجناسه بضم عجيب . وستقه قد تزل
فيه التحبي . فشيئاً في دهليز حتى انتها الى باحة كالبيو سقفها من بنان اصبعه المذهبية
والقصالية وقوف بالحراب والسيوف . وكان سعيد يشي ولا يتكلم وقد اخذ بذلك البذخ
الباهر ولحظ ياسر دهشته فقال « اراك قد دهشت لما تراه وفن لم ندخل مجلس الخليفة بعد
فاذا دخلته فربناك المدحشة »

قال « وهل في الامكان انتم من ذلك؟ قد شاهدت قصور الخلافاء في بغداد ودمشق
فلم ار مثل هذه »

قال « ان اولئك كانوا يستنكفون من استخدام الذهب في ابنيتهم . امكث هنا حتى
ادخل واعود اليك »

فوق وشغل بشاهدة ما على رخام الجدران من الرسوم الجميلة المزالة بالذهب وما في
الارض من الطنافس المزركشة . وهو في ذلك رأى الحجاب الصقالبة في حركة كأنهم
يتهاون للسلام على قادم . فالتفت فرأى منذر بن سعيد خارجاً من مجلس الخليفة فاصبح يشونع
سرعة استدعائه اليه لكنه مكث طويلاً ولم يطلب فشغل خاطره . ثم جاءه احد
الخصيان يسأل المدخول على امير المؤمنين فدخل متأدباً وكان قد شاهد الناصر في قصره
بقرطبة يوم استقبال رسول ملك الروم وكان اباواه الى جاتبية . اما في ذلك اليوم فلم يكن
في مجلسه سواه بعد ان صرف قاضيه منذر بن سعيد

فلا دخل سعيد على الخليفة رآه في صدر المجلس قاعدًا على سرير من الذهب الاخلاص .
ومجلس المذكور قاعة كبيرة جداً في وسطها بركة يأخذ لمعانها بالبصر لأنها ملوءة بالزېق تقع
عليه اشعة النور من توافق في جدران المجلس ينشاها زجاج ملون فيتكون سطح الزېق الوائـا
جميلة يزيدها لمعان سطحه جمالاً

ولمجلس اربعه جدران في كل جدار منه ثانية ابواب قد انعدمت على حداها من العاج
والابنوس المرصع بالذهب واصداف الجوادر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور
الصافي . وتدخلت الشمس من تلك ابواب ففسر شعاعها في صدر المجلس وحيطاته فتولد

من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احداً من اهل محله او ماماً الى احد صقالبته فيحرك ذلك الزيف فيظهر في المجلس كله ان البرق من الثور وأخذ مجتمع القلوب حتى ينفي الحضور ان المجلس قد طار بهم ما دام الزيف يحركه^(١)

ومع رباطة جأش سعيد وكبر نفسه لم يتألم عن الدهشة من خاتمة ذلك المجلس . ولو نظر الى السقف لرأى قرميده من الذهب والفضة من تباعاً في هندسة جميلة ولكنكه اشتغل بالثول بين يدي الخليفة فوق عن بعد وحده رأسه ثم حيا الناصر بتحية الخلافة فقال « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وظل واقفاً فوق صوته في اذني الناصر موقعاً جيلاً فاشار اليه الناصر ان يتقدم فدار حتى وقف بين يديه فاواماً اليه ان يقعد فقعد وياسر لا يزال واقفاً . ثم انصرف ياسر ولم يبق في ذلك المجلس الكبير الا الخليفة وسعيد وتأدب سعيد في قعوده واطرق فوقي بصره على الزيف فشغله لعله الباهر ولكنكه مكتصاً ينتظر امر الخليفة وكان قد لحظ في وجه الناصر اتقاضاً وكأنه شاهد في عينيه دعماً فافتتح الخليفة الكلام فقال « اين الجارية التي بعث بها ولدنا »

قال « هي في قصر امير المؤمنين استلها عبده ياسر رئيس الخصيان »

قال « من اين اتيت بها ؟ بلغني من كتاب ولدي هذا انك صاحبها تعلمها وتهذبها »

قال « هي يا امير المؤمنين جاريۃ ادب ومتادمة من مولدات بغداد »

قال « بلغني انها تحسن الغناء ايضاً »

قال « نعم يا سيدی انها كذلك »

قال الناصر وهو يشتعل حیثه بانمله « بارك الله في بغداد انها لا تزال تأينا بالخفف والمخاير وهل انت من بغداد ايضاً ؟ »

قال « ان عبد امير المؤمنين من هذه الديار ولكنني رحلت الى بغداد والشام في طلب الكتب وجمع نوادر الادب »

قال « بلغني انك من نوادي الرجال »

وقف سعيد تا دباً وجاه وقال « لست تبئاً ولكنني اكون كما يشاء امير المؤمنين » فقال الناصر وهو يشير اليه ان يقعد « اتمد ولا ينبغي ان تهرب من مجلسنا فقد علمت من خادمنا ياسر انك من اهل العلم الواسع وغضي بحب العلم ونكرم العلام »

لحفز سعيد للوقوف ثانية فاقعده الخليفة وقال « قلت لك لا تهرب ان العلام ملوك

العقل ولا يستغني ملوك الرقاب عنهم . كن مطمئناً ولأنزدك أطمئناناً أقول لك انظر
إلى عيني »

فرفع سعيد بصره ونظر في عيني الخليفة فرأى الدمع فيهما وأحس الخليفة عند وقوع
بصره على بصر سعيد بقوه أثرت فيه كان سعيداً أرسل من عينيه اشعة نفاذت في احشاء
الناصر ولكنها اتم حديثه فقال « أرأيت الدمع في عيني ؟ انه من احترامنا لا لقوال اهل
العلم ، ارأيت قاضينا خارجاً الآن ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « قد كان عندي الساعة ولعمرك تعلم اني ولعيه القضاء بالامس فاعلم ان خطب
في المسجد وجعل موضوع كلامه ذم تسييد البناء والاستغراف في الزخرفة والامراف في
الاتفاق واغرق في ذلك فعرفت انه ينتقد ما اخذت به من هذه الابنية فما ملكت انت
بكيت ثم استقدمته اليه اليوم لامأله عمما اراده فاكتشفت قصده واتاني بأيات من القرآن
ال الكريم تشجع عملي فأشفقت على نفسي وبكيت . واما ابيتك بهذه القول ليسكن ما بك وتخلص
الخدمة لي »

خنا رأسه وقال « اني عبد امير المؤمنين وطوع ارادته »

قال « اني اعرفك قبل الان ياسعيد وقد طالما فرأت اسماك على الكتب التي احضرت
لها على يدك .. فهل عندك كتاب جديدة ؟ »

قال « لا يخلو الامر من كتاب سأعرضها على امير المؤمنين ولكنني اتيته بكتاب حي
ناطق لا يسأل عن ادب او شعر الا نطق به »

شخص الناصر فيه كانه يستفهمه فقال « اعني الجارية عابدة التي صارت في قصر
الزهراء الان فهي تبني عن الكتاب وقد انقطعت عن سائر الاعمال في سبيل تعليمها »

قال « سخضرها وتشتف امها عن بحديتها .. واما الان فاصدقني . قد بلغني انك بارع
في فن التنجيم »

قال « ذلك شيء لا تعلمه من الصغر ولا يزال بعضه عالقاً بالذهبن »

قال « ان خير العلم ما أخذت في الصغر لانه يكون كالنقش في الحجر »

الفصل السادس والثلاثون

التجيم

ولم يبرح الملوك في عصر الاستبداد يشعرون بمحاجتهم إلى التجميين لكثرتهم من يحدق بهم من أهل الدسائس والمتسلقين فهم لا ينفعون بهم ولا يردون لهم بدأً عنهم . فإذا كانوا يعتقدون التجمامة استعنوا بها على استطلاع الأسرار وكشف المؤامرات . وكان الناصر قد سمع عن سعيد الوراق من قبيل وعن مهاراته في كل فن وما دخل عليه ياسر بكتاب ابنه عبد الله ذكر سعيداً بالخير واطرئ عليه وبراعته في التجمامة فوقع من نفسه موقعاً حسناً . ولم يكن الناصر سادجاً فلم يشأ أن يستسلم لسعيد قبل أن يتدارس أمره فسأل الله عن قيبله فقال له ياسر « إنه غريب لا أهل له ولا يهبه غير الاشتغال بالكتب وبيعها » فبقي إلى ذهنه حسن الظن به وفتح له قلبه من أول جلسة ولما كلمه شعر بقوته فيه ارتاح لها وتوقع أن يكون له عون له في أضاءة طريقه

اما سعيد فلم يفته شيء مما جال في خاطر الناصر فأخذ يستعد لتدبر ما جاء من أجله فقال « لا ينبغي لولي حفظه الله أن يستسلم لغيره مثله ولا يركن إلى التجمامة كثيراً فاتسها قد تختطيء »

فأعجب الناصر بتواضعه وزاد ثوقياً به فقال « إن تنصلك من المعرفة التامة يزيدني ثقة بعلمرك فاتني لم أر بين التجميين الكثرين في قصري من يعزف بالقصور مثلك » فرفع سعيد بصره إلى الناصر وحدق في عينيه وقال « ولكنني لا أحب أن أدعى منجعاً .. إذا شاء مولاي أن يتყع بشيء من عامي فأرحب إليه أن يكتسم خبري عن خاصته ولا يعذني في جلة التجميين بل يجعلني في جلة الخصم ويحمل أنني معلمًا لذلك الجارية وأنا لا أذخر وسماً في بندل روحي في خدمته من كل وجه »

فاستحسن الناصر رأيه وقال « سأفعل ذلك أما الآن وقد فتح الحديث فأخبرني بما يدلك عليه عاملك من حالنا . قل لا تخف »

قال « أني لا أخاف شيئاً . ولكنني أطلب إلى مولاي أن يخلص النية في ما أقوله وربما كان في بعضه ما يخالف اعتقاده .. »

فاستبشر الناصر بشيء يطلع عليه فقال « قلت لك قل ولا تخف . اخرج كتابك وانظر إلىه . وقل ما يدللك عليه علمك »

فَدَسْعِيدٍ يَاهُ إِلَى جِيَهِ وَاسْتَخْرَجَ كِتَابَ التِّجَمِ فَفَتَحَهُ وَاحْدَهُ، يَقْلُبُ فِيهِ وَنَظِيرُ
إِلَى النَّاصِرِ وَيَعْدِ النَّاظِرَ إِلَى الْكِتَابِ وَيَعْدُ عَلَى اسْبَاعِهِ وَيَلْتَفِتُ إِلَى أَشْعَةِ الشَّمْسِ تَارِيَةً
وَإِلَى بَرَكَةِ الزَّبِيقِ تَارِيَةً أُخْرَىٰ . ثُمَّ اظْهَرَ الْأَرْبَابَ وَقَالَ « انْفَقِي يَا سَيِّدِي مِنْ
الْقَوْلِ الْيَوْمِ »

قَالَ « لَسْتَ تَارِكَكَ حَتَّى تَقُولَ »

فَاعْتَدَلَ فِي مَقْعِدِهِ وَأَعْدَادَ النَّاظِرَ فِي الْكِتَابِ ثُمَّ قَالَ « أَنِّي أَرَى الْخُوفَ يَأْتِي أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ ثَقَةً عَنْهُ .. » وَسَكَتَ وَهُوَ يَقْلُبُ فِي صَفَحَاتِ الْكِتَابِ
وَيَرَاقِبُ مَا يَيْدُو مِنَ النَّاصِرِ

إِمَامَ النَّاصِرِ فَكَانَ لِكَلَامِ سَعِيدٍ وَقَعْدَ شَدِيدٍ عَلَى سَمْعِهِ وَقَدْ نَبَهَ إِفْكَارًا كَانَتْ كَامِنَةً
فِي قَلْبِهِ وَلَكِنَّهُ غَالَطَ نَفْسَهُ وَتَظَاهَرَ بِالاَصْغَاءِ كَمَا يَسْمَعُ بِقِيَةِ الْحَدِيثِ
فَلَمْ يَفْتَ سَعِيدًا مَا جَالَ فِي خَاطِرِ الْخَلِيفَةِ فَلَسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ قَائِلًا « أَخْشَى أَنْ
يَكُونَ مَوْلَايِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ نَدَمَ عَلَى سُؤَالِهِ وَالْحَاجَةِ »
فَقَالَ « كَلاً - بَلْ بِالْعَكْسِ فَأَنِّي مُصْنَعٌ لَا تَقُولُ . وَلَكِنْ نَصْفُ الْخُطَابِ لِيْسَ لَهُ
جَوابٌ . قَلْ . صَرَحْ »

قَالَ « يَظْهُرُ أَنْ مَوْلَايِ يَظْنُنَ التِّجَمَ يَسْتَطِيعُ تَسْيِينَ الْأَشْخَاصِ فَإِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ
لَهُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ فَإِنَّ الْقَاتِلَ لَيْسَ مِنَ التِّجَمِينَ أَوَّلَهُ يَرْزُعُ التِّجَمَ قَوْةً فَوْقَ قَوْتِهِ - أَنَّ
هَذِهِ الصَّنَاعَةَ تَقْبِيلَ التَّدْجِيلِ وَالْأَيْهَامِ عَمَّا لَمْ يَلْفَهُ - وَإِنَّا لَا أَقُولُ إِلَّا مَا تَدَلَّنِي عَلَيْهِ الصَّنَاعَةُ
عَمَّاً وَهِيَ اغْتَثِيرَةٌ إِلَى الْأَوْسَافِ وَالْأَحْوَالِ .. وَقَدْ قَاتَ لِسَيِّدِي أَنَّ الطَّالِعَ دَافِنَ
الْخُوفَ فِي دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ ثَقَةً عَنْهُ وَاقِرِبُهُمْ مُوَدَّةُ أَلِيهِ وَلَوْ سَأَلَنِي
عَنْ أَسْمَ ذلكَ الرَّجُلِ أَوْ تَلَكَ الْمَرْأَةِ فَلَا يَكُونُ جَوَابِي إِلَّا مِنْ قَبْلِ الرِّجْمِ بِالْغَيْبِ »
فَأَنْجَبَ النَّاصِرُ يَا رَاهَ مِنْ صَدْقَ هُبْجَةِ الرَّجُلِ وَعَزَّزَ نَفْسَهُ وَلَكِنَّهُ تَوَهَّمَ أَنَّهُ يَشِيرُ
إِلَى اِنْسَانٍ لَا يَرِيدُ النَّاصِرَانِ يَرِتَابَ بِهِمْ وَلَا هُوَ يَرِتَابُ بِصَادِقِ التِّجَمِ فَأَصْبَحَ فِي حِيرَةٍ وَنَادَمَ
عَلَى تَعْرِيَضِ قَلْبِهِ لِلشَّاكِ لَأَنَّهُ شَدِيدَ الْحُرْصِ عَلَى ذَلِكَ الْحَبِيبِ مُحِلَّ مُقْتَهُ - وَهِيَ الْزَّهْرَاءُ
أَذْلَمُ يَكْنِي أَعْزَمَهَا عَلَى قَلْبِهِ وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلْ سِبْلًا لِسَوْءِ الظَّنِّ يَنْهِي وَيَنْهَا نَظِرًا
لَوْلَعَهُ بِهَا وَشَدَّةَ تَعْلِقَهُ بِهَا وَقَدْ أَنْفَقَ الْأَمْوَالَ فِي تَشْيِيدِ تَلَكَ الْقُصُورِ لِأَجْلِهِ فَكَيْفَ
يَجْبَبُ التَّعَاسَةَ لِنَفْسِهِ بِالشُّكُوكِ وَهُوَ لَا يَرِى لَهُ غَنِّيًّا عَنْهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِ - وَقَدْ امْتَلَكَ
فَوَادِهِ وَغَلَبَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ . فَلَمْ يَرِ خَيْرًا مِنْ قَطْعِ الْحَدِيثِ أَوْ تَحْوِيلِهِ فَقَالَ « لَهُ دُوكُ مِنْ
حَكْمِ خَيْرٍ قَدْ فَهِمْتَ مِنْ أَدْكَ وَسَعْدَوْدَ إِلَى اِتْهَامِ الْمَقَالِ . إِمَامَ الْآنَ قَارِيٌّ أَنْ تَشَاهِدَ تَلَكَ

الخواص الادسية

فاسع سعياً الى طي الكتاب وجعله في جيشه وقال « هي في دار مولاي بقصر المؤنس في حياطة عباك ياسر » قال ذلك وقد سره اكتفاء الخليفة بما قاله قال « سبب ثاليه ان يهيء لذا الجارية ومحضرها الليلة الى يدت المنام في المجلس الشرقي (المؤنس) »
فادرك سعياً انه قد آن الانصراف فتحفز للهوض وهو يقول « هل يأذن سيدني ان امرّ منها على ايّه تقوله في حضرته؟ ». قال « لا يأس بذلك .. افل ». قال

الفصل السابع والثلاثون

عائدة

خرج سعيد بعد أن حيا وتأدب على جاري العادة ومشى في الإيوان والخطيبان
وقوف بالسلحفاة وملائكةهم
ولم يكدر يخرج من الباب حتى لقيه ياسر ومعه رجل عرف سعيد من لباسه وقلنسوته
أنه سليمان أبو بكر بن تاج طبيب الناصر . وكان سعيد يعرفه ويعرف مهارته في الطب
ومنزلته عند الناصر بعد أن شفاه من رمد^(١) عرض له سفياه قابضه ياسر قالاً « ألم
تعرف هذا العاليد ؟ »

قال «كنت لا ؟ أليس هو ابا بكر ابن تاج الحكم النبيل ؟»
 فهش له الطيب وصاغه، وقال «لله درك صدق الاستاذ ياسر، انك لا تتجهيل شيئاً
 وقد سرني اني لقيتك الساعة وانا اعلم مهارتك في معرفة الكتب وقد سمعت بكتاب
 في الطب قيل لي انه اجوى الكتب واحسنياً»

قطع سعيد كلامه قائلاً «لعلك تعني كتاب الحاوي لمحمد بن زكرياء الرازى»
فيما الاستغراب في وجه الطبيب لسرعة خاطر سعيد وقطنه وقال «إيه اعني»
قال «أنا كتاب نفيس وهو أحسن كتب الرازى وأعظمها في هذه الصناعة
لأنه جم فيه كل ما وجاه متفرقاً في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب

الطيبة للتقديرين ومن اتي بعدهم الى زمانه ونسب كل ثني « نقله فيه الى قائله » (١)
قال الطيب « هنا هو الكتاب . وقد سمعت اطراً كثيراً فيه فهل من
سبيل اليه ؟ »

قال « لا اعرف منه نسخاً في قرطبة ولكنني ابصت من يستنسخه لك في بغداد .
وقد درسته وحفظت اهم موارده » قال ذلك وهو ينشي والطيب ينشي بجانبه وياسر الى
الجانب الآخر والحرس ينظرون الى ذلك الضيف ويعججون بما لاقاه من الحفاوة
لدى امير المؤمنين

قال ابن تاج « اذا اذلت الفرصة في استنساخ هذا الكتاب لي عدلت ذلك فضلاً
كثيراً لك »

قال « سأفعل ان شاء الله » والتفت الى ياسر وقال « اخبرني امير المؤمنين انه
سيكلفك تحضير عابدة الليلة في بيت المرام لسماع غنائهما وانا ذاهب الان لتعليمها بعض
ما تقوله في حضرته »

فعلم الطيب انه آن له ان يستأنذ بالانصراف فانصرف وهو ينشي على سعيد . وسار
سعيد ويسار الى جانبه وهو يقول له همساً « كيف وجدت الرجل (يعني الناصر) ؟ »
قال « انه كما يبني ولكل اجل كتاب »

ثم سمع ياسر صوتاً يستوقفه فنظر فإذا بعض الصقابة يقول له « ان امير المؤمنين
يدعوك اليه » فقال « اني آتى الساعة » ثم التفت الى سعيد وقال « اني منصرف الى امير
المؤمنين واذعب انت مع هذا الصقابي وهو بذلك على مكان عابدة »

ومشى سعيد والصقابي يبن يديه حتى اتي قصر المؤنس فتحول به الى غرفه من
غرف الاضافي وقال له « سارسل اليك عابدة الساعة » ومضى

ومكث سعيد وهو يعمل فكرته في ما يدوره لاتمام غرضه . وبعد قليل جاءت عابدة
وقد تزینت باحسن الملابس واقتضت هنداها فرأى فيها جمالاً لم يعهد له بها من قبل فعلم
انها توقع احتفاء بها فهش طا ورحب بها وجلسها الى جانبه خلست وهي تبتسم
وقلبها يخفق وقد تبادر الى ذهنها ان حسن هنداها يزيده رغبة فيها لاتها ما برجت
الي تلك الساعة تخفف صدوده . ورغم ما كان يبديه طا من الانعطاف ما زالت تخفف
ان يؤخذ منها .اما هو فرحب بها وبالغ في اظهار اعجابه بها خلست وهي مطرقة
تنتظر ما يبذلو منه فقال طا « كيف تجدين نفسك هنا ؟ »

فتشهدت وقالت « أجدني تمسة »

قال « أقولين الحق ؟ »

قالت « نعم وحياتك » قالت ذلك وصوتها يرتجف

فقال « وهل يمكن ان تكوني في حال احسن من هذا ؟ وانت الان جلبة الخليفة وموضع اعجابه ؟ »

فتشهدت وهي تنظر اليه وتخافر ان ينظر هو اليها لثلا يدفع نظرة نظرها وقالت « ألم اقل لك اني لا اطمع بشيء من هذه السفاسف وانما منيقي وغاية مطالي هي ان ... » وسكتت

فقال « فهمت من ادك وقد قلت لك ان ذلك ميسور لثما من شئنا ولكن لا بد من اتمام الامر الذي جئنا به ... اين هو ذلك الحق ؟ »

قالت « هو عندي في مكان امين »

قال « احتفظي به ... واعلمي ان امير المؤمنين سيد عوك اليمامة يسمع حديثك ويختف بفنايك فاذلي الجهد في إرضائه . نعم ؟ »

قالت « سأغفل ذلك جهد طاقتي »

قال « غبى ما حفظته من كتاب الاغاني »

قالت « حسناً ... سأغفل »

قال « هل عرفت احداً من اهل هذا القصر ؟ »

فاجعلت لعلها ان ذلك القصر ليس فيه احد غير الجواري والسراري وهي تثار من مجرد سماع ذلك من حبيبها ولكنها لم تستطع السكوت عن الجواب فقالت « عرفت بعض لئائمه »

قال « من عرفت منهن ؟ »

قالت « انت تريدان اخبرك عن الزهراء زينة هذه القصور كلها » قالت ذلك وهي تنظر اليه وعينها تبرقان وتراقب ما يبدو منه

فاظهر عدم الاكتراث بما ظهر منها وقال « الزهراء ؟ قد بلغني أنها ربة هذه القصور لشدة تعاق الخليفة بها ... هل هي تستحق هذا الاكرام يا ترى ؟ »

قالت « أما اها فلا أراها بالعين التي يراها بها الناصر ولعل اظلمها اذا قالت أنها قلما تمتاز عن كثيرات من نساء هذه القصور ... »

فقال « لاشك ان حب الخليفة طابورفع مقامها ، فارجو ان تنسالي من اعجاب

الخليفة البدلة ما يجعلك في منزلة أعلى من منزلتها »

قطعت كلامه قائلة « لا . لا أريد ذلك .. وان كنت اراه بعيداً عني اذ ليس في مابعث على الاعجب وانا فتاة مسكتة احفظ الآيات من الشعر وأتلوها وهذا لا يعجب الا القليلين .. ودب اني كما قات فانا لا اريد ان استقر في قلب احد سواك .. آه يسعد » وتلعم لسانها وكاد الدمع يتسلل من عينيها

فضحك سعيد باستخفاف وقال « كم يجب ان اكون سعيداً بهذه الحبة ! »

قالت « انك سعيد يا سعيد وانا الشقيقة » وغضت بريقها

فابتدرها قائلاً « لا ازال اراك تستسلمين للشك »

قالت « كلا .. ولكن قابي يدلني .. لا لا . لا شك انك تجبي ولو على سبيل الشفقة على .. الا تشفق على قابي ؟ . طبعاً انت ترى ما انا فيه من اطيام بك وترى اني مستسلكة في سبيل مرضاتك .. فكيف لا تجبي او لا تشفق عليَّ .. » ومسحت عينيها بكمها

فنظر اليها وحدق فيها وقال « اراك عدت الى الشك »

قطعت كلامة مسرعة وقالت « لا لا + انا واقفة بك فافعل ما ت يريد »

قال « سترن صدق قوله .. والآن افعل ما قلت لك .. ولكن اخاف ان تغار الزهراء منك »

قالت « ولماذا ؟ انا لا اسبقها على شيء الا اذا كانت تسايقني هي » وغضت على كعبها باستانها كأنها تلهو بذلك عن التصریح بما كادت تنطق به فوقت وهو يمد يده الى يدها ليصر لها فاحسست انه يريد النهاية بثديت يدها من يده وقالت « هل انت ذاهب ؟ »

قال « نعم ولكننا سنكون معاً البدلة في حضرة الخليفة »

فنهدت وقالت « لعم سنتي ولكن .. »

فامسك يدهما وودعها وهو يقول « ابعدي عنك البلايل والمخاوف فان الوقت قد دنا ، اذهبي الان الى غرفتك » قال ذلك وخرج

فطلت هي واقفة لحظة تنظر اليه ثم تحولت نحو القصر تشي المويتاء وقد استغرقت في افكارها وتحيرت في امرها

الفصل الثامن والثلاثون

جوهر

وسار سعيد إلى حيث علم أنه يرى ياسرًا فلما التقى دعاه ياسر إلى الطعام معه . وها يأكلان قال ياسر « ما الذي فعلته بالخليفة »

قال « لم أفعل شيئاً وماذا ؟ »

قال « رأيت الخليفة قد تغير كثيراً وأمنتلاً اعجباً بك »

قال « لم أفعل شيئاً يجب اعجابه وما هو التغيير الذي أصابه ؟ »

قال ياسر « لا أقدر أن أعين التغيير الذي حصل ولكنني فهمت ذلك من نسق حديثه في بعض الشؤون المتعلقة بالزهاء »

فاما سمع سعيد ذلك الاسم اختلج قلبه ولكن رباطة جاؤه اخفت ذلك عن جليسه فقال « ماذا تغير عليها - لا أظنك مصيباً لاني لم اذكر هذه الجارية في حديثي معه مطلقاً »

قال « لا أعلم ما الذي قلته له ولكنني اعلم أنني رأيتها تغير - وعلى كل حال ان هذه الجارية قد بالغت في الاستبداد وآن لها ان تعرف ما طا وما عليها » قال ذلك بلحن التهديد

فجعل سعيد أنه لم يفهم الامر كثيراً وقال « ربما كان السبب في تغيره عليها ما لاحظه من استبدادها فقد علمت أنها أصبحت لفطر دلاتها تتطلب أموراً ليس من شأنها حتى اسمعها الناصر ما تكره وظل غاضباً عليها يوماً وليلاً »

فبفت ياسرو نظر إلى سعيد فرأه مستغرقاً في تقطيع صدر دجاجة ينيد به كأنه لم يقل شيئاً فقال ياسر « ومن أبلغك هذا الامر ؟ ليس في هذا القصر أحد يعلم ذلك غري لان الناصر اسمعها تلك الكلمات وغضب عليها ولم يدع احداً يشعر خوفاً من الشهادة لأن كل نساء هذا القصر يحسدن الزهراء على منزلتها - قل لي كيف عرفته ؟ »

قال « عرفته » وحزكت تفيفه وحاجبيه وهو ينظر إلى السقف تجاهه

قال « بالحقيقة انك ماهر بالتبجيم كانك تطلع على الغيب .. الله درك من عالم حكم »

فضحك سعيد وقال « ان الامر لا يحتاج إلى معرفة الغيب .. دعنا من ذلك الآن

وقل لي هل اوصاك الخليفة باعداد عابدة الليلة ؟ »

قال « نعم »

قال « وعل طلب اليك ان تكون الزهراء حاضرة »

قال « نعم »

قال سعيد « فاذأ سنراها الليلة . . . اني طالما سمعت بعماها . . . »

قطع ياسر كلامه قائلاً « ولكنني امرني ان تخالسك من وراء الستار وكثيراً ما يفعل ذلك في مثل هذه الحال لانه شديد الفيرة عليها »

فقال سعيد « من وراء الستار ؟ وما هي لذته بمحاسنها على هذه الصورة ؟ »

قال « هو لا يمحجها الا اذا حضر مجلس احد من الرجال غيره عليها والليلة

ستكون انت حاضراً . . اين اجدك لاذهب بك الى ذلك المجلس ؟ »

قال « اني ذاهب للاستراحة قليلاً وربما نمت ساعة استعدادتا للسفر »

قال « سأمر بك نحو المساء ونذهب معاً الى بيت المذام او ارسل اليك من يأتني بك اليه » ووقف سعيد فوق ياسر وودعه وخرج الى غرفته ولم يكن يطلب الرقاد وانما اراد ان يخلو بنفسه للتفكير بما يكون تلك الليلة

وهو متوسد هناك وقد دنوا الفروض سمع جلبة وقهقهة في ساحة القصر فاصنفى فاذأ بجماعة من الخصيان يداعبون خصياً منهم وهو يصبح فيهم . فلما سمع سعيد صوته استبشر وعلم انه قادم اليه وقال في نفسه « اني جوهر الحديث »

ثم سكت الجلبة وبعد قليل دخل على سعيد خصي قصير القامة غريب الهيئة قصير الساقين كبير الرأس واسع الوجه بارز الجبهة قبيح الخلقة عليه لباس ثمين لكنه يضحك الشكلى لغرابته على راسه قبعة طويلة مخروطية الشكل في راسها شرابة وعليه جبة من خز مطرزة تحتها ققطان من حرير احر لامع . دخل على سعيد ولم يجيئ به فهض سعيد وقال له « ما الذي جاء بك يا جوهر »

فتقدم الغلام وقبل يد سعيد وقال « اتيت اعرض عليك خدمة اقوم بها »

قال « ومن اباك اني هنا ؟ »

قال « هل تقوتي حركتك من حركاتك يا سيدى ؟ كيف تأتي هنا ولا اعلم ؟ »

قال « كيف هي ؟ »

قال « هي كما تعهدتها لازالت خالية الدهن — صلبة القلب »

قال « هل علمنت اي في قرطبة ؟ »

قال « لا تعلم شيئاً من ذلك »

قال سعيد « لم تتغير محبتها لذلك الرجل ؟ »

قال « ان ذلك الرجل لم يترك طريراً لتفكير يسواه اذا غضبت استرضاهما وادا امرت اتفذا امراها مهما يكن كي قلت لك قبل الان »

فاطرق سعيد وقال « هل يعلم احد امثالك حيث الى حد المكان ؟ »

قال « من يعلم ذلك ؟ . قد أتيت بمحة اللعب في ساحة القصر مع بعض الرفاق الصقالبة وفررت من بينهم كاني اطلب حاجة لنفسي »

قال « نحن الليلة ضيوفكم في بيت النام »

قال « اعلم ذلك وانما اتيت لاخبارك أنها ستحضر المجلس وتسمع الغناء وهي شديدة الولع بالصوت الرخيم وطا صناعة في الموسيقى تضرب على العود وقد حفظت كثيراً من الشعر ولما علمت اليوم بمحاجيء عابدة رأيت الغيرة دبت في عروقها وأظنها تحب ان تزداد توسيعاً في هذه الصناعة »

قال « تحب ان تتعلم الاشعار والفناء ؟ »

قال « أظنها تحب الى ذلك »

قال « فاذاك انت تعرف كيف يجب ان يجعلها تطلب من مولاهما ان اعلمها الشعر .. فهمت ؟ »

قال « نعم يا سيدي .. سمعاً وطاعة .. اي لا انسى فضلك »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « هل انت منقطع خدمتها الان »

قال « أنا منذ بضعة اسابيع في خدمتها واراها ترثاح الي وتطرب بانتظري وحدبني لكنني احبها هذين اليومين في شاغل اذ يتدر ان تطلبني اليها ولا اعلم السبب »

قال « العلها غضبة ام طيبة ام خائفة »

قال « لا اعلم وربما كشفت السبب بعدئذ - هل تأذن بانصرافي الان فاني اخاف ان يستبطئوني ويطلعوا على خبرني معك »

قال « اذهب »

فأخذني وحجا ومضى

الفصل التاسع والثلاثون

يت الملام

مكث سعيد وهو يهوي نفسه ويصلح من شأنه استعداداً للذهاب مع ياسر اذا
أناه او بعث في طلبه

وي بعد العشاء أناه بعض الصقالبة يدعوه الى قصر المؤنس خرج وسا اطل على
الحدائق بهره ما رأه فيها من المصايب المتعلقة باغصان الاشجار او على الجدران او القوائم
حق أصبحت الحديقة تسللاً بالاتوار . ومشى الخصي بين يديه حتى وصل الى باحة
القصر المذكور فرأى الحرس وقوفاً باسلحتهم وعليهم الابسفة الفاخرة . ولم يك يطلع
على باب القصر حتى رأى ياسرأً بين يديه فاستقبله وحياته ومشى امامه حتى دخل به
الباب الى دهليز مضيء بالشمعون العتيقة وقدفت المسك في الارض وفاحت رائحته
فعطرت الارجاء . ولم يعجب سعيد من شيء شاهده هناك لم يشاهد منه في قصر الخلافة
ذلك التهار لكنه ما زال ماثياً وهو يسمع خبر المياد وصوت وقع الرشاش من صرخ

حتى اطل على قاعة ادهشه ما فيها مما لم ير في زمانه منه

وكان ياسر يسير بين يديه وهو يستلفت انتباهاه حيناً بعد آخر الى بعض النقوش
البدعية فاما اطلاقاً على تلك القاعة وقف سعيد من نفسه وقال « ماذا ارى ؟ »

قال « هل ادهشك ما رأيته من تمايل على هذا الحوض ؟ »

قال « نعم . اعوذ بالله من قوم مسلمين يقتلون تمايل . »

قال وهو يهمس في أذنه « ارأيت هذا الحوض في وسط هذه القاعة ؟ انه جاء
الى امير المؤمنين هدية من ملك القسطنطينية مع رئيس الاسقف وهو لا قيمة له بحاله
وفرط غراسته وقد كلف مالاً كثيراً وتعباً جزيلاً قبل وصوله الى هنا المكان عافية
ان ينكسر ما عليه من تمايل الانبياء »

فقال سعيد « ولكن هل يجوز في الاسلام اقتداء التمايل ؟ »

فقال ياسر « ذلك ما تقدمه بعضهم على امير المؤمنين ولكن الحوض جاءه هدية من
ملك عظيم وهو لا يرى ضرراً من اقتدائة او لعل الترف والانهاس في الحضارة سهلاً
عليه ذلك - فان منظر هذا الحوض مدهش .. ايها ؟ »

قال «نعم .. ولكنني أرى فوق الحوض تمايل أخرى هل انت ايضاً مع الحوض من القسطنطينية »

قال «أن التمايل الذهب التي راها فوق الحوض ليست من صنع بلاد الروم »

قال «وأين صنعت ؟ »

قال «صنعت في هذه المدينة وهي كأن راها جبارة وثانية »

قال سعيد «كاني أراها من صنع .. فإذا ؟ »

قال « أنها من صنع بالبر الغالي النفيس »

فذهب سعيد وشقق بذلك التظارع عما كان قدماً من أجله وقال «أرى هذه التمايل كثيرة وكانتها يمثل بعض أصناف الحيوان »

فامسك ياسر بيده حتى دار به من جهة أخرى للحوض بحيث يتبين الفائبل من وجهتها فإذا هي ١٢ تتملاً من الذهب الآخر مفرقة في أربعة مجاميع على جواب الحوض . مجموع منها يمثل اسدًا إلى جابه غزال إلى جابه تماسح . يقابلها من الجهة الأخرى مجموع آخر هو ثعبان وعقاب وفيه . وفي المجنبين مجموعان آخران هما عبارة عن حامة وشاهين وطاوس . ودجاجة وديك وحدأة ونسر . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس . ويخرج الماء من أفواهها ^(١) ويصب في الحوض . فوقف سعيد لحظة مهوناً ثم قال « وهذه التمايل مصنوعة في قرطبة ؟ »

قال « نعم أنها مصنوعة في دار الصناعة هنا »

قال « لم أكن أظن مثل هذا الإقان ميسوراً في قرطبة لأننا لا نعبد مثله في غير القسطنطينية أو رومية »

قال « إن في قرطبة من الصنائع الجليلة ما يضارع أحسن ما يصنع في تلك المدينتين ولو لا ضيق الوقت لذكرت لك شيئاً كثيراً منها . ولكنني أحب مولانا الناصر قد استبطاناً »

قال « أين هو الآن ؟ »

قال « هو في مجلس ينصل إليه من هذه الدار ويشرف عليها بحيث يتنحى الجلوس هناك بانتظار هذا الحوض ويسمعون خبر الماء فيه »

الفصل الأربعون

المجلس

فشي سعيد بجانب ياسر وعيناه في ذلك الحوض وما يطلق حوله من المصايف او الشموع
بالوانها المختلفة فتكتسر اشعتها في رشاش الماء المتساقط فبهر الناظر بجمالها . شغل ذلك المنظر
ذهن سعيد حيناً ثم عاد الى هواجسه وخصوصاً ما وصل الى باب المجلس والخطيبان ووقف عنده
بالحراب وعلى العتبة ستر عليه هذه الايات :

ليس الحسود على الموى يمساعد
من يخلق الرحمن احسن منظراً
من عاشقين على فراش واحد
متماقدين عليهما ازر الموى متوصدين بعصم او يساعد
يامن يلوم على الموى اهل الموى هل تستطيع صلاح قلب فاسد
فندذكر الله قرأ هذه الايات وهو في بغداد في صدر مجلس المؤمنون^(١) . وتقدم فوسعوا
لياسر فازاح الثارة ودعوا سعيداً للدخول

فاطل سعيد على مجلس مرتفع لاجدار له من جهة الحوض بجهث بقع نظر الجلوس هناك
على ذلك المنظر البديع . ورأى الناصر في صدر المجلس قاعداً الاربعاء على وسادة من الخز
وعلى رأسه عمامة وهي صنفية ينخفق بها في المساء وعليه جبة وهي خفيفة تشبه بني أمية
في الشام . واول شيء استلتف اقباء سعيد رائحة الطيب فقد كانت مالئة المكان ورأى بين
يدي الناصر عابدة جالسة مطرقة وبصرها ينبع خلسة الى ذلك الباب حيناً بعد آخر وهي
تتوقع بجيء حبيبها سعيد . وقد مدتا مائدة الشراب والفاكة ووقف بعض الجواري في
اجمل ما يكون من الوجوه والقامات كلهن فضيات وقد تنطفقن بالمناطق الحرير الملون وقد
طرزت عليها أبيات من الشعر هذا مثال منها يقرأ على احدى تلك المناطق :

زنارها في خصرها يطرب وريتها من طيبة اطيب
ووجهها احسن من حلتها ولوتها من لونها اعجب

وقد ارسلن اطراف المناطق من الخصور تتدلى فوق جلسيب تبرق الوانها الزاهية وعلى
ذيل بعضها هذان اليثنان قطريراً بالفضة

أغيب عنك بود لا ينغير نأي الحفل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل للقلب ليس الشغل للبدن
وعلى روؤسهن اكاليل من زهر مضفور وقد ارسلت شعورهن الى الظهور ووقفن

(١) الموثق

مثاًيات ينتظرن الامر لصب الشراب او تقديم الفاكهة . ومنتظر المجلس على الاجمال ي Bhar
النظر لما في ارضه من الطنافس المزركشة بآيات الشعر في نحو ما تقدم . وعَلَى جدراته من
الستائر المنشورة بآيات من الشعر هذا بعضها :

خبرتني كي اجاريكم بضيائكم لا تهجروني فاني لا اجازيك
قلبي محب لكم راض بفضلكم استرزق الله قلب لا يحيطكم
اصبحت عبداً لأدفأ اهل داركم وكنت فيما مضى مولى مواليك

وكان اسلامهم في دمشق يفضلون الوشي على سائر الانسجة فقل لهم الناصر بذلك في

فرش هذه الحجرة وفي باسمه الليلي

والظاهر انه قد امسى بنظر يربى الاشعار على الرياش والاثاث فقد كانت الطنافس

والستائر مزينة بآيات جميلة فضلاً عن البسة الجواري

حَلَّا اطْلَ سَعِيدَ عَلَى الْمَجْلِسِ وَقَفَ بِعِدَادِ وَنَظَرَ فِي جُوَانِبِ الْغَرْفَةِ بِخَفْفَةِ لَمَّا يَرِي مَكَانَهُ
جَلَّوْسَ الزَّهْرَاءِ إِذَا حَضَرَتْ فَنَذَكَرَ أَنَّهَا جَلَّسَ وَرَأَهَا السَّتَّارَ فَرَأَى إِلَيْهِ الْيَسَارَ سَرَّاً مِنَ الدِّيَاجِ
الثَّمَنِينِ يَقْطَعُ الْحَجَرَةَ فِي عَرْضِهِ وَعَلَيْهِ طَرَازُ النَّعْبِ الْمَزَدَانِ بِالْأَشْعَارِ عَلَى نَحْوِ مَا تَقْدِمُ . وَسِعَ
حَيْثِيًّا وَتَنَحَّمَ فِيمَانِ الزَّهْرَاءِ هَذَا كُتْبَلَه — وَفِي اثَادَه ذَلِكَ تَقْدِمَهُ يَاسِرُ فَأَخْبَرَ النَّاصِرَ بِقُدوْمِهِ
فَقَالَ النَّاصِرُ « يَدْخُلُ سَعِيدُ الْوَرَاقَ مَعْلُومًا جَارِ بِتَنَعِيْدَةَ »

فَدَخَلَ وَتَنَعَّمَ يَاسِرُ فَأَشَارَ الْخَلِيلِيَّةَ إِلَى سَعِيدَ أَنَّهُ جَلَّسَ فَبَادَرَتْ أَحَدُ الْجَوَارِيِّ إِلَى

وَسَادَةَ قَدْمَتِهِ لَهُ بِيَابِدَهْ عَابِدَهْ بِجَلْسِهِ فَقَالَ لَهُ النَّاصِرُ « لَمْ نَسْعَ شَيْئًا مِنْ عَابِدَهْ بِعِدَادِهِ »

قَالَ « أَنَّهَا جَارِيَةٌ مَطْبِعَةٌ مَذَاهِبُهُ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ » هَلْ يَلَهُ الْحَدِيثُ أَوَالْغَذَاءُ؟ »

قَالَ « أَنَّ الْحَدِيثَ يَلَهُ كَا هَلْ تَحْدِثُ شَيْئًا لَا يَعْرِفُهُ »

قَالَ « أَنَّهَا تَحْفَظُ الشِّعْرَ وَالْأَدْبَ وَالْأَخْبَارَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنْ

يَعْنِي الْمَوْضُوعَ الَّذِي يَنْتَهِيَهُ »

فَأَطْرَقَ النَّاصِرَ هَنْيَهَهُ ثُمَّ قَالَ « أَخْبَرْتَنِي أَنَّهَا مِنْ مَوْلَادَاتِ بَنْدَادَ؟ »

قَالَ « نَعَمْ »

قَالَ « أَنْ لَيْغَنْدَادَ نَوَادِرَ غَرِيبَهُ .. نَحْنُ نَحْبَنَ أَنْ نَسْعَمُ عَنِ اسْحَابِ الْبَغْدَادِيِّينَ وَانَّ

كَانُوا لَا يَجْبُونَ أَنْ يَسْمَعُوا عِدَادَهُ » وَضَحَّكَ

فَأَدْرَكَ سَعِيدَ تَعْرِيفَهُ وَقَالَ « طَبِيعًا مَمْ لَا يَجْبُونَ سَمَاعَ مَا يَسْوَهُمْ لَانَّ اخْيَارَ مَوْلَانَا أَمِيرَ

الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَلْعَنُ مِنْ سُلْطَانِهِ وَسُطْنَوَتِهِ وَمَا اتَاهُ مِنْ الْفَتْحِ وَالْتَّصْرِ كلَّ ذَلِكَ يَسْوَهُ أَهْلَ بَنْدَادَ ،

سَعَاهُمَا لَانَّهَا تَهْبِيجُ غَفَّرَهُمْ وَحَسَدُهُمْ وَمَمَّ الْآنَ فِي مَتَّهِي الْأَخْطَرَابِ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَبَّةُ الْخَلَافَةِ

منهم واستولى الاتراك على الدولة ووضعوا ايديهم على الحكومة واصبح الخليفة عندم اسماً بلا مسمى . . اين هم من امير المؤمنين صاحب السيادة جامع كل المسلمين والمتكل بالكافرين لم ير بالمسلمين ايام كيامه ولا رأى الاسلام عزماً مثل عزمه . . .

وكان الناصر يسمع اطراه سعيد وهو مسرور لما اكرث من الاطراء قطع حدبه قائلًا «نعم ولكن للبنادقين عصرًا لا مثيل له — عصر الرشيد والمؤمن . ولا يسعنا انكار ما لحدن من الفضل في نقل كتب العلم وفنن الان اغاثي ثار ما غرساه — وفي كاف بسماع اخبارها وكثيراً ما اقدم الى المحدثين ان يقضوا على حديثهما»

فقال سعيد «فامير المؤمنين اذًا في غنى عن سماع شيء من اخبار تلك الدولة . . . قال «بل انا احب ذلك ويجتبي منه ما كان يعقد من مجالس الادب والشعر وما كان دور من الابحاث الجليلة»

الفصل الحادي والاربعون

العباسيون والامويون

قصدت عابدة الكلام قائلة «ان مجالس الادب كانت تقد في البصرة والكوفة على الاكثر والكوفيين والبصربيين مذاشرات ومذاشرات كثيرة فيها اللطيف والمفيد» فاصحن الناصر غنة صوت عابدة ولم يكن سمع صوتها بعد فاستلقت ذلك اتياهه فوجه كلامه نحوها وقال «اذكرني يا عابدة مناقشة طار ذكرها في الافق وقد حضرها الرشيد نفسه»

قالت «اخلن مولاي يعني مسألة الزبور والخلة»

فضحك الناصر وقال «نعم اياها اعني»

قالت «انها من اغرب المحوادث وهي تظهر لأول وهلة مسألة لغوية او نحوية ولكن خلقاء ينداد كانوا يملطون السياسة في كل شيء حتى في التصو والحديث والتفسير» فأشجب الناصر حكمها الذي يدل على سمعة في العلم وثقة في النفس وقال «ماذا تعنين بالسياسة يا عابدة؟»

قالت «اعني انهم منذ قبضوا على ازمة الدولة لم يذخروا وسعاً في تاييدها ولو خالفوا به الشرع او العقل حتى العبر»

فاستغرب الناصر هذا الحكم واحب ان يطلع على حقيقته لانه يسانده في الدفاع عن خلافه وكان الى ذلك الحين بعدها مقلقة فقال «ماذا تمنين بذلك؟»

قالت «اعني انهم لما قاموا بطلوبن اخلاقة من اجدادكم في الشام تظاهروا بالنقوى والعمل بالكتاب والسنّة وطعنوا في خلفاء بي امية لأنهم طلبوا الملك المضود وزعموا انهم اخذوا الفتى في سبيل الحكم . فلما مذكروا ارتكبوا اضعاف ما ارتكبكم بعض اجدادكم من الفتى والقتل على التهمة . و كانوا يظهرون انهم يفعلون ذلك رغبة في العلم او الالدين . ولو تدبرت الحقيقة لرأيتم انما كانوا ينظرون من وراء ذلك الى مصالحهم — نصر ابو جعفر المنصور فقهاء العراق اصحاب الرأي والقياس على قبهاء المدينة اصحاب الحديث . ولماذا؟ هل فعل ذلك لانه يعتقد الحق في جانب ابي حنيفة رئيس اصحاب الرأي؟ لا أنتنه فعل ذلك الا نكایة في مالك رئيس اصحاب الحديث فيها لانه اتفى ببلوغ المنصور . ولو لم يخلمه او لو رأى في نصرته فائدة له لنصره»

وكان الناصر يسمع كلام عابدة بذلة وشوق لا سواه من الآراء الفلسفية التي لم يستمعها من احد قبلها وخصوصاً لأن الطعن في العباسين يوانق مياسمه وارتقت في عينيه فاراد ان يستزبدها فقال «بوراك فيك من فقيهة عاقلة . . . لكنني رأيك شددتني التكبير على اصحابنا العباسين وما ادرانا ان المنصور لم يكن يتصر ابداً بحقيقة لاعتقاده صحة رأيه»

قالت «دعنا من الفقه والحديث وانتفت الى ما كان من الرشيد وابنه في مسألة الزبور والخلة وهي من المسائل الغوية»

قال «هل ترين في هذه ايضاً وجهها مياسماً؟»

قالت «نعم يا مولاي . . . لأن العباسين كانوا يرغبون في نصرة اهل الكوفة لأنهم نصرهم لا قاما طلب اخلاقة فقد هم على اهل البصرة وقربهم اليهم فطبع الكوفيون بسابقة اهل البصرة وصاروا يجادلونهم في المسائل الغوية وفي الادب والشعر حتى قامت مسألة الزبور والخلة بين سبويه من اهل البصرة والكسائي من اهل الكوفة وكان الكسائي يعلم الامين بن الرشيد وكان الامين ينصره باعتبار ان انتصاره انتصار اهل الكوفة جميعاً

وهم انصار اخلاقاء

قطع الناصر كلامها قائلاً «صدقت صدقت ولو لا ذلك لم يخن الامين كل وسيلة لغير سبويه فإنه بعد ان ظهر لالاً ان الحق في جانبه أغلى ذلك البدوي على خططيته والحكيم الكسائي غرر سبويه من بغداد وقصد بلاد فارس . لاشك انهم ظلموا كما قلت

محبباً لانصارهم الكوفيين الله درك من حكمة»

الفصل الثاني والاربعون

الغناء

وكان سعيد في اثناء ذلك يوجه اتباوه الى ما وراء ذلك الستر لعله يسمع شيئاً يهمه فشعر بحركة فأدرك ان الزهراء لا بد اتها مللت سماع ذلك الحديث من فلسفة التاريخ وانها صارت شديدة الميل الى سماع الغناء فنظر الى عابدة وأرماً الى جيبيها يشير الى القانون الذي كانت تركب وتدق عليه والنفت الى الخليفة وقال «ان الحكمة لا تخلو من قم المرأة يا امير المؤمنين كما يخلو الغناء ..»

فصحك الناصر وأشار الى السيدة فصبو الاشربة من اباريق الفضة في اقداح التعب وقدموها للناصر ولسعيد وامر الجارية ان تشرب فاستاذته في اعفائها من الشرب فقال «اشرب يا عابدة .. ليس هذا مسكوناً وانا هو نبيذ التفاح اشربي» فدلت يدها وتناولت التفاح فرأيت عليه نقشاً يحيط به هو يantan الشعر هذا نصها: وما ليس العشق ثواباً من الموى ولا أخلقوا الا بقيمة ما ابلي ولا شربوا كأساً من الحب حلوة ولا مرة الا وشربهم فضلي فشربت وشرب سعيد فقال الناصر «هل تسمعيننا شيئاً من الغناء» قالت «كما شاء يا امير المؤمنين»

قال سعيد «هل يأمر امير المؤمنين ان تغني غناء اهل الاندلس ام غناء اهل العراق ام اهل المدينة؟»

قال «اما غناء اهل المدينة نسمعه وخذلنا من يحسنه ولكننا نحب سماع غناء اهل بغداد اما غناء اهل المدينة فهو الغناء القديم ولا يأس به»

فذكر سعيد انه يشير الى الزهراء وهي التي تحسن غناء اهل الاندلس وهو يعلم انها وراء ذلك الستر فأحب ان يسمع غناءها فقال «اذا استحسن مولانا ان يأمر بعض جواريه المغنيات بالغناء على طريقة اهل الاندلس وعايدة تغني على طريقة اهل بغداد كان ذلك مجاوبة جليلة»

قال الناصر «صدقت» وارماً الى احد الجواري الواقفات في خدمتهم فتقدمت نحوه فأشار اشارة فهمتها ففاقت الى وراء الستر ففهم سعيد انه امر الزهراء بالغناء وقال الناصر «منسجم غناء اندلسي على العود فلين عود عابدة»

قال سعيد « إنها تصرب على عود لا مثيل له ولا أغلنكم سمعتم به لأنه حديث العهد في الصناعة ومحترمه لا يزال حيا »

شخص الناصر يصره الى عابدة فلم يجد معها عوداً والثالث الى جانبيها وهم: ان يستفهم
سعيداً عمما يعنيه فرأى عابدة تند يدها الى جيبها ثم استخرجت منه اظفريطة واخذت تركب
عيدياتها حتى صارت آلة قد شدت اوتارها فقال الناصر « هذا عود؟ »

قالت « كلاً يا سيدى انه القانون »

فقال « اعلمك الله الذي ر Kirby الفارابي في حضرة سيف الدولة؟ »

قالت «نعم يا ميدى هي»

قال «سمعت أنها أدهشت الحضور فابكتهم ثم أضحكتهم .. فهل تعرفين الضرب
عليها ومن أين تعلمت؟ »

فاجاب سعيد عنها قائلًا « ادرك الرجل في مكان واخذت عنه مثال قانونه ومباديء صناعته وعلمت ذلك لعابدة »

فقال الناصر مستغرباً «انت عالمها الموسيقى ايضًا؟»

قال «نعم يا سيدى»

فقال «بورك فيك .. انك تصالح لكل شيء ..» والثالث الى عابدة وقال «اسمعينا، او تمهلي لتسمع صوتاً من غنا، اهل الاندلس ..» وصدق وأصفع الجميع فخرج من وراء الستر صوت العود بصناعة جيدة، وكان أكثر الناس اصفا، سعيد ثم سمعوا الثناء فطرد الناصر طر يا شديداً »

حتى إذا فرغ الثناء وراء الستار نظر الناصر إلى عابدة كأنه يستطلع رأيها في ما سمعته فقالت « انه صوت مطرب سمعت مثله من يحفظ غداة زرباب المفني .. »

قطع الناصر كلامها قائلاً « غناء زرياب؟ . صدقت ان هذا المغني هو الذي حمل هذه الصناعة الى الاندلس . وقد قال الذي نقل هذا الصوت اليانا انه من اصوات زرياب فاستمعينا ما عندك من غناء ينداد »

وكانت قد اخلت القانون فتناوله واعتدلت في مجلسها وجعلت تفسير عليه ضرباً
لم يسمع الناصر مثلاً وكان قد استغل الطرب وهاجه الشراب فجعل يحرك يديه ورجليه
ويزحف عن سريره فأغتنمت عابدة تلك الفرصة وغدت ضوتاً لابراهيم بن المهدى احسنت
توقيعه واعرباه فلم ينالك الناصر ان صالح من الطرب « اللہ درک من مطربہ معربہ . زید بنا
زادک اللہ جمالاً وصنعة »

لغتها صوتاً آخر على لحن آخر زاده طرباً . وأشار الى الجواري ان يسبقينه فدارت الاقراح وسعيد يظهر انه يتشرب ولا يتشرب وكذلك عابدة . فلما احس سعيد ان الشرب اخذ من الناصر اشار الى عابدة فاصلحت المودع على اصلاح الفارابي كما فعل في حضرة سيف الدولة فعملت فغلب على الناصر الفشك واغرب فيه وسعيد يراقب ما يبدو وراء ستارة فسمع همساً وضحكاً فادرك ان فشك الناصر وشدة طربه من غناه عابدة يهيجان حد الزهراء

الفصل الثالث والاربعون

النحوحة

وهم في ذلك سمعوا نحبحة من وراء الستر لم يفطن لها الا سعيد وراقب ما يبذو من الناصر يعلوها فرأى انتبه لنفسه بفتحة وامسک عن الفشك وقال لعابدة « لقد اطربتنا بارك الله فيك »

فادرك سعيد انه يريد فض الجلسة فأومأ الى عابدة فتحفظت للنهوض فلم يدعها الناصر للبقاء لكنه اشار الى قيمة الجواري الواقفات للخدمة ان تزيد عابدة حفاوة فشت بين يديها الى غرفتها

وتحفظ سعيد للنهوض والاستئذان فأومأ اليه الناصران يكث فشك . ونهض الناصر ودخل من باب يؤدي الى غرفة اخرى وأشار الى احدى الجواري فدخلت وراء الستر . فشعر سعيد انه بعث الى الزهراء لتختفي اليه . فابت و هو يعمل فكره في ما عسى ان يكون سبب تلك الدعوة ولم يبق في تلك القاعة سواه

وهو في ذلك رأى الستريتحرك واذا يجده خارج من ورائه فلما رأى سعيد فرح بمجيئه وتوقع ان يسمع منه شيئاً جديداً فسألها بالاشارة فتقديم اليه وهمس في اذنه « ان الفيرة كادت تقتلها »

فهم انه يعني الزهراء فقال « ماذَا فعلت؟ »

قال « لم تهلك ان تحتحت للناصر لتجره بما اظهره من الاعجاب والاحتفة » فشك سعيد وقال « لا بد انك ساعدت في ايقاد تلك الفيرة .. طبعاً .. واحبها ماذَا ترى؟ »

قال «أني أثرت غيرتها وجعلتها تفهم أن اتفان غناء عابدة سبقها عليها لدى الخليفة وأشرت عليها أن تقنن الغناء»

قال «على من؟»

قال وهو يتطاول لميس في أذن سعيد «ستطالب من الخليفة أن يكفلك في تعليمها غناء بغداد..»

بيان البشر في وجه سعيد وقال «وهل تظنه يقبل؟»

قال «إذا طلبت ذلك إليه لا يخالفها لانه طوع ارادتها. لم تر بلغ تأثير تلك المخجنة فيه وهو في آيان طريبه؟»

قال سعيد «لقد أحسنت يا جوهر بورك فيك. طالما توقعت منك المهارة والذكاء... أني اسمع فقلة مفتاح في باب.. واسمع وقع خطوات لمل الخليفة قادم.. امض»

قال «لا أظن الخليفة يعود إليك بنفسه ولكنك يبعث رسولًا يا يزيد.. هنا الرسول قادم.. استأذنك أني منصرف» قال ذلك وعاد إلى وراء ستارة

ولبث سعيد صامتاً يشغل نظره بما هنالك من الانوار والزخارف وإذا هو بيسار قد دخل فهش له ونهض لاستقباله فتوسم في وجهه خيراً فقال «خيراً إن شاء الله» فابتسم ياسر وقال «جئتكم برسالة من أمير المؤمنين... فهو يشي على علمك وقد أمر لك بجوازة سنية.. هذا أولاً.. وثانياً يطلب منك أن تذكر في هذا الفخر بضعة أيام لانه يحتاج إليك في أمر»

قال «ألم يقل لك ما هو ذلك الأمر؟»

قال «كلا»

فاطرق كاهه يفكر ثم قال «انا اقول لك»

قال «هل تعرف ما يحبوه في ذهن الخليفة؟»

قال «وما الفرق ياني وبينك أذن؟» وضحك ماجنة بواره في الضحك وقال «قد تعودنا منك معرفة الغريب.. قل ما الذي يربده منك؟»

قال «يريد أن أعلم جاريته الزهراء الغناء ما قولك؟»

فربت ياسر على كتف سعيد تودداً واعجازاً وقال «قد لاحظت ذلك منه ولم يقله لي..»

قال «انا اقول له»

قال « وهل يسوّدك ذلك ؟ »

قال سعيد « كلا .. ولكنني جئت من منزل الامير عبد الله على انت اعود اليه مع عابدة بعد يوم او يومين وكيف امكث هنا اياماً ٠٠٠ اخاف أن ٠٠٠
قطعلم ياسر كلامه قائلاً « مهما يكن من الخطوف ان قول ان امير المؤمنين لا يرد »
قال « نعم اعرف ذلك وانا باق كما امر ولكن هل عامت ان عابدة باقية معي ام هي
ناهية ؟ »

قال « لم يقل لي شيئاً من ذلك ولكنني استدل من قرائين الاحوال اتها باقية لاته
امر ان نعد طاغرفة خاصة ونقسم طاكل ما تحتاج اليه »

قال « لكنه لا بلت ان يأمر بالراجح لأن الزهراء ... »

فهم ياسر مراده فابتدره قائلاً « لا لا .. ان الزهراء اذا اظهرت الغيرة من عابدة
لص nauha في الغناء فهي لاتخاف ان تقدم عليها اتها جارية ادب ومتادمة وقد فهمت
ذلك من يوم بحثها .. وزد على ذلك ان الزهراء ذات دهاء وتعقل واغا غلت على الناصر
بتعقلها أكثر مما يحيط بها .. مالنا ولهذا امض الآن الى سجرة في هذا القصر اعدناها لك ربها
يبحث الناصر في طلبك »

قال « حسناً » ومشى مع ياسر حتى خرجا من ذلك القصر الى بناء يحيط به فادخله ياسر
إلى غرفة هناك يجاورها خصي امره ان يكون في خدمته وانصرف
دخل سعيد تلك الغرفة فوجد فيها كل ما يحتاج اليه لتبديل ثيابه فقد عذرته هنريه [اطلق
نفسه عذان الفكر فأخذ يتدبر ماستعده وما يتوقع ان يكون ثم بدل ثيابه وقام

الفصل الرابع والاربعون

التعليم

وفي صباح اليوم الثاني استيقظ وجلس ينتظر امر الخليفة فلا ابطاً عليه ليس ثيابه
وخرج ينشئ في الحديقة وامر الخصي الواقف خدمته اذا طلبته الخليفة فانه يجده في
الحديقة . وعين له المكان

وخرج حتى زل حديقة يجوار ذلك القصر فيها يركزة يتدفق الماء اليها من انباب
الهراص ، فوقف عندها وانخذ يتأمل حرکات الماء وافکاره تائهة في ما هو فيه فلاحظ منه

الثانية فرأى شيئاً خارجاً من جانب القصر من باب لم يعرفه فخول نظره إليه فرأه رجلاً في لباس الخصيان من طبقة الوحداء الذين يليرون المروع السابقة . لكنه رأه يمتاز عنهم ببنطقة حمراً مطرزة بالذهب تدل على تقدمه بين الأقران بالمنصب أو الخدمة . وتبين في وجهه شيئاً يعرفه ، فلدق فيه فإذا هو ساهر غلام الأمير عبد الله . ولحظ من حر كاته أنه يحاول الخروج خلسة لا يريد أن يختلط بخصيان القصر قال سعيد في نفسه « لا يخلوان يكون بعيه ساهر هذا لامر ما » وازنوى في ظل دفلة وجعل أنه يتأمل إزهارها ، فـ « ساهر مرور اللص وهو يحسب سعيداً لم ينشبه له . فلما تجاوز الدفلة أعاد سعيد النظر إليه فتحقق أنه ساهر يعنيه ، ولو لم يره يحاول الخفاء أمره لم يسيط علىظن به . فحفظ ذلك في ذاكرته وظل يتنشى في الحديقة نحو ذلك الباب لعله يكتشف شيئاً جديداً فرأى الخصمي الموكل بخدمته مسرعاً نحوه فعلم أن الخليفة يطلبنه فتجاهله وظل مائشياً فادركه الخمي وناداه فالثالث سعيد إليه وسأله عن غرضه

قال « إن أمير المؤمنين يبعث في طلبك »

قال « هل إليه » ومشى نحو الباب الذي خرج منه ساهر

فاعتربه الخصي قائلاً « من هذا يا سيدي » وأشار نحو الباب الآخر

قال سعيد « لكن هذا أقرب . أليس مولانا أمير المؤمنين في هذا القصر ؟ »

قال « بلى . ولكن المرور من هذا الباب محظوظ »

فاطاعه ومشى وهو يقول « ولماذا »

قال « لأنّه يُؤدي إلى مقام السيدة الزهراء »

حفظ ذلك في خاطره وسكت

وبعد قليل دخل قصر المؤنس إلى بيت الناصر فاستقبله ياسر رئيس الخصيان وقد بدأ بفتحه في وجهه وقال « أين كنت ؟ »

قال « كنت أتشى في الحديقة »

قال « يبعث أمير المؤمنين في طلبك »

قال « ها أنا ذا »

قال « انتظر ربيعاً استاذن لك »

توقف سعيد ودخل ياسر ثم عاد وأشار إليه أن يتقدم فشي حتى دخل غرفة في صدرها سرير عليه فراش من ريش النعام المكسو بالحرير الأحمر الزاهي وقد جلس فيه الناصر وهو لا يزال بلباس اللوم وعَلَّ رأسه ثبعة (ثاقبة) من الحرير الموشي بالذهب وقد تعلق بالسقف

مراوح من ريش النعام تحرك بتدبير خاص . ووقفت الوصائف بالابسة الفاخرة كما تقدم . فلما دخل سعيد اشار الخليفة الى الجحيم بالطروج واستدناه فشى حق وقف بين يديه فقال له « لا اظنك تجهل مزانتك عندنا بعد ان دعوناك للدخول علينا ونحن في الفراش .. فان رفع الكفالة تدل على الرفاه والصفاء .. تفضل اجلس »

« لغافن سعيد وظل واقفاً فامر ه ظانية ان يقترب منه ويجلس فشى حق صار بجانب السرير وجلس جازماً على وسادة هناك وهو مطرق تأديباً فقال له الناصر « يحسن بالعقلاء التأدب بين يدي الملوك ولكنني ذكرت لك مزانتك عندى بالامس لما آنسه من عبك وصدق لمجتك فندع التهوب »

قال « ان تازل امير المؤمنين مع مملوكة الى هذا الحد يحملني على زيادة الشعور بمحقاري ويزداد الملوى حفظه الله رغفة في عيني »

قال « ان مقام اهل العلم محفوظ عندنا .. انهم عيون الملك ونبراسه وقد رأيت انك من خيرة اصحاب المخلصين »

واشار بالانفاس وسكت فقال الناصر « لا نطلبنا نطلب اليك التبجيح الان فقد اجلينا ذلك الى فرحة اخرى ولكن جاريتنا الزهراء سمعت غناه تلميذتك عابدة فاحببت ان تقنن الغناه على يدك فهل تفعل ؟ »

فنهض سعيد وهو يتخل من التأدب وقال « ان العبد لا يغير ما يريده مولاه واني سعيد لان في شيئاً اقدر ان اخدم امير المؤمنين بذلك .. »

قطع الناصر كلامه قائلاً « انت سعيد على كل حال .. انك سعيد بعلك واديك .. ولا تظنني نسيت ما طلبته من كثيـان حقيقة منصبك واظهـار انك تعلم عابدة .. وفي هذا المساء يأتيك رسول الزهراء فنذهب الى غرفتها لتلقـينها بعض الحـان بغداد »

واشار بيده على رأسه مطیعاً

قال الناصر « انت تعلم منزلة الزهراء عندنا »

فكـر سعيد الغـاء رأسـه كـانه يقول « نـم اـعلم جـيداً »

قال الخلـيفة « فـاـنـدـلـاـ الخـاتـمـ جـيـةـ ماـ صـنـعـ اـبـراهـيمـ بـنـ الـمـهـدـيـ وـاـنـاـ شـجـبـ صـنـعـ اـبـدـادـ الخـلـفـاـ .. وـلـاـ يـأـسـ مـنـ تـدـلـيـمـاـ يـعـضـ اـصـوـاتـ اـسـحـقـ الـمـوـصـلـيـ »

قال « سـيـرـيـ اـمـيرـ المـؤـمـنـينـ ماـ يـسـرـهـ فـاـنـ عـبـدـهـ لـاـ يـحـتـاجـ لـاـ يـاضـاحـ »

قال له « وـتـدـ اـمـرـنـاـ لـاـكـ بـجـازـةـ هيـ دـوـنـ مـاـ تـسـتـحـقـهـ وـسـنـوـاـيـ لـاـكـ عـلـيـكـ مـاـ دـوـتـ عـلـيـكـ »

حسن غـلـنـاـ فـيـكـ »

فوقف سعيد وقد احس انه يتني في له ان ينصرف . فاستأذن وخرج فلقيه ياسر في الدهليز فأخبره بما امر له به الخلاعة من العطاء وقل «يظهر انك حظيت عند امير المؤمنين» قال «انا لا استحق هذه الحظاوى ولكن لكل اجل كتاب» فاكتفى ياسر بذلك ومشى مع سعيد الى باب غرفته وتركه خوفاً من الرقاد

الفصل الخامس والاربعون

ابن الزهراء

اما سعيد فدخل الغرفة فرأى اخذاً له الطعام فتناوله ثم جلس واستغرق في التفكير بما سيكون عند اجتماعه بالزهراء وهو يعلم انه سيحتمل بها وهي وراء الستار . وكلما تصور ذلك الاجتماع خفق قلبه - قضى بقية ذلك اليوم على اخر من الجزر بين الجلوس في الغرفة والتشهي في الحديقة وقد طال عليه الوقت فلما غربت الشمس عاد الى الغرفة وليث في انتظار الرسول

ولما دنا المساء ولم تأت الرسول شغل خاطره ثم رأى جوهرأً قدماً فرش له وهو يتوجع ارت بدعوه للذهاب الى الزهراء فرأه يشيئ نحوه ولا ينكح فابدره قائلاً «ما وراءك»

قال «ما ورأي شيء»

قال «وكيف ذلك؟ ألم تبعثك الزهراء في طاي؟»

قال وهو يهز كثبيه «كلا .. وقد كنت ادظر امرها بذلك»

فقال سعيد «هل عدلت عن قulum الغدا؟»

قال «لا .. ولكنني لا اعلم اين هي»

قال «كيف ذلك اليست في غرفتها؟»

قال «ليست هناك»

قال «لعلها عند الخليفة»

قال «كلا»

قال «ابن هي اذًا؟»

قال «لا ادرى بـها مبتدى وانما اعلم ان وصيفاً جاءها في اصيل هذا اليوم وبمعه امرأة

قال انها ماشطة تخرجت الزهراء معها ولم تعد بعد «

فاستغرب سعيد قوله وقال « أليس في القصر مواشط ؟ »

قال « في القصر مواشط كثيرات ولكن يظهر ان هذه الماشطة لها صناعة خاصة بـ

اصلاح الشعر »

قال « لم نقتنش عنها في القصر ؟ »

قال « فتشت عنها في كل مكان اعدها تقيم فيه فلم اجدتها »

فذهب سعيد واطرق لحظة ثم قال « الا تعرف ذلك الوحيف ؟ »

قال « اعرفه وقد كان في هذا الصباح عندها »

فانتبه سعيد وقال « العلءُ صاحب المنطقة الحراء ؟ »

قال « نعم هو هو بعينه . كيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفته .. وهو نفسه الذي اناها بالماشطة ؟ »

قال « نعم هو بعينه »

قال « هل رأيت الماشطة ؟ »

قال « لم ار وجهها .. لأنها مبرقعة »

ذئب سعيد في الامر ديسة وقال « الان وقتك يا جوهر »

قال « ليك يا سيدى »

قال « تبحث عن الزهراء في كل غرفة ودهليز حتى في السراديب وعلى السطوح ..

ابحث عنها الان وأنتي بالظير . لا بد من وجودها هنا »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج

ومكت سعيد وقد أخذته الدهشة وجعل يفكر في ما سمعه وهو لا يكاد يصدقه

لولا اعتقاده صدق ذلك القزم . وبعد قليل جاءه جوهر والبغنة بادية في وجهه وقال

« تعال يا سيدى »

فشي معه حتى اتي دهليزاً من دهليز القصر يؤدي الى باب يستطرق الى حديقة

خصوصية لا يدخلها احد الا يام الزهراء . فاما وصلا الباب اشار جوهر باصبعه الى

نور ضعيف يظهر من خلال الاغصان وقال « انظر »

فقط ررأى الزهراء والى جانبها شبح بلياس النساء وتفرض في وجهه فلذا هو

عبد الله بن الناصر فخفق قلبها وارتعدت ركيباته من شدة التأثر . ولو لا رباطة جأشه

ما تمالك عن ان يتب عليهما . ولكنها تحجد واعاد النظر فلم يوجه الزهراء ولكنها عرفها

من ثيابها على شهادة جوهر . أما عبد الله فرأى وجهه وتصت فسمعهما يتحادثان هماً وهم أن يدنو لسماع الحديث فسمع وقع خطوات في الدهاين خاف أن يؤخذ بالتلصص وبعود الذنب عليه . فتحول وجوهه معه نحو الدليل فرأى يسرأ قادماً يئثى قلما رأى سعيداً سلم عليه وسألة عما يريده فقال « أنا في انتظار السيدة الزهراء لعلمهها القناة حسب أمر الخليفة »

قال « اذهب إلى غرفتها ... لا تعرفها ؟ »

قال « هذا خادمتها يعرف الغرفة ولكنك يقول أنها ليست هناك »

قال « لعلها في الحمام »

قال جوهر « ليست في الحمام يا سيدي ولا في محل آخر أعرفه وقد جئت التفتيش عنها .. ورأيت في الحديقة نوراً فهل تظنها هناك ؟ »

قال « أين ؟ تعال » ومشى جوهر معه . أما سعيد فرجع إلى غرفته . فلما وصل إلى الباب رأها ياسر مع عبد الله فدهش وقال « هي هنا . ماذا تفعل ؟ »

قال جوهر « لا أعلم وأخاف إذا رأني ان تفتأمي .. أني ذاهب يا سيدي إلى غرفتها أنتظرها فيها »

قال « اذهب .. واحذر أن تذكر ذلك لا حد »

قال « سأكفره عن كل إنسان » ومضى

الفصل السادس والأربعون

الوشایة

أما ياسر فلم يتأن أن يضيع هذه الفرصة للانتقام من تلك التكبرة فاسرع إلى الناصر وكان قد عاد إلى غرفة في ذلك القصر تعود أن يجلس فيها المراجعة بعض ما يعرض عليه من الأعمال فدخل عليه بلا استثنان — و تلك كانت عادة رؤساء المقصيان مع الناصر . ووقف بحثث يعلم الناصر أنه يريد مخاطبته فشار إليه فدنا فقال « ما وراءك ؟ »

قال « قد أمر مولاي أمير المؤمنين سعيداً الوراق أن يعلم الزهراء الحانة جديدة .. »

قطع الناصر كلامه قائلاً « لم يعلمها »

قال « انه لا يزال في انتظارها »

فاستاء الناصر من تعرض ياسر وتسريعه وهو يعلم ان في نفس شبابها فقل
« لاتثبت ان تأنيه .. وما الذي يدعو الى هذه العجلة بذلك ؟ »

قال « تعجلت في نقل الخبر الى مولاي لأن احد خدمتها اخبرني أنها غير موجودة
في القصر ولا هي عند المعلم »

فبعث الناصر واقطب حاجبيه وقال « اين هي اذا ؟ لعلها في الحمام او في الحجلة »
قال « ليست في القصر كله يا سيدى »

فوقف الناصر وقد غضب من ياسر للاقائه الثالث في ذهنه ومشي وهو يقول « ابن
هي ؟ لا بد ان تكون في غرفتها او . . . » وسكت ومشي يتبع ياسراً والخدم تخبيء من
طريقها فقاده ياسر الى مكان يشرف منه على تلك الحديقة . فرأى الزهراء واقفة وبجانبها
شبح لم يعرفه حتى نبهه ياسر الى ساحتها فعرف انه ابنته عبد الله فهاجر الدم في عروقه
واوشك ان يصرخ فيدر لو لم يمسك نفسه خوف الفضيحة وأكبر ان يظهر شكل امام
ياسر فتجلي وقال « يظهر أنها في شاغل مع ولدنا عبد الله حفظه الله ولا بد من سبب
فيه خيرا لنا .. ولكن كان يبني لها ان تلقاه في غرفة من غرف القصر »

وكان عبد الله قد ودعها وهرول مسرعاً في الحديقة وعادت هي الى القصر ظاهرة
المخلبة ان الامر لا اهمية له وصرف ياسراً وذهب هو الى غرفته وقام به يتقد غيرة
وحقداً وحدثه نفسه من اراداً ان يدعو ازهراً اليه في تلك الساعة فيتهاها ويوبيها
ويستطلع خبرها لكنه لم يشاً ان يكن ياسراً من الشهادة بها — فلاما صرفاه واوسمه ان يكتم
ذلك واخذ يفك في ما رأى فعظام عليه ولم يستطع صبراً عن مهانتها في الحال فبعث وصيغة
 تستقصيها . فعادت الوصيحة وقالت « أنها في الفراش لا تستطيع التهوض »

وقد تعود الناصر ان يحمل هذا الدلال منها فلا يغضبها — او هي عادة المحبين في مثل
هذا الحال انما يغلب منهم الساق الى الدلال وقد يكون في نفس الحب عتب على حبيبته
فإذا رأى منه غصباً او تجنياً شغل براضاها عن عتابه — فصبر الناصر نفسه وذهب الى
وهو يكظم غيظه حتى اذا دخل غرفتها تخفي كل من كان هناك من الحمام او الوسائل
وطلت هي وحدها

وكانت حالاً وصلت غرفتها قد تزعت فيها وتردت بثوب تعودت لبسه في ملاقاة
الناصر بزيدها جالاً وروتفاً . وكان جنباً جنباً يأخذ بالعقل — يكفي دليلاً على ذلك
استيلاؤها على قلب الناصر حتى شغلته عن كل من في قصوره من السراري والجواري

واصبح لا يصدر الاعن رأيها او هو لا يرث لها طلباً وقد بنى قصور الزهراء رغبة في
مرضاتها واحياء لاسمها كما عامت

الفصل السابع والأربعون

الزهراء

كانت الزهراء اذا جالستها فاؤل ما يخاطبها عيناها ثم يستولي عليك عقلها
وظرفها . فلا تلك دفعاً لما ترميك به من السهام الناقذة تخترق الاشتاء . وكان في عينيها
نور لا يعبر عنه بغير السحر وطاقة كارمحة مع بعدها عن الخلاعة والتبرج . وكانت
فصيحة اللهجة ذكية الفؤاد سديدة الرأي مع تعقل ورزانة يهيب جليسها من حديثها
ويشعر بيقوع حجتها ومحنة برها

وكان الناصر يأنس بجلسها ويعجب بكل شيء تأتيه . فيرتاح الى رؤيتها
وإطرب من حديثها او غنايتها . اذا جالسها شغل بها عن كل شاغل – لكنه كان بالحظ
فيها في بعض الاحيان اتفقاً ما لم يكن يعرف سببه . وقد تكون في مجلس طرب والخليفة
الى جانبها يطرد بها ويدلالها وهي في ابان فرحتها فتتغير سختها بفترة ويتولها الا تقاض
رغم ماتحاول من اخفائه عن الجلوس . وكثيراً ما سأله الناصر عن سبب ذلك التغيير
وهي تذكر او تتحلل له شيئاً لا يقتضي به الناصر ولكنها يجازيها

فلما شاهد ما انته في تلك الليلة اخذ يراجع تاريخ معاملته هذه المرأة لعله يرى
موجباً لهذا التصرف فلم يجد شيئاً يوجهه . نظر له ما كان يلاحظه فيها من الاتقاض فقال
في نفسه « لعل لهذا علاقة بذلك » ثم عزم على ملاقبتها فبعث اليها كما تقدم فادركت
لباهتها ان الخليفة لم يبعث اليها الا وفي نفسه شيء لا من العقب لاتهـا لحظـت في القصر
حركة دلتـها على ان الخلـيفة مـشي نحو الحـديـقة . فـمـرـدـ الذـهـابـ اليـهـ لـعـامـهاـ انهـ سـيـأـتهاـ
وـاخـنتـ القـاعـدةـ التيـ اـشـرـتـ اليـهاـ وـهيـ مـصادـمةـ المـتـابـ بالـفـضـبـ اوـ الدـلـالـ . وـجـمـلـتـ منـ

اسبابـ مـرـضاـتهـ ليسـ ذلكـ الرـداءـ الذيـ تـعودـتـ انـ تـابـسـهـ وـالـخـلـيـفةـ طـوعـ اـرـادـتهاـ
لبـسـ ذلكـ الثـوبـ وـهـوـ بـلـونـ السـمـاءـ وـعـلـيـهـ كـطـرـزـ مـنـ الفـضـةـ باـشـكـالـ النـجـومـ وـيـنـهاـ
الـقـمـرـ وـقـدـ طـرـزـ عـلـىـ حـاشـيـةـ الثـوبـ مـنـ الـاسـفـلـ هـنـانـ الـيـتـانـ

وـانـيـ لـاهـوـاـ مـسـيـنـاـ وـمـسـنـاـ وـاـنـيـ عـلـىـ قـلـبيـ لـهـ بـالـذـيـ يـقـنـيـ

فهي متى روح الرضى لا يهالي وحني متى أيام سخطك لا تغنى
وقد تمنقفت بمنطقة من اغزر بمحقق التهب وقد شدت من الامام بعروة من التعب
مرصعة باللناس . وكان فرمش تلك الغرفة يأخذ بالعقل ما فيه من النقوش والاشعار على
الابطسة والستائر والجدران . وكان مريها من الابنوس منصوباً في احد جوانب تلك
الغرفة الواسعة وعليه نقش منزل بالماعج في جوانبه هذه الآيات :

ومجدولة اما بحال وشاحها فضمن واما ردها فكتيب
لما القبر الساري شقيق وانها تطلع اجياناً له فيليب
اقول لها والليل مرخ سدوله عليك العيش الخيس بطيب
فقالت نعم ان لم يكن لك غيرنا ببغداد من اهل القصور حبيب

وكان كلة مريها (الناموسية) من الحرير اما الجبوينة الالون وعليها هذان البستان :

من قصر الليل اذا زرتني ابكي وتبكين من الطول
عدو عينيك وشانهما اصبح مشغولاً بسغول

ناميكي بما على الطنانس والوسائد من الاشعار المطرزة بما يدهش البصر . غير ما على
الحللة (التوالت) من النقوش الجبلية وكانت مجلبتها مصفرة بالذهب وقد دارت زلت عليها
آيات نظريراً جيلاً وهي :

دعيني أمت والأشعل لم يتشعبرا ولا تبعدي انديك بالام والابر
سوق الله ليلاً خدنا بمد هجمة وادنى فواداً من فواد معدبر
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة من الراح فيها بيتنا لم تسرب
وكان في تلك الحللة حق من الذهب في بخور امرت الزهراء باحرار شيء فيو
فتصاعدت رائحته واختلطت بروائح الاطياب
وحللا على الزهراء ان الخليفة قادم اليها امرت الخدم بایقاد الشموع وتهيات لاستقباله
 بذلك التوب الجليل كأنها لم تفعل شيئاً بوجب عتاباً أو مواعدة

الفصل الثامن والاربعون

بح الخليفة غرفه وهو يغالب غضبه ويكلم غشه فلما اقبل على غرفة الزهراء
كانت قد خرجت لاستقباله وهي تحير ذيل ثوبها تيهأ ثم وقفت تنتظر ، ايديوه فرأته

ظل مائياً لا يلتفت اليها فاحببت ان تبارئه بالمسالمة فلهمت بيده واكتبت عليها كأنها تزيد
ثقيلاً فاجتنبها من بين يديها وظل مائياً اشاره الى غضبه عليها . فلست في اثره المولى
وهي مطرقة بلا تذلل أو خوف واظهرت العصب لهذا الجفاء . أما هو فما زال مائياً حتى
تصدر القاعة بجلس على وسادة وقد اقطب حاجبيه ولم يدع الزهراء للجلوس نظرات واقفة . ثم
رفع بصره اليها فرأها تنظر اليه نظر العاتب وعيدهما تشكيان يا يهز عنده المدان . فصبر لها
قول شيئاً في سلطت كفها وقدمنتها له فقرأ عليها شيئاً منقوشاً بالحناء وهو :

فديك قد جيات على هواكما قطبي ما ينزعني مساكما
فلا يقع نظره عليه وجد للكلام سيلأ خول وجهه عن تلك الكتب وقال « قد كان
ذلك من عهد بعيد » وهر رأسه هزة الغضب
قالت « هل بأذن أمير المؤمنين بالجلوس »
فأشار اليها ان « اجلسي »

فتعذر بين يديه وقالت « مالي ارى مولاي قد ذكر على جاري »
قال « لم اتغير انا يا زهراء »
قالت « ولا انا ياصدي .. كيف يختظر بالي التغير وانا في نسمة لم يحمل بها احد قبلي ؟ »
قال « لا اراك سعيدة في هذه القصور »
فابتسمت وقالت « كيف لا اكون سعيدة وانا مشحونة برضى امير المؤمنين رافع لواء
الاسلام والمسلمين .. »

قال « لاتكذبي .. كم من مرة رأيت اسباب الشعاشر في محياك وسائلك عن علة ذلك
فاتكري ؟ افلتني عرفت العلة الان » قال ذلك بنغمة الظاهر واسان حاله بقول « كشفت
سرك .. »

فما اشار الى انتقامه الماضي اجفلت واخذت الاقباض باليها وهي تبشم وقالت « لا يخلو
الانسان من اسباب قهرية حتى لا يكون اهل الارض مثل اهل السماء — فلولا هذا
الاقباض القليل الذي يتولاني في بعض الاحيان لكنت احسنت في النعم »
فأعجبه تخلصها بهذا الاطراء ولكن لم يقتنع فقال « نعم ولكن احب ان اعرف سبب
ذلك الاقباض — ما هو سبب انتقامتك التجاعي احياناً وانت جالسة الى ونحن في
طرب وغذاء ؟ »

فنهدت رغم ارادتها وقالت « يندر ان يحدث ذلك ولا اذكر سببه »
قال « انا اعلم سببه »

وقالت « طبعاً » أمير المؤمنين أعلم ٠

قال «لم أكن أعلم بذلك قبل اليوم» ولنخخ

فادرکت انه لا پلیث ان یذکر ماشاده منها فقات « وکیف عرفه ؟ »

قال « عرفته بالصدفة ... هل حفظت درسك في الامان اليوم؟ »

قال «كلا يا سيدى»

قال « ولماذا؟

قالت «لاني كنت في شأنها».

قال «ما الذي يشترك عن ذلك .. وانت الامرأة الذاهية في هذه التصور كلها ..
وانت صاحبة السيادة على ما فيها من الجواري والغنان؟ ..»

قالت «أَلَعْلَ كثرة الجواري وسعة القصور تُنْقِي الْإِنْسَانَ عَنِ الْأَشْتَهَالِ؟ هَذَا امْرِي
الْمُؤْمِنُونَ يَدْهُ فَوْقَ كُلِّ يَدٍ وَمَعْ ذَلِكَ فَبُو يَرِى مَا يَشْغَلُهُ أَحْيَا نَاهِي»

فتباذر الى ذهنها انها تؤبه على تعليمه بهابدة وتشير الى ما استخدمنه من الطرب في تلك الليلة فقال «افلذك خاصيتي على خطواتي وتعدين علي اتفامي .. ها انك عرفت ما شفاني

احياناً .. قولي ما الذي يشغلك .. قولي ما الذي شغلك عن الفرس الالبة » قال ذلك بصوت فيه شيء من التهديد وحدق يصره فيها

فلم تثبب من تهدى به نظارات رايطة الجاس وقالت « ان ما شئنا عن الدرس هو
أمم من الدرس في نظري »

فالت « قد تعودت الصراحة في القول فلا أغيرها »

قال «نادأ أصدقيني الان»

قالت «بِإِذْنِهِ؟

قال «مع من كثت مخالفة في هذا الماء؟»

قالت « مم الامير عبد الله بن امير المؤمنين »

٦٥

قالت « لس لا اقوله »

قال « أو تكتسبن ذلك عنة؟ »

قالت «نعم بالفعل، أكثروا»

وَلَا كُنْ خَلِقَ إِذَا فَعَلَ

الفصل الخمسون

المواجس

ثم امرت احدى وصايتها ان تهوي لها الفراش وجاءت وصيحة أخرى اتساعدها في تبديل ثيابها وهي مستفرقة في الأفكار. فلما فرغت من تبديل الثياب امرت باطفاء الانوار الا ضوءاً ضعيفاً . وارخت السكّلة (الناموسية) على سريرها واستيقظت تلقن الرقاد فلا تجدنه

وما غمضت عيناه حتى ترأكت عليها المواجه واحتضنت فكر في حاطها وما يظهر من سعادتها التي يمحضها عليها الناس وما يمتص تلك السعادة من أسباب الشقاء . فعادت بذاكرتها الى صباها منذ حلها النخاسون من جبال الصقالبة وهي طفلاً ومعها اخوها . ولما تذكرت اخاهما شهدت وقلبت على جنبها اليمين تزيد ان تنسى تلك الذكري فلم تزدّها هذه الرغبة الا تذكرها . فتصورت كيف حلت مع أخيها الى ايطاليا وعليهما اطهار بالية لا تقيها البرد — ولكن جاهما كان يستلفت الانثار فوّقعت الى احد نجاح الرقيق من اليهود وكان عارفاً بمخارج التجارة فعلم ان مثل هذه الجارية لا يدفع ثمنها إلا المسلمين في صقلية . وكانت جزيرة صقلية يومئذ في حوزة المسلمين تحت سيطرة دولة العبيديين في المغرب . وكان امراؤها يتقدرون الى خلقه تلك الدولة بامتثال هذه المهدىا . فاراد ان يبتاع الزهراء ليرسلها هدية قاتلة وتوسّط الى الناجر ان لا يبيعها الا مع أخيها لأنها كانت شديدة التعلق به ولم يكن لها تعزية في ذلك الاسر والفقر الا ان اخاهما معها . فاطاعها الناجر واشترط على امير صقلية ان يشتري الاثنين معاً فرضي وابتاعهما لأن جمال الزهراء ببره واعيه ما آنه من لطفها وذكائها . وحدثه نفسه ان يستقيها له لكنه كان في حاجة الى مهمة من الخليفة العبيدي صاحب افريقيا وهو يومئذ المهدى فاقرئ على ان يرسلها اليه ويستقي اخاهما عنده بريمه في داره ويدرسه على الجندية على جاري عادتهم في استخدام المالك . فابت الزهراء عليه ذلك وقدمت اليه ان يرسل اخاهما معها فيكون قلم يطاوعه قلبه على رد طلبها بعد ما آنه من لطفها على أخيها

كانت الزهراء وهي نائمة على جنبها شذى صبوتها على تلك الجزيرة وكيف استقررت ما شاهدته هناك من ظواهر المدنية عالم تكن وقمع عيناهما على شيء منه

من قبل لاتها نشأت بين الجبال والأودية ترعى الماشية أو تذهب لل الاحتطاب . ومع ذلك فقد كانت سعيدة هناك لاتها لم تكن تعرف ما وراء تلك السداقة البدوية من تهم المدن . واسعد الاوقات عندها عند ما ترجع في المساء مع اخيها وهما يتساندان في نقل حمل من الفش أو العيدان او يسوقان بعض الماعز وابواهها ينتظرا انهما في كوخ حقير فيتعلون تلك العيدان ويحومون حولها للإستدقاء . وكان بذلك طا تذكرة ذلك الدفء مع الدخان المتتصاعد حتى يكاد يعني الإيصال أكثر مما يلذ طا الفرق في ذلك الفراش اللذين مع ما يفتحاه من الكلل المطرزة والستائر المؤشة وما تضوئ في مساء تلك الفرقة من الأطباب

الفصل الحادي والخمسون

وكانت تلك الوصيفة اخسن وصيافتها بها وقد فتحت لها قلبها والختنمتا أمّا
واطلعتها على بعض سرّها . ولم تكز الزهراء تجلس على الفراش حتى نهضت الوصيفة
واقفة تتوقع امرّها بما تريده فنادتها الزهراء قائلة « الا تزالين جالسة يا خالة ؟ »
فقالت « كيف انما يا سيدتي وانا اراك تستقلين على فراشك .. هل تحتاجين الى
خاصمعي ؟ »

قالت «كلا» وفي غنة صوتها دليل على شيء «تكفه
فقالت «يظهر لي انك تحتاجين الى شيء»

فنهدت الزهراء وقالت « نعم .. ولكن .. »
فقد نهضت الوصيفة حتى وقفت بجانب السرير وقالت « هل أرفع هذه الكلمة
(الناموسية) »

قالت « أفعل .. أي ارأي لا استطيع الرقاد »
قالت « يظهر أن حديثك مع أمير المؤمنين أفلقك .. لا بأس عليك .. لا يليث
ان يرضى صاغراً » قالت ذلك بصوت منخفض كأنها تخافز ان يسمعها احد
فقالت الزهراء « اعما ذلك جيداً .. ولكن رضاه لا يخفى شيئاً من قاتي .. »
قالت « ما الذي يفلقك وانت سيدة هذه القصور وساكنتها باربة الجمال والذكرة
لا يرددك امر - حتى امير المؤمنين صاحب السعادتين يتفى رضاك »
فنهدت وتشاغلت بجمع شعرها عن وجهها وارسلته الى الوراء ثم قالت « انظفين
السعادة ياخلاة في ما ترينه من الرياش والآثار او بما يحده في من الخضم ؟ أي تمسة ..
أي شقية .. » وغضت برؤسها

قالت « ماذا حدث يا سيدتي ؟ »

قالت « لم يحدث شيء ولكن هنا النور الضعيف اذكرني شيئاً كتبت
احاول نسيانها .. »

قالت « هل اثير الشموع ؟ »

قالت « لا .. »

قالت « ماذا افعل .. ماذا تريدين ان افعل لراحتك ؟ »

قالت « ان الذي يرمي لا تقدرين عليه »

قطرقت الوصيفة هنئية وكانتها تذكرت سبب ذلك القلق وقالت « اذنك عادت الى
الحديث القديم .. ان ذلك التذكرة ياسيدتي لا فائدة منه .. ان اخاك لا سبيل اليه وقد
آن لك ان تنسيه »

فدت الزهراء يدها الى فم الوصيفة كأنها تحاول ان تسكنها وقالت « لا تقولي
ذلك .. كيف انا اداء ؟ وانا لا ازداد الا تذكرة .. اي اذذكر صباه يوم حلت من
صقلية مع اخي كما اخبرتك مرة .. اذذكر الآن وجهه الصبور وقد اخذ بيدي
ووقف الى جانبي على ظهر السفينة وهي تقلع من مياه صقلية .. يالينا عينا في تلك
الجزرية ولم تنقل منها .. يالينا غرقنا معاً في تلك المياه .. »

قالت « ولكن انت لا تكـان سـيـاـيـاـ في وـصـوـلـكـ الىـ هـذـهـ النـعـمـةـ التيـ يـجـدـكـ عـلـيـهاـ »

اقرأنك بل يمحسك عليها نساء العالمين »

قالت « هنا صحح ولتكن يتصفني وجود أخي ليقنع بهذه السعادة هي . . آه من يتبيني عن مكانه . . هل هو حي أم ذهب طعاماً للإله؟ » ومسحت عينيها بطرف كها

قالت « لا يعلم ذلك إلا الله . . ولو كان حياً لعلم بمقامك وجاء إليك »

قالت « كيف يعلم وهو لا يعرف اسمي هنا . . هو لا يعرف اسمي الزهراء وإنما

يعلم أني اسمى « حسناء » فلو كنت معروفة بهذا الاسم لبلغ إليه خبرني . . . »

فقالت « صحيح . . . وإن افترقنا يا سيدتي ؟ هل تخبريني لعلني استطيع امرأ

يتفعلك . . . هل تكشفيني ؟ »

فقالت الزهراء « فارقه في عرض البحر اختطفني القرصان ونحن على تلك

السفينة ولا أعلم ماذا فعلوا بأخي . . . »

قالت « لم تتألّي عنه »

قالت « من أسائل ؟ وقد ثفت من الناس لا أعرفهم إلى الناس لا أعرفهم وكلهم

لصوص . . اختطفني اللصوص من بين ذراعي والدي وباعوني إلى تجارة من صقلية

مكثت عندهم مدة عاصي فيها الإنسان العربي ثم باعوني لأمير صقلية . . وهذا أمير رجاله

خملونوني على سفينة قالوا لهم ذاهبون إلى ملك عظيم في إفريقيا . . فرضيت لأن أخي

كان مي قام تخبر السفينة بنا إلا بضعة أيام حتى سطا علينا الصوص البحر في ليلة ليلاء وهم

كثيرون في هذا البحر يسطون على السفن ينهيرون ما بها ويسمونهم القرصان . . وقد

كان في إمكانني أن أبقى هناك ولكن . . . »

فتعجبت الوصيفه من قوله وقالت « ولماذا لم تتبقي ؟ »

الفصل الثاني والخمسون

فغضت بريتها وسكتت وهي شلاهي بسح دمعتين أخذرتا على خديها وقالت « لم

أبق لاني كنت أطاب الجهة من رجل هناك يزعم أنه رئيس تلك السفينة وما برح منذ

اقلعنا من صقلية وهو يقرب إلى أنا أشعر بسفوره منه لا أدرى سببه وهو يدنسه مني

ويعدني وينهني وإظهار المعطافه نحو أخي وبالاطفاله فاظهرت لأخي فوراً من ذلك

الرجل وتواعدنا انتا اذا وصلنا الى بر افريقيه شكوناه الى ملوكه . وكانه ادرك غرضنا بقوله يضيق علينا . فلما جاءنا القرصان خطرلي من شدة كرهي لذلك الرئيس ان انتقالنا الى سفينه القرصان ينجينا منه . ونحن في كل حال غنيمه لقوى فلم ندافع كثيراً ولم تكن نجاتنا في ايدينا . فما شعرت الا واعلى سفينه القرصان وقد اقلعت بنا و كنت احسهم خطفوا اخي معي فلم اجد له فبكيت وصرخت وما من سبعين فأخذت اشعر بالتعاسه من ذلك الحين . وحلفي القرصان الي شاطيء الاندلس فباعوني الى اصوات آخرين حتى وقعت الى رجل حماني الى قرطبة فلما رأي ياسر رئيس الخصيان اشتراكي لسيده امير المؤمنين . فشققت في بايه الرأي بصاصبي ثم بالانتقال الى هذه النعمة وما بذلت ان عدت الى امر اخي وبكاد التدم يأكلني لاني احسبني كنت سيباً في «هذا الفراق ..» ولما بالغت الى هنا لم تهلك عن البكاء وهي لا تجسر ان تخبر به لثلا يظن من يسمعها اتها تبكي خوفاً من غضب الخليفة

و كانت الوصيفه تسمع كلامها وتعجب لشدة تعلاقها بأخيها لاتها وكانت هي في مكانها وصارت بهذه المنزلة من الجاه والنعم ثم تعدد ذكر احداً من أهلها - ولكن الناس يتفاوتون باحساسهم وشعائرهم ففيهم الحب الذي اذا احب تعيش وارتسم حبيبه في كل جارحة من جوارحه ولا يجد له عنه صبراً ولا تغيره طوارق الحدثان ومن الناس من يخلق مطبوعاً على الالفة اذا تعود شيئاً شق عليه فراقه ولو كان مكروهاً والى ذلك اشار المتنبي بقوله عن نفسه

خاقت الوفاً لو رجمت الى الصبا
لفارقتك شيبى موجع القلب باكيا
ويغلب في من يحب كثيراً ان يكره كثيراً فيكون حبه كفناً وينفعه تلقاً
وفيهم من لا يعرف من الحب الا اسهه واما يكون الحب في نظره قضاً امسحة
او طمعاً في غرض فاذَا تجرد عن ذلك لم يبق له اثر

و كانت الزهراء قوية عاطفة الحب مع تعلق وصلق مودة وقوية عاطفة البغض . وكانت قد تعشق اخاه كارايت وتتجدد الحياة مررة بدونه وهما في اشقي الاحوال وقد ابغضت رئيس تلك السفينه حتى لم تعد تستطيع ان تصوره فلما اشارت الى تلك النعمة صارت تحب ان يكون اخوها معها ليتاطرها مسراناها وهي مع ذلك لانعرف ، صبره .. حي هؤام ميت ؟ لا تعلم اما الوصيفه فلما رأت يأس الزهراء أرادت ان تشغلها عن ذلك الحديث بسواء ولم يكن يشغلها شيء عنه فقالت « احمدي الله انك نجوت من شخص تكرهته .. و .. »

فابتدرتها قائلة « نعم نجبوت .. ولابنني نجبوت .. » وكفت عن الكلام كأنها نلت على ما فرط منها فساعدتها الوصيفة على تغيير الموضوع فقالت « ان تفكيرك يا سيدتي باخليك لا فائدة منه وقامي بمحنتي انك ستاتقين به ... الم تأسلي المتجمدين عنه ؟ » فقطعت الزهراء كلامها قائلة « اني لا اصدق المتجمدين ولا اثق اذا سألهم ان لا يلقووا الخبر الى الناصر . ولا اريد ان يعرف اني مشتغلة عنه باحد لاته لم يستغلي عن بيواي .. »

فقالت « احسنت » واقتربت من اذنها وقالت همساً « ولكنني علمت ان الرجل الذي امره مولانا الناصر ان يعاملك الغناء بارع في التجيم لا مشيل له فيه » قالت « تعنين سعيداً الوراق ؟ هل يعرف التجيم ؟ »

قالت « انا على ثقة من ذلك وعلمت ان مولانا يقول عاليه سراً في استطلاع الغيب قوله فيه ثقة كبيرة فلذا جاء تعليلك الغناء اسئلته لعله يفيضك ولا خسارة من ذلك » قالت « ولكن سؤاله في هذا الشأن يقتضي ... لا يأس سارى » واحست من تلك الساعة براحة اذهبت قلقها فاظهرت اثنا تميل الى الرقاد فساعدتها الوصيفة بارسال الكلمة ونامت وهي تعمل فكرتها في ما تعلم

اما سعيد فذهب تلك الليلة الى غرفه ينتظر ان يأتيه جوهر بما دار بين الناصر والزهراء ولم يفت جوهر شيء مما دار بينهما بل جاء سعيداً وقص عليه ما سمعه . فبات تلك الليلة وهو يتوقع ان يبعث الخليفة بطلبه في الغد

الفصل الثالث والخمسون

التجيم

وفي الصباح جاء ياسر يدعوه الى الناصر فهض ومعه كتاب التجيم وياسر يحرره على الایقاع بالزهراء . فمضى حتى دخل على الخليفة وهو لا يزال في فراشه فدعاه الى الجلوس بجلس وهو يتتجاهل فقال له الناصر « هل علمتَ جاريتنا الزهراء شيئاً ؟ » قال « كلام يا مولاي لاني لم اجد لها في غرفتها بالامس »

فقال « الم يدلك تتجهمك على سبب غيابها ؟ »

قال « لم ابحث عن سبب ذلك ولو امررتني لفمات »

قال « أفعل »

فاستخرج الكتاب وأخذ يقلب فيه ويتأمل بعض أسطرها كانه يحسب ويستخرج
والناصر ينتظر ما يقوله فلما ابطن في الكلام قال له « ماذَا وجدت ؟ »
قال « يأمر مولاي ببخاره »

فصفق وامر له بما اراد سفيه اليه ببخاره من ذهب فيها جرة فاستخرج من
جيده قطعة من البخور ووضعها في البخاره وجعل يتفرس في الدخان المتصاعد عنها
ثم ترك الكتاب وجعل يده على حاجبه كانه يستغل بها من الشمس وهو ينظر الى الدخان
ويقول « ماذَا ارى ؟ اليه هذا الامير عبد الله ؟ »

فلما سمع الناصر قوله تيقن اقتداره على استطلاع الغيب وظل ساكتاً ليرى ما يبذو
منه فازل سعيد يده واعاد التفرس في الدخان وهو يتصاعد في البخاره الى السقف وقال
« بلى هذا هو الامير عبد الله بن امير المؤمنين في الحديقة والزهاء الى جانبه .. هذا
يا سيدى ما اراه - ولا ادرى اذا كان البخور يخدعني »

قال « وهل خدعتك من قبل ؟ »

قال « كلاماً وانما استبعدت ذلك لاني تركت الامير عبد الله في قصره ولم اسمع انه
جاءه هذا القصر »

قال « يتبين لك ان تعرف كيف جاءه »

فما دخل الى المبخره ووضع عليها قطعة اخرى من البخور ونظر الى دخالها وقال
« هو هو بعينه وعليه لباس النساء والزهاء الى جانبه تحاده »

قال « ماذَا كان حديثها »

قال « لم اسمع شيئاً .. »

قال « احب ان اعرف الحديث الذي دار بينهما »

قال سعيد « وهذا ما احب ان اعرفه انا ولكنني لا اسمع شيئاً الاآن »

قال « هل ترجو ان تسمع شيئاً في فرصة أخرى »

قال « نعم يا سيدى »

قال « يكنى الاآن فاكتم ما رأيت ومتى تذكرت من ساع الحديث اخبرنى ... وما
الذى يساعدك على سماعه ؟ »

قال « يساعدني ان اسمع صوتها تكلم »

قال « فاتت اليوم مأمور بتعليمها الغناء وسألت بها انك آت هذه الغابة

في العصر »

فأشار برأسه اشارة الطاعة وقال « الامر بولاي ولكن الافضل ان لا يكون ذلك في غرفتها الكثرة من فيها من الخدم والوصائف ... او يأمر بولاي ان تكون هناك منفردة او معها وصيف او وصيفة فقط »

قال « حسناً واظنها نفضل ذلك ايضاً ، فتى ذهب اليها تجدها في غرفتها منفردة »

قال « هل اذهب اليها في احبيل هذا اليوم ؟ »

قال « افضل » وتزحزح الخليفة من مكانه فهض سعيد واستاذن وخرج وفي العصر اصلاح شأنه واصلاح بيسراً الى غرفة الزهراء فاوصله الى باب الغرفة ودخل فأخبرها بمجيئه وانصرف . فدخل سعيد من باب الغرفة فوجد في وسطها سريراً منصوباً خرج اليه من ورائه جوهر واظهر انه لم يره الا في تلك الساعة وقال له « أنت معلم الفتاة » ؟

قال « نعم »

قال « ان مولاني في انتشارك وراء هذا الستر باسم الخليفة تفضل واجلس » وثني وسادة وقدمها له بجلس ثم ذهب فاتحه بعود وقال « هذا عود لتدلها به على ما تريده ان تفعله »

الفصل الرابع والخمسون

فتاول سعيد المود ووزنه على لحن ودفعه الى جوهر وقال « ادفعه اليها »

فدخل به وسلامه اليها فقال سعيد « اضربي عليه لحن كذا »

فاخذت تضرب وهو يشير عليها ان تصلح هذا الوتر وتشد او ترخيه وتغير هذه التقرة او تلك وهي تفعل وافكارها تائهة لانها مازالت مشغولة اخلاطها في امر أخيها والتبرج

ولم يكن هو اقل اشتغالاً بها وود لو انها تزعزع ذلك الستر ليراها وندم لانه لم يشترط على الامر بمحاسبتها ورؤيتها لكنه اومأ الى جوهر ان يحتمال في ابرازها . فأخذ جوهر يظهر الفجر من نقل الدرس بينما وقال « ان التعليم على هذه

الصورة لا يفيد يا قوم «

وكان لقوله وقع استحسان عند كلّهم فقال سعيد « لو استأذنت أمير المؤمنين في ان
نقابل لم يمنعنا .. واذا امرت الزهراء بذلك الآن كان الامر طا »

فقال جوهر « لا اظن سيدتي تأذن في ذلك ونحن في هنا الحاج من القصر
وحدثنا ليس من يسمع او يرى » ودخل اليها خاتمه هسا ثم عاد وقال « ان سيدتي
تأمر برفع السر على شرط «

قال « وما هو ؟ »

قال « بالغها انك عالم بالتجيم ... »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « ومن ابلغها ذلك ؟ »

قال « عالمت والسلام .. واما اعلم ايضاً . فالشرط يا سيدني ان تستطلع امراً شغل
باها منذ عدة اعوام . فإذا فعلت واصبت كشفت السر وقابلتها . فهل قبل بهذا
الشرط » قال ذلك وهو يتلوى ويغاجن

قال سعيد « اما وقد امرت فلها على ذلك » ثم وجه خطابه الى ما قال
« ما الذي يريدين كشفه يا سيدتي ؟ »

قالت وصوتها يتلجلج « لا اقول ما هو ولكنني اقول اني فقدت شخصاً منذ
اعوام كثيرة ولا اعلم ما صار اليه امره . فانا كنت تعرف التجيم حقيقة قلي من هو
وابن هو ؟ »

فاستخرج سعيد كتابه واخذ يقلب فيه وقد استولى السكت على المكان لا يسمع
فيه الا حفيظ صفحات الكتاب ثم قال « انك تبحثين عن اخ شقيق »

فلا سمعت الزهراء قوله لم تهلك ان صاحت « نعم اخي شقيق الله درك .. هل
هو حي ؟ اخبرني حالاً »

فاما التقليل وقال « نعم انه حي ؟ »

فاستغربت حكمه السريع وشككت في صدقه وقالت « اتعرف اسمه ؟ »

قال « اي اسميه تريدين ؟ »

قالت « وهل له اسمان »

قال « نعم له اسم تعرفيته واسم جديد لا تعرفيته »

قالت « ما هو اسمه الذي اعرفه ؟ »

قال « سالم »

فصاحت «نعم سالم .. سالم .. قل لي هل هو حي ؟ قل رعاك الله»

قال «نعم آنه حي ولكنكـه ...»

قالت «ولكن مانا ؟»

قال «ولكـه نخت خطر القتل»

فاما رأته صدق في معرفة الاسم وانه شقيقها اعتقدت قوله عن الخطير الخدق به وأخذت ترتعد وقالت «واي خطير واين قل لي ... فان امير المؤمنين ينقذه منه اكراماً لي»

قال «يا حبذا ذلك .. ولكن الخطير عليه من امير المؤمنين نفسه»

الفصل الخامس والخمسون

كشف الحجاب

فلم تعد الزهراء تستطيع استبقاء الحجاب ينها وبين سعيد فنهضت واطلت من وراء السر وقد ارخت على راسها حراراً مزركشاً وعيناها تلمعان من الدهشة فنهض سعيد عند رؤيتها كأنه وقف احتراماً لها فقالت «الخطير عليه من امير المؤمنين ؟» قالت ذلك وحالاً وقع نظرها على سعيد تراجعت وحولت بصرها عنه لحظة ثم اعادت النظر اليه وتفرست في وجهه كأنها تعرفه او تعرف رجلاً يشبهه ولكنها احسست بقشعريرة

اما هو فنظر اليها بهدوء وقال بصوت خافت «لا تضطرب يا حسناه ان اخاك سالماً لا باس عليه ولو كان الخليفة خصمه»

فاما سمعته يناديها باسمها اجهاف وزادت رعدتها ولم تعد قوى على الوقوف وقالت «لست منجماً ولكنكنبيّ»

فضحك وحول وجهه عنها ليهداً روعها وقال «لست ببياً ولا منجماً»

فقطت وجهها بكفها وقالت «ماذا ارى ... ويلاه ... هل انا في يقظة اوفي منام ؟»

قال «بل انت في يقظة يا حسناه»

فرفعت كفيها عن عينيها ثم اعادتها وتحولت مسرعة الى وراء الحجاب وهي تقول

«نعم في يقظة .. ياليتني كنت في منام»

وكان جوهر واقفاً يسمع ما دار بينهما وقد اخذته الدهشة فاما رأى الزهراء

عادت الى وراء الستر تبعها وقال لها « ما بالك يا سيدتي؟ .. اسامي وابن أخوك الآن .. اني الحديث »

فدفعته بيدها فاظهر أنّه استيقى على ظهره من عظام الدفعه واخذ ينماجن فقال « الحق عليـ لاتي خالفت امر مولاي واذلت بغير وجك الى العمل »

اما سعيد فاعله خلل واقفاً لا يتكلّم ثم قدم واذا حاست يده فرأى الزهراء قاعدة وقد جمعت رأسها بين كفيها واطرقته كأنها أصيـات بالجلود فقال لها « ما بالك يا سيدتي هل عدلت عن الاستفهام؟ هل اذهب؟ »

فأدارت ظهرها وانزوت وراء الستـر وقالت « نعم اذهب ... اذهب .. لا .. لا تذهب »

قال « اذهب ؟ ام لا اذهب ؟ ، اذهب لاني قات لك الحق ؟ اني ذاهب » وارجعـيـ السـترـ منـ يـدـهـ وـتـحـولـ فـوـئـبـ جـوـهـرـ اليـهـ وـامـسـكـ بـرـدـائـهـ وقال « تعال .. الى اين انت ذاهب »

فأشـارـ سـعـيدـ الىـ جـوـهـرـ انـ يـخـرـجـ منـ الفـرـفةـ ويـتـرـكـهـ ماـ نـفـرـجـ فـلـماـ يـقـيـ سـعـيدـ وـحـدـهـ وـقـفـ وـالـسـتـرـ لـاـ يـزالـ مـسـدـلاـ بـيـنهـ وـبـيـنـ الزـهـرـاءـ وـقـالـ لهاـ « وـالـآنـ يـاحـسـنـاهـ مـاـذـاـتـرـيـدـيـنـ؟ نـحـنـ الـآنـ فـيـ خـلـوةـ .. اـخـرـجـيـ الـىـ وـاـنـظـارـيـ فـيـ وـجـهـيـ » فـلـمـ تـحـيـهـ فـرـقـعـ السـتـرـ وـدـخـلـ فـرـآـهـاـ وـاقـفـةـ وـهـيـ مـطـرـقـةـ تـسـنـنـ فـيـ الـأـرـضـ وـقـدـ اـمـتـعـ لـوـنـهـاـ وـتـبـدـلـتـ سـجـنـهـاـ وـتـوـلـهـاـ الرـعـدةـ فـقـالـ لهاـ « اـنـظـارـيـ الـىـ » فـرـفـعـتـ يـدـهـاـ كـانـهـاـ تـقـيـ بـصـرـهـ بـكـفـهـاـ وـقـالـتـ « دـعـنـيـ لـاـ أـقـدـرـ اـنـظـرـ بـكـ .. قـلـ لـيـ منـ اـنـتـ؟ »

قال « قولي انت من انا؟ كـماـ قـاتـ لكـ منـ اـنـتـ »

فـقـالـاتـ « قـلـ منـ اـنـتـ .. »

قال « اـنـاـ سـعـيدـ الـوـرـاقـ يـعـنـيـ اـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ لـاـ عـالـمـكـ غـنـاءـ اـهـلـ الـعـرـاقـ » فـرـفـعـتـ يـصـرـهـ اـلـيـهـ وـقـرـسـتـ فـيـهـ وـهـيـ تـجـلـهـ وـقـالـتـ « كـلـاـ بـلـ اـنـ لـصـ غـادرـ » فـضـحـكـ وـقـالـ « لـسـتـ لـصـاـ وـلـكـ الـلـصـ مـنـ بـخـونـ وـلـيـ نـعـمـتـهـ وـيـخـتـلـيـ بـالـغـرـبـاءـ يـأـنـيـ بـهـمـ الـىـ قـسـرـ الـخـلـيـفـةـ بـأـنـوـابـ النـسـاءـ »

قصـاحـتـ « وـبـلـكـ .. اـنـكـ شـيـطـانـ بـلـ اـنـتـ عـفـريـتـ مـنـ الـعـفـارـيـتـ »

فـقـالـ بـصـوـتـ هـادـيـ « اـنـاـ مـنـ اـنـاـ .. ٠ ٠ ٠ فـالـأـفـضـلـ لـكـ اـنـ تـرـجـعـ اـلـىـ رـشـدـكـ وـتـكـلـيـ

عـلـيـ اـذـلـسـ لـكـ مـنـ يـفـرـجـ كـرـبـكـ سـوـايـ »

فلا سكت ووقفت وهي تفرك عينيها ولا تصدق أنها في يقظة وصاحت به وقالت
 « قل لي .. قل من أنت حالاً »
 قال « أقول .. ألم تكتفين بما فقلته؟ »
 قالت « قل .. قل سريعاً » وعيناها تبرقان من الدهشة وشفتهاها ترتجفان من
 الغضب وقد شخصت فيه
 فقال « أنا سليمان »

فاما سمعت اسمه صرخت ووسمعت مغشياً عليها فبادرالي رشها بمعطر كان معه حتى
 افاقت وحشاً فتحت عينيها ورأته تراجمت وغضبت وجهها بيديها وقالت « أنت سليمان! »
 انك اصل بلاي .. سوف اريك عاقبة عملك .. الا تزال تتبعني و كنت الباب في ضياع
 اخي .. » قالت ذلك ونهضت وهبت بالخروج كلها ت يريد ان تستعين عليه باحد فامسک
 بيدها واقفها وقال « تمثلي ولا تأتي بيديك الى التملّكة .. اعلمي ان حياتك وحياة
 اخوك في يدي »

الفصل السادس والخمسون

الدهشة

فوقفت وهي تنظر اليه وتقرس في سخنته وهو يرنو اليها بلطف وسکينة ثم قال
 « لا تفضي يا حسناً .. ولا تقمي على قاتي ارتکبت العظام في سبيل حبك .. اني
 احبك .. » قال ذلك باحن الحب الوطن
 فلم يزد لها ذلك الا غضباً وقالت « انا لا احبك .. يكفي ما جررته عليَّ من البلاء »
 قال « لم اجرر عليك بلاء .. ولا ذنب لي عندك سوى اني احبك وقد عرفتك
 قبل ان عرفتك صاحب هذا القصر »
 قالت « وتجاسر على جارية امير المؤمنين .. الا تعلم انك اذا اطلع الناصر على
 حقيقة امرك اماتك حالاً؟ »
 قال « لانجعلي لطبيش سيلماً الى عقلك ... تذكرني اخوك وان حياته في يدي اذا
 نشرت فقلته في هذه الساعة »
 قالت « كذبت .. قد عرفت الان امرك تحناش على ونمداني على خيانة مولاي

ومولاك الناصر .. فلا تطمع بنبيل مرامك — انك مائن لا محالة دعني والا صرخت صرخة جمعت عليك اهل القصر فيسوقونك الى حتفك »

فترك يادها وقال « يظاهر انك لم تصدي قولي ان اخاك حي وانه تحت خطر القتل ولا يتمنى من الموت شيء غير استرضائي .. لاتنتوري .. اذا كنتم تعتقدون كذبي وانك قادر على اذيني فهذا لايفوتك في اي وقت اردته فلا تشجعوني قنوعد العلة عليك .. ان لامير المؤمنين شفاعة في وفي تنجيسي لانزعزع »

فقطعت كلامه قائلة « انا اخبره انك خائن واطامع على حقيقة امرك »
فقال « هل تظنينه يصدقك ؟ »

قالت « نعم يصدقني »

قال « لا .. ومع ذلك فان الخطير يقع على اخيك لأن الناصر حاليا يعلم به بيعث فيطلب راسه .. فالاحسن ان تبصري »

فافشعر بذاتها وخافت على اخيها وتجددت وكمانة وطالعه على حقيقة قل ما هو خبر أخي »

فتقدم نحوها ونظر الى عينيها نظر الاسترضاء وقال « اني اشكوك اليك غرامي بك واستهلاكي في خدمتك وانت تشكيني وتهدياني .. انظري الى الفرق بيننا .. أما اخوك فقد سألكت عن اسمه وقلت لك ان له اسمين ذكرت لك احدهما ولم تسأليني عن الآخر »

قالت « وما هو الآخر ؟ »

قال « اسمه الآخر صاحب النسمة »

وكان تعلم ان ذلك اسم رجل من اشد اعداء الناصر وأكثرهم سعياً في خاتمه .. وقد قام لتحریض العرب والبربر على مناوانه وخارج الدولة من يده .. وقد بذلك الناصر الاموال وبث الجوايس في البحث عنه فلم يختلف به .. ولا شك عندها ان الناصر حالياً يسمع به يامس بيته ولو عرف انه اخوه .. وقد يغضب عليها من اجله — لكنها مع ذلك ما زالت تظن سعيداً يكذب تغويقاً لها .. فلما ذكر اسم اخيها هذا اظهرت الاستخفاف وقالت « لا يمكن ان يكون هنا الرجل اخي انك تخدعني ترويجاً لغرضك .. دع عنك هذا وارجع .. وانا اعدك اذا رجمت عن غيرك وافدتي عن حقيقة حال اخي (وتشهدت) اني اغفو عنك واكتمن امرك »

قال « يا سيدتي .. او يا حبيبي .. اني لا أكذب .. ان صاحب النسمة هو اخوك

سالم نفسه وأذا شئت اتيتك بالدلائل المحسوس «

قالت « وما دليلك ؟ »

قال « دليلي قریب .. الا تعرفين خط أخيك ؟ »

قالت « اعرفه »

فذهبت يده الى جيشه واستخرج رقاً ملفوفاً في منديل . سأله وفتحه وقال « اقرئني »

فقرأ سطراً مكتوباً بالدم هنا نصه :

اتا سالم صاحب النعمة اعاد نصراء الحق اني ابذل حياتي في سبيل قتل عبد الرحمن الذي يسمى نفسه الناصر »

صاحب النعمة

فأخذت نهرأه وتعيد قراءته وتتفرس في الخط فإذا هو خط أخيها نفسه فرفعت بصرها الى سعيد خديق هو نظاره فيها عنوة فاحست بمحركي كهربائي تسرب في عروقها فاضعف عزيمتها فتولاها الخوف على نفسها وعلى أخيها فوققت مهوتها لاتبدي حراكاً ولو سعيد الرق في أثناء ذلك ووضعه في جيشه وهو يقول « مارأيك الآن يحسناء ؟ » فشعرت بخوار قواها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت على البساط واطرقت وظلت ساكتة

قال « هل رأيت اني تاصحك واني اينت لا تاذك واقذ أخلك ؟ الا ترين اني قادر ان افته بكامة واحدة ؟ ارجعي عن جفاثيك وقاوه قلبك وارجعي قابياً كاد ينوب شوقاً اليك .. ان سايان الذي رايته على ظاهر تلك السفينة يوم خروجك من صقلية رجل يحبك ويحبواك .. وما انا ربان السفينة ياحناء ولا انا خادم فيها وستعلمين مني اخلصت الحب لي اني ادخل لحبتك .. وقد ركبت الاخطار و تعرضت للموت من اجلك .. وقد فعل الحب المتفاني في سبيل حبيبه .. لو علمت ما الذي فعلته من اجلك لم ترافي طابي وسوف تعلمين .. ولا يغرنك ما ترين من القصور والزخارف انها لا تثبت انت تذهب ولا يبقى غير الحب .. ها اني اعرض هذه النعمة عليك فلا ترفضها »

الفصل السابع والخمسون

الرجوع الى الصواب

فوقعت في حيرة ولم تعد تعلم بماذا تجيب وترجح لدربها ان اخاها في قبضة سعيد ولا
نجاة له الا بمسايرته . ولكنها مازالت تذكره وتود قوله لكنها لا سهل لها الى ذلك
فعمدت الى الملاطفة فقالت « والآن ما العمل .. هل اخي قريب من هذه الديار ؟ »
قال « بل هو في هذه الديار في مخبأ لا يعرفه احد سواي »

قالت « وما السبيل اليه كيف العمل ؟ »

قال « سأخبرك عن السبيل في فرصة اخرى انا ارجو منك الان ان تنتهي ..
ولا اظنك تفعلين . قان لم تفعلي فدمك ودم اخيك على رأسك .. اني نصحتك وفعلت
كل ما تطلبين مني فما رأيك ؟ »

فاطرقت واعملت فكرتها في ما وقعت فيه فلم تجد طاسيل غير الملاطفة ربما
نختال في النجاة فعادت الى وشدها وتعقلها ورباطة جأشها لكنها احست بتغيير طرأ
على احساسها بعد تلك النظرة التي اخترقت احشاءها وهزت اعصابها ووقفت على ارادتها
وخجل لها من تلك اللحظة انها طوع ارادته ولم تعد تلك رأيها فقالت « نصبر كما قلت ..
واخشى ان تكون خدعتني »

قال « دعي عندك الشكوك »

فككت وهي تعمل فكرتها ثم قالت « وكيف التي باخي هل تستدعيه
إلى هنا »

قال « كيف يقدر على دخول هذا القصر .. الافضل ان تذهب الى انتبه ومتى
اجمعت به قضيبيه بالرجوع عن الثورة ونختال في استرضاها الخلية عليه واظتنا نجح
ثم نقيم هنا معاً وات في منزلتك ولا يعلم احد بما جرى .. والآن لا ينبي ان فرق
قبل ان نحسن التفاهم .. قبل انت واثقة بما القول ؟ »
فطاولات رأسها « ان نعم »

فقال « ستفتق على وقت نخرج فيه خلسة الى مقر اخيك .. لا اقدر ان اتصور
فرحك به ساعة اللقاء .. وسيخبرك هو كيف انه مدین لي بجهاته ولو لا يلم بيق حباً
فكان لهذا التعبير وقع حسن على قلبها فابتسمت وقالت « انت كنت السبب في

حفظ حياته ؟ شكرأ لك »

قال « لا فضل لي في شيء من ذلك لأنني فعات ما يدفعني إليه شعوري فان حبك ياحنا، قد استولى على كل جارحة من جوارحي ، الا افعل ما يرضيك ودل يكون لي فضل اذا فعلته ؟ والآن دعفي اعلمك لحناً تغنىه لناصر اذا سألك عما تعاملته »

قالت « حسناً » ونادت جوهر فاتي وعاد الى خدمتها فاعلمها سعيد لحنا ثم ودها على موعد الجي في الغد لتعاجلها ومتى وقد مالت الشمس الى المغيب ، وسار توً الى غرفته وكان الخليفة قد نزل الى قرطبة في ذلك التهار لاحوال سياسية اقتضت مقابلة بعض السفراء من ملوك النصارى المجاورين ، وكان يفضل ان يقابلهم في قصر قرطبة اما سعيد فشك في غرفته فيجيء اليه بالعثاء فتناوله ولم يخرج من تلك الغرفة لانه احب الخلوة ليعمل فكرته في تقييم الحياة للفرار بالزهراء من تلك القصور

الفصل الثامن والخمسون

الواقع

ذهب سعيد الى فراشه وقد انهك التعب لشدة ما اثره تلك الحادثة في نفسه وهو يلتقط هذه المقابلة منذ اعوام عديدة وقد سعى فيها وبذل كل مرتخص وغالب في سبيل الوصول اليها - وهو يعلم الخطير المحقق به ولكن جن بحب الزهراء ولم يعد يحسب للحياة حساباً ، ورغم ما رأيت من تعلمه ودهائه . فان حبه الزهراء ، غالب على عقله واخذ يجتمع قلبه — وليس للعقل سلطاناً على قلوب الحسين . فقد تجد الرجل العاقل يقيس الامور ويستخرج اسبابها ونتائجها وقد اوتي الحكمة وفصل الخطاب . فاذا تولي الحب على قلبه ارتكب من الاهفوات ما يتزره عنه الجهلاء ، وهو يرى انه عاجز عن تخبيه . واما تأمل في ما يأتيه من الخفة والطيش في سبيل ذلك الحب خجل من نفسه ولا يرى له مندوحة للخلاص من تلك الشراك

كان سعيد قد أحب الزهراء وافتتن بها منذ رآها في صقلية وكان قد جاء تلك الجزيرة ب مهمته سياسية من قبل المهدى صاحب افريقية ففابت على عقله واراد ان يستأنف بها لنفسه وركب السفينة معها على ان يختال في اجتناب قلبها ثم يرى السبيل للفرار بها اما هي خلماً وقع نظرها عليه احسنت بغيره منه وصار كلما تقرب منها ابتعدت عنه .

وهي تزداد تفورةً حتى فضلت أن يأخذها اللصوص على أن تبقى بقرب ذلك الرجل أما هو فأخذ أخاه معه ورباه على الغرض الذي اجمع عليه العبيديون في إفريقية وهو كره آل مروان في الأندلس والسي في الاستيلاء على مملكتهم . وكان سعيد من كبار هذه الشيعة وله نفوذ كبير عند المهدى العبىدى ومن جاءه بعده على عرش الخلافة الفاطمية في القىروان . وقد عهدوا إليه بغراضاً و كانوا قد بنوا هذه الروح في كثيرين من كبار القواد في الأندلس نفسها . ومنهم الجماعة التي كانت تجتمع في قرطبة سرّاً كما رأيت

جاء سعيد إلى قرطبة بهمة سياسية من عدة أعوام . وكان قد عمل بالبحث والتدقيق ان حناء التي عرفها في صقلية صارت إلى التاجر في قرطبة وبها زهراء — عرف ذلك بدهائه واهتمامه وكتمه عن أخيها وجعل همه الوصول إليها . وقام حوطاً الجوايس وكانتها بأساليب مختلفة يستعطفها وهي تستخف به وترذله ودوره داد شفافاً بها حتى أصبح يرى في الوصول إليها ولو تكاليفها واسترداداً لكرامتها دفعاً لآهاته . وكان يعلم تعلقاً بها أخيها فاتحاً بهذه الحيلة فنى سعيد بعض ساعات في غرفته على الظلام وهو غارق في بخار المطاجس وقد فرَّ النوم منه وتولاه الارق لعظم ما جاش في خاطره في ذلك اليوم

الفصل التاسع والخمسون

موعد آخر

وهو جالس على قرائبه في العتمة وبصره متوجه إلى نور يناثره من نافذة تعلل على داخل القصر وقع نظره على شبح يمثلى هناك بخفة كأنه يحاذر أن يسمع أحد وقع خطأه . ففسره فانا هو ساهر وعليه لباس الوصفاء كرار آمة المرة الماضية . فهضم واتفق أثره فرأه يلتئم غرفة الزهراء . فما زال في أثره حق رأء دخل الغرفة وقد وقفت الزهراء لاستقباله وهي لا تزال بثوبها الاعتيادي كانها كانت على موعد منه . فدارت العبرة في قلب سعيد وجعل يغاب نفسه فلم يستطع صبراً على ما شاهده فشي حتى دخل الغرفة ولم يشعر به أحد منها . فرأى ساهرًا جائياً أمام الزهراء وهو يقول لها بصوت الحب

المفتون « مربني ياسيدتي فاما رهين امرك وليس اشمي على قابي من ان اخند ارادتك
ويكتفي شرقاً وسعادة ان تقع اوامرك في اذني »

فاجابته هي « اتهض يا ساهر .. بارك الله فيك .. اني مسروزة من مرسوئتك
وصدق مودتك .. قل لسيدك اني لولا حبي لم اطلب مقاباته ولا باس عليه من اهل
هذا القصر .. قليات على عجل .. » وما وصلت الى هنا لحت سعيداً داخلاً فبخت
وبات البغة في عينها ولحظ ساهر تغيرها فالتقت فلما رأى سعيداً نجح ثم اصرف
اما سعيد فخلل ماشيأ وهو يتجدد ويتناسك حتى صار بين يدي الزهراء وهي تنظر
الى والنضب ظاهر في عينها فقالت له « ما الذي جاءك يا سيد ؟ »

قال وهو يتلطف في التعبير « جئت لأنجع بروئتك قبل النهاب الى الفرات
.. وقد تمنت بما ينفع عن النوم » وتحمّج

فقالت بالحن الاستخفاف « ما كان اغناك عن هذا الحبي .. كفاك تخاصص على
وراقب حرکاتي ومن يدخل او يخرج من عندي ؟ .. ان امير المؤمنين لم يفعل ذلك »
قطع سعيد كلامها وقال « لان امير المؤمنين لا يحبك مثل حبي .. » قال
ذلك وتنبه

فقالت وهي تبالغ في الاستخفاف « صدقت ان الناصر لا يحبني ابداً .. ولكن ان
وحده تحيبي .. ما كان اغناكي عن هذه الحبة بل ما احوجني الى بغضك .. » قالت
ذلك وحرقت اسنانها

فلما رأى جفاهما تقدم نحوها وهو يتكلّف الاسترضاء وقال « ساحنك الله
يا حسنة كلها شكرت اليك غرامي وذلي زدت نفوراً وجفاً ؟ »

فلما دطاها باسمها الاصلي تذكرت اخاهما خافت عليه فعادت الى التجدد والملائفة
فقالت « لقد اسأت اليه بمجيئك على هذه الصورة حتى اغضبتني وحملتني على ما قلته ،
ونحن كما تعلم قد تواعدنا واتفقنا .. »

قال « انا حماي على الحبي حبي لك وغيري عليك .. »

فقد يدعها خوه كأنها تستوقفه وقالت « لا فائدة من الغيرة وانا في هذا القصر ..
وعما قبيل اكون لك .. لا تسألني عن شيء »

فلما سمع قوطا استخفه الفرح وصالح « تكوين لي ؟ قبلت بذلك وعفا
الله عما مضى »

قال ذلك وهو ينظر في عينها وقد نسي الغيرة والشك وتناول بدها كأنه بهم

بتقبيلها فاجتنبتها منه ونظرت اليه نظر العتاب والتوبين وقالت « امض الآت ولا تجعل للناس سبلاً الى الظانون »

فتحوّل وخرج وهو يحسب انه قال اعلم اسباب السعادة بما سمعه من وعودها . فدخل غرفته واستنقى على فراشه فعادت اليه هواجسه فأخذ يفكّر في حاله فاستغرب اقياده الاعمى لداعي قلبه ونسيانه الهمة الاصلية التي قام من اجلها وقد قدمت معه افريقيا كلها وعوّل خليقتها عليه ووضع قته فيه حتى لو كتب اليه ان يجرد جسداً لفعل فكيف يشتعل عنه بحب جارية لاتحبه ؟ . فاحس بصغر نفسه وضعف ارادته كأنه عبد لعواطفه فأخذ يوين نفسه على ذلك الضعف ويهمن ان يرجع الى رشده ويعدل عن الفرام الى طلب العلى بحمد الحسام فلما تشنّل له الزهراء ويتصور انها طوع ارادته نخل عن ارادته وينذهب حاسه

محمد عزيز

الفصل ستون

طارق آخر

وهو في تلك الهواجس وقد اخذه الارق ولم يبق في ذلك المكان ساهر سواه واستوت السكينة على القصر ولم يعد يسمع فيه الا خير الماء في بر크 الحديقة وفي البركة الداخلية في بيت المذام وسعيد يحمل نفسه على الرقاد ويحاول نسوان تلك الافكار عيناً - وهو في تلك المطدوء والقلام سائد سمع حركة في غرفته سليس فرأى شيئاً داخلاً عليه عرف حالاً انه عابدة . وما زالت تنشي الهوايا حتى رأته جلس على فراشه فاصرعت اليه وجيئت بين يديه وقالت « بالله يا سعيد .. الى متى تضحك مني ؟ »

فاظهر الاستغراب وقال « اخجك منك ا ما هنا الكلام ؟ »

قالت وصوتها مختنق « نعم تضحك مني ومهماً بحبي » ..

قال « دعي عنك الاوهام .. »

قالت « يكفيكي ما قاسيته من الصبر على وعدك .. قل لي اني لا احبك ودعني

امضي لسييلي .. »

قال « كيف اقول لك ذلك وابت تعليمي اني احبك ولكتنا لم نفرغ من مهمتنا

بعد .. وانت على بيته من كل شيء »

قالت « نعم أنا على يقنة من كل شيء ... ولذلك لم أعد استطاع صبراً »
 قادرك أنها تشير إلى اطلاعها على شيء يكتبه عنها فقال « ماذا تعنين؟ »
 قالت « أعني أنك شفعت عنِّي ونبيت عابدة المكينة؟ » واجهشت بالبكاء
 قاتر بكاؤها في قابه وأحس أنه أساء لها ولذلك ما ليث أن تصور الزهراء حتى
 لسي أساءته وجعل حمه أتام معدات الوصول إليها فقال « دعي عنك هذه الاوهام .
 من يشغلني عنك؟ وإذا رأيت في تقريراً إلى أحد سواك فما ذلك إلا سعياً في الوصول
 إلى الغرض المطلوب الذي تعليمته »

فتنهدت شهداً عميقاً ورددت قوله « الغرض المطلوب ! آه من ذلك الفرض ..
 ما كان أغناناً عنه .. ولا اظننا نصل إليه مع ما يحدق بنا من العوائق »

فاظهر أنه أساء ما القته من الشك في سبيل ذلك الفرض وقال « لا تضعني أمني
 بليل المطلوب .. » وخفت صوته وقال « سيأتي يوم تكون فيه ملوك هذه الجزيرة
 وتكونين أنت ملكة عظيمة الثأن »

قالت « دعني من ذلك دعني .. إن السعادة ليست في السيادة ولا في الثروة ..
 إن السعادة في الحب .. » قالت ذلك وصوتها يتجلجج خجلاً وبلمع ريقها ثم قالت
 « لو كنت أعلم أنك تحبني مثل حبي لك لكنك أسعدت أمراً على وجه الأرض .. آه
 من يقول لي الحق؟ »

فقطع كلامها وقال « أنا أقول لك .. صدقني .. وسوف تتحققين صدق قولي »
 فوقع كلامه على قلبها ببردًا وسلامًا واحست أنها في نعيم وقالت « صحيح؟ صحيح؟ صحيح
 أنت تحبني؟ »

فقد يده إلى يدها وقبض على أتمامها فاحتست عابدة بجرى كهربائي اسقفت له
 اعصابها وغلبت على أمرها وقالت « صحيح أنك تحبني .. فانا سعيدة ... »
 قال « يتي ان أسألك أنا هل تحبني؟ »

ولم يتم سؤاله حتى سأله الدمع من عينها وقالت والبكاء يخنقها « اتسألني إذا كنت
 أحبك؟ أمشي يسأل هذا السؤال .. لم يبقَ في جارحة لم تفتنه بك .. لا يكفيك من
 الأدلة ما أنت فيه؟ ما الذي حلني على ارتكاب هذه الخطأ؟ »

قال « لم تتركي خطأً بعد .. ان وجودك في هذا القصر من أسباب السعادة
 يختاه كل إنسان .. ولكننا سنصل إلى الخطير قريباً وعند ذلك يظهر الحب الصادق
 ولا شك عندي أنك ستبرهدين على صدق محبتك لي وللامام العبيدي صاحب افريقيَّة

الذى نحن في خدمة مصالحته »

قالت « آه يا سعيد كل بي سهل في سيل حبك .. دعنى اغتنم هذه الظلمة واصرخ لك بما يكتنف فزادي من الشفف بك ، لو كنا في النهار او كانت هذه الغرفة مضيئة للنجات ولكن العتمة تستر .. اني احبك الى حد الجنون ولا اراك محبني ومهما لامری مع اني اتفاني في سيل مرضاتك .. افعل ذلك من كل قلبي وبذلك في العذاب اذا كان فيه سرورك ... فهل عندك مثل الذي عندي ؟ او مثل نصفه او ربعة ياترى ؟ »

فضفط على يدها ثانية وقال « كفى يا عابدة شكوكاً .. وقد دانتا الوقت ولا برح ان تستفرغ المأرباده . لم يبق من المهمة التي جئنا من اجلها الا خطوة واحدة — وهي عليك »

قالت « من يعاشره »

قال « الا يزال ذلك الحق معك ؟ »

فسرت كفها على صدرها وقالت « هو هنا في اصول مكان »
فقال « الي به »

فدفعته اليه فاستخرج من جيبه ورقة فطعها نصفين وصب ما في ذلك الحق فيما وهو مسحوق ابيض لامع ولف كل واحدة على حلة ودفعها اليها وقال « احتفظي بها بين الورقتين جيداً لوقت الحاجة »

قالت « وما فيما .. هل من باس علي اذا تناولت منها شيئاً ؟ .. »

فابتدرها قائلاً « احنري ان تفعلي .. » وضحك يومها انه يمزح فضحت وقالت « لما اكن اجهل ذلك .. ولكنني ارجو ان لا احتاج الى تناولهما ... »

فتجاهل مرادها وقال « احتفظي بها حتى آتيك غداً او بعد غد »
فاحسست انها ينبغي ان تصرف فوقفت وودعته وهي تنثرس في وجهه والظلام بمحب لواط المسكر والقدر عنه ولو لم يمحبها قان عابدة لم تكن ترى في سعيد غير السكال لاه استهواها بمنقطعيته

الفصل الحادي والستون

المواجس

خرجت عابدة من عند سعيد وعادت اليه بلا به باشد مما كانت عليه فمهور كف انه يخادع هذه الفتاة الخاتمة ويغرسها على المخاطرة بنفسها ويعيد كاذبة ويراهما شديدة الثقة به وهو ينوي خياتها — فرجع الى تعلمه فرأى انه يفعل افعلاً لا يرتكب مثلها الجاين ان سيرتكب جريمة القتل تحت اشد الاخطار. وعاد الى التفكير في مهمته السياسية الاصلية وكيف انه كاد يفوز بها لوم يله عنها بمحب الزهراء... واسأله حرفها خفق قلبه واعمل فكرته في امرها وقال « قد يكون سعيد من قلب الزهراء مثل عابدة من قلب سعيد . فانا اداجي عابدة واعدها فهل الزهراء تداعجني ؟ .. ولكن سعيداً غير عابدة .. ان من يرتكب ما ارتكبته ويعلم ما عانته لا يشق عليه ان ينتقم من تلك الجارية .. اي اريرها العذاب الوانا .. لا .. لا .. لا افعل ذلك مع الزهراء انها حبيبتي ولكن ماذا انا مستلم لها — اتركها وشأنها والنساء كثیرات وهذه عابدة المسکينة تحني رضائي .. ان حبي الزهراء سبب بلائي وسيكون سبباً في ضياع امة برمتها .. ألم يضع الامام العبيدي ثقته في « واهل افريقيا يتظرون نتيجة سعي ؟ .. » وما فكر في ذلك هب من فراشه كالمجنون ووضع كفيه على عينيه كانه يستحق قريحته لاعمال الفكرة في حقيقة حاله .. ووقف لحظة ثم عاد قعد على الفراش وقد تبت له الزهراء في اشمي ما يتناها فيه فقال « ان نظارة في حسناه تساوي العالم برمتة وما لذة الانسان من المناصب والراتب اذا لم يكن له حبيب يحبه — الزهراء تساوي كل شيء ولا بد من المخاطرة في نيل الاماني — وما فاز بالذات غير الجسور . اما عابدة فاني اشغلها بسوالي وارضيها .. »

قفى بقية ذلك الليل في مثل هذه المواجس ولم يتم الا قليلاً وافق في الصباح على نفر الباب ففتح عينيه فرأى ياسرآ داخلاً بقليل له وحياة ورحب به . فقال ياسر « اظنني افلكتك من رقادك »

قال « كلاماً في شوق الى رؤيتك »

قال « وانا ايضاً .. وقد استطعتك و كنت احسبك تبعث اليه بأكراً لقصص علي ما جرى بالامس »

فعلم انه يعني ما جرى بيده وبين الزهراء لأن ياسراً يكرهها ويريد ان يوقيها في شر يخفرها في عيني الناصر استقاماً منها ما يتوجه من عقوبة او نكارة الجليل وهو يعتقد انه كان السبب في ادخالها بلاط الناصر فلم تعرف له هذا الجليل . وظهر له من حديثه مع سعيد مرأة انه يوافقه على ذلك وكان يظنه يستطيع باتساعهم معرفة سبب اجتماعها بعد الله وفي شبيه للناصر فيغضبه عليها وربما طردها — وادرك سعيد كل ما كان يجول في خاطر ياسر فقال « ان امر هذه الجارية حيرني ولم استطع كشف سرها تماماً مع اني قضيت ليلي البارح ولم انم الا قليلاً افکر في امرها . ولما رأيتك داخلاً ظننتك ايتها لندعني الى امير المؤمنين لانه اكثرا الناس تطلعوا الى ذلك »

قال « انه لم يعد من قرطبة »

قال « هل بات هناك ؟ وماذا ؟ »

قال « لا انه ذهب لاقابله بعض وفود ملوك فرنسا وإيطاليا وهو يفضل ان يستقبلهم في قصر قرطبة . فاما ايماناً في الرجوع بات هناك وقد اوصاني قبل ذهابه ان افتح عيني واراقب كل حركة »

فضحك سعيد وقال « يظهر انك لم تكون ساهراً »

فهم مراده فقال « كنت ساهراً وقد رأيت ساهراً دخل القصر بلباس بعض الوفاء فسهلت له الدخول على امل ان تسرورط هي فتفتح وقعة لا قيام لها منها »

فاطرق سعيد وفك في نتيجة وقوع الزهراء في الذنب فرأى ان الناصر يغضب عليها فيتوسط هو في الاصلاح فيكون له فضل عليها يساعدها على قبوطاً به . ويجب من الجهة الأخرى اذا كان بينها وبين عبدالله توادان يكون قصاصها على يد الناصر . فقال سعيد « ومتى يعود الخليفة من قرطبة ؟ »

قال « لا ادرى وعلمه يعود في هذا المساء وقد بيت هناك البلة ايضاً ويأتي غداً وعلى كل حال اني اتظر رجوعه بفارغ الصبر »

فقال « اظنه يطاردها ان لم يقتلها »

فسكت واظهر انه يهتم بالنهوض فهض ياسر وخرج وهو يقول « وفق الله علينا »

فالماء خلا سعيد بنفسه اعمل فكرته فرأى ان سبي ياسر ضد الزهراء يفيده في كل حال طالما كان حازماً على ثقة الخليفة بديره كيف شاء فكث يترقب الفرص

اما ياسر فعل همه في ذلك اليوم مراقبة الابواب اعلمه يرى عبد الله داخلاً ليشي به الى الخليفة وهو مجتمع بالزهراء . ولكنكه كان يخاف ان يأتني عبد الله ويعود قبل رجوع ايده من قرطبة فبعث بعض الحصيان يسأل في قرطبة عن رجوع الخليفة متى يكون فعلم انه عائد بعد الفروب فاعطى الاوامر ليكون الفصر في تأهب لاستقبال صاحبه وعاد الى مراقبة الابواب

الفصل الثاني والستون

حدیث ذو شجون

غربت الشمس ولم يأت أحد وبعد الفروب رأى ياسر ساهراً ومعه رجل بلباس الحصيان دخل من باب القصر و لم يعترضهما أحد من الحراس كانوا على موعد . فعلم ياسر ان احدها عبد الله وتوجه رياضاً وراقب جهة مسيرها فرأها ظلاساً زرين نحو قصر المؤنس الى الخليفة التي اجتمعا بها في المرة الماضية . فسار من جهة اخرى بحيث يتحقق ان الزهراء نزلت لاقابله عبد الله فلما تحقق ذلك اصبح هه ان يأتني الناصر قبل تفرقهم ليرى الاجتماع بنفسه فيكون ذلك ادعى الى غضبه وسرعة انتقامه

فرجع الى الباب الخارجي الذي يدخل منه الناصر اذا عاد من قرطبة واخذ يتشوف عن بعد وقد دنا العشاء واظلمت الدنيا لكن قصور الزهراء كانت تثار بلاً بالصابيح من كل اطرافها . ورأى هم يذرون الطريق بينها وبين قرطبة استقبالاً لل الخليفة ولم تخض هنيبة حق رأى الحصيان والفرسان وعاليهم الجوانش مسرعين يا لهم سائز الموكب وفي وسطه الخليفة والى جانبه تمام رئيس الحصيان زميل ياسر . ولم يكن بينهما خباب شأن المتفاين في المناسب في كل زمان ولكن الناصر كان يقدم تماماً في اكثرا الاحيان ويقال من قفود ياسر . وهذا يعتقد ان الزهراء هي التي جعلت الناصر يتغير عليه ولذلك زاد رغبة في الاستئام منها . ورأى هذه الفرصة انعن الفرص ليظهر اخلاصه للناصر وتفانيه في خدمته ليغير ما في نفسه من تفضيل تمام عليه فاما رأى الناصر في موكيه و تمام الى جانبه لم يعد يصبر عن التصدى اما خطابته قبل الوصول الى القصر مخافة ان يذهب الى قصر آخر غير المؤنس ثم يشق عليه استقدامه في تلك الساعة

فاما وقع نظر الناصر على ياسر توسى في وجهه خبراً فانفرد عن الموكب نحوه فشيء
ياسر في ركباه حتى دنا من قصر المؤمن وترجل الخليفة وأشار إلى الناس بالانصراف
وظل مع ياسر فقال له « ما وراءك يا ياسر؟ »

قال « ما ورائي غير الخير وكانت أودان لا يعلم مولاي إلا بما يسره لوم اعلم انه
راغب في معرفة سر ذلك الاجتماع »

فأتبه الناصر حالاً إلى أنه يعي اجتماع الزهراء وبعد ذلك فقال « هل جاء ولدنا
عبد الله إلى هنا؟ »

قال « نعم يا سيدي ولو أنه جاء كما يحيى، سائر أخوه وأهله لم يكن بأمس من مجده
ولكنه يأتي متكرراً ... »

قال « وكيف بأذن الحرس بدخوله؟ »

قال « يأذنون له باسم الزهراء فآتتها توصيه بذلك على يد أحد خدمتها »
فغضب الناصر وقال « والآن ابن هو؟ »

قال « هو في الحديقة المعرودة وهي معه »

فاطرق الناصر حيناً ثم ضرب الأرض برجليه وقال « كان عبد الله ينتقم مني لأنني
جئت عابدة عنه؟ ، إلى هذا الحد بافت جسارتة أن يتعدى على نجاري الزهراء
نفسها؟ »

فسر ياسر من غضب الناصر واحب أن يكتئن من الغضب عليها وحدها فقال
« لا أطنه يطلب انتقاماً ولكنها خدمته والنساء لا يخفى على أمير المؤمنين حالمه »
فقد الخليفة يده إلى جيده واستخرج ورقة وقال « هذا كتابه جاءني في الامس
إلى قرطبة ولم يصبر على حق أعود إلى هذا القصر فيخاطبني »

فقال ياسر « هل يطلب عابدة؟ »

قال « بل « وويهدني إذا أنا لم أعدّها إليه ولم أفهم معنى تهديداته .. فقد فهمت
الآن أنه يريد أن ينتقم مني بالخذل الزهراء ... ولكن كيف قبل هي موافقته؟ »
فقال ياسر « إن النساء ... »

قطع الناصر كلامه وقال « أحب أن أراهما واسمع حدثهماولي بعد ذلك رأي
فيهما » قال ذلك والغضب يادره في أسره

ففرح ياسر لهذا التهديد واسرع بين يدي الخليفة وبهذا الامر إلى خدمة القصر
ان يخلوا هذا الجناح منه لأن أمير المؤمنين يممر فيه . ولم تمض بضع دقائق حتى لم

يبق هناك أحد ، فشي ياسر بن يحيى الناصر حتى وصل إلى غرفة لها شرفة تطل على الحديقة فوجدها مغلقة فقال ياسر « إنها أغلقتها حتى لا يطلع أحد منها علينا » - واخرج من جيبيه مفتاحاً فتحها به بخفة بحيث لا يتبه أحد فتحها ودخل وأعاد الناصر مقعداً بجانب الشرفة يطل منه على الحديقة

فرأى الناصر الزهراء، جالسة هناك على مقعد من المجر وقد كشنت عن وجهها كأنها مع بعض أهلها وعبد الله جالس أمامها وقد رفع اللثام عن وجهه فبان على نور الصباح جلياً ولم يبق عند الخليفة شك في أنه ابنه وأنها الزهراء بجارته فاضطرب وثارت غيرته لكنه صمت كأنه أصيب بالجنود . أما ياسر فكاد قابه يطير من الفرح لنجاح مهمته

وكان أول شيء سمعه قوله عبد الله « أنت تعلمين يا زهراء منزلتك عندي قبل الآن »

فأجابته « نعم أعلم .. ولذلك فاني بعثت إليك لأخاطبك بهذا الشأن ولو لا حبي لك لم أفعل »

قال « إن رضاك عزيز عندي ولكن طفح الكيل ولم أعد أستطيع صبراً .. »
فقالت « مهما يكن من طفاح ذلك الكيل لا أرى ما يوجب هذه النسمة »

فقطع عبد الله كلامها قائلاً « كيف لا أقم وقد عاملوني معاملة العبد المملوك لم يكف أنهم سلبوني ولاية المهدي حتى أصبحوا يسلبونني أسباب راحتني - هذه جارية اتنى واستلطفتها وطابها أخي مني فأعتذر لها فشكاني إلى أبي فبعث يطليها ليراها فارسلتها سبباً عنها لنفسه »

قالت « أهنا يجب كل هذه النسمة حتى تصر الغرباء على أبيك ؟ أليس هو ولد نعمتني ؟ أليس هو أمير المؤمنين وارواهنا حلال في قبضة يده ؟ - يجب أن تعلم أنني أحبك لأنني حلاً علمت بتغير قلبك على أبيك بعثت إليك أصح لك . ولو لا حبي وغيري على سيادي الناصر ولئن نعمتني لم يكن أسهل عليَّ من ان ارفع امرأك إليه وهو لا يعجز عن القصاص ... »

قال « أنه لم يتصرف معي كما يتصرف مع سائر أولاده وقد قال لي ابن عبد البر الفقيه وهو أعلم فقهاؤن من كان مثل أخي الحكم لا يتيق للخلافة لاشتغاله عن أمور الدين بالدنيا »

قالت « كانك تطبع أن تكون ولاية العهد لك ؟ »

قال « وما المانع ؟ لم يحدث ذلك في الاسلام ؟ .. ان الخليفة غير مقيد بمبادرة اكبر اولاده بل هو يحب ان يلاحظ اخلاقهم وقدرتهم »

فقطعتمت كلامه قائلة « ليس في ولي العهد ما يمنع مبادئه .. ثم لا اكن انتظرك ان تختلف اياك في شيء والا تكون قد ايقظت الفتنة .. فانا قد حملت ثمنه الربوة من سيدى الناصر لاني خاطبتك المررة الماضية على افراد وقد حددي فلم اف بشيء خوفاً عليك .. فاصغر الى قولي وارجع الى رشك فما انت اولى من اخيك بولاية العهد ولو كنت اهلاً فان طاعة مولانا الناصر واجبة وهو الذي اختار اخاك اما اذا كنت تنوى الخروج عليه فذلك امر آخر .. وانت اعجز من ان تستطعه .. »

وكان الناصر وهو جالس يسمع ذلك الحديث تردد فرائصه وقد اخذته الدهشة من عظم الاستقرار وكان يسترق المحفظ من بعد اخرى الى ياسر فيرى الفشل بادياً في مجاهداته و كانه اسقط في يده ومع ذلك فان اشتغال ذهنيهما بتسمة الحديث طاهما عن كل شيء

اما عبد الله فلا يسمع اسفاق الزهراء به هز رأسه وقال « انتظرين اني وحدى ناقم على والدي ؟ - اني آخر الناقدين لانه اساء الى كل الاحزاب واستبدل بالسلطة واستبدل رجال الدولة من العرب والبربر بالطيهان من الصقالبة فلذاك تقم الناس عليه .. ولو قلت كلة لاثن حولي الوف من اهل الحرب فيهم كثيرون مثل صاحب النعمة »

فلم تناولك الزهراء عند سماع ذلك الامر عن الوقوف ثم شغلت نفسها عنه وقالت « الله انت من امير مغورو .. اعلم اني نصحتك واعيد التصريح ثانية اذا لم تقبل فاني موعدة بامرك الى ايك لاني اضن بهذه الدولة ان تذهب فريسة الغزو وتدميها ابوك على هام الرجال فاحسأ بها دولة المسلمين وعزز الاسلام .. فلا تهدم بطيشك .. واشير عليك قبل ان تقدم على هذا العمل ان تستشير العقلاء »

فتابعتها قائلاً « قد اشتهرت الفقيه ابن عبد البر وهو اعلم الفقهاء وان كان والدي قد رذله وفشل عليه سواء »

وقالت « احسب هذا الفقيه هو الذي اغرى الائكي ايك انتقاماً لنفسه من الفشل الذي اصابه يوم ذلك الاختهال اذ انتفع عليه الكلام »

ففتح لك وهو ينهض وقال « انا اعقل من ان اتفاقد لسواي .. وسترين »

وقالت « لا بل ارجوان ترجع الى رشك وتمدفي ايك تائب من هذه الساعة والا فانك لن تغير خارج من هذا المكان قط »

قال «تهدديني؟»

ذالت «لا تستخف بي او تطمع باسترضائك فاني اضحي جياني في نفرة مولاي
ومولاك...»

فهز عبد الله رأسه استفجأ ومشى فصاحت الزهراء «ساهر»
فجاء ساهر باسرع من لمح البصر فشاررت اليه ان يعيش على الامير عبد الله فلهم عليه
وقد ارد وثيقاً شد به يديه وعبد الله ينظر اليه مستغرباً وهو يقول «اخشا يغلام ٠٠٠ الا
تعلم من انا؟»

فلم يحب ولكن الزهراء اجابت «انا اعرف من انت ولا يفترنك انه كان خادماً لك فقد
كان عيناً لي عندك خوفاً من مثل هذا الطيش ان ينال شعرة من مولاي الذاصر»

فلم ينالك الذاصر ان صاح من على الشرفة «الله درك يا زهراء»
فعرفت الزهراء صوت الخليفة وكانت قد توثقت من القبض على عبد الله فانسلت
واخترت اما عبد الله فانه اسقط في يده وجدد الدم في عروقه ولم يعد يتقطع الندم بساقه
ساهر الى سجن خاص واقفل عليه

الفصل الثالث والستون

اما الذاصر فنهض ومشى وياسر بين يديه وقد تولى الدهشة وبان الفشل واليأس في
وجيه ولم ينفعه بكلمة، وظل الذاصر مائشياً حتى دخل غرفته وقد اعدوا له المائدة فذهب اليها
فأ كل وهو لا يتكلم لعظم ما قام في نفسه من الامر الخطير وقد جاءه الخبر بفتحه فلم يدر كيف
يصرفه وكان على موعد من لقاء سعيد بدارت ارسله الى الزهراء بالامس يستطلع سر
اجتاءها بعد الله خطر له ان يستقدمه ليتحقق معرفته ويستشيره في الامر لانه أصبح شديد
الثقة به

اما سعيد فكان في غرفته في ذلك المساء ينتظر رجوع الذاصر فعلم من حركة اهل القصر
انه جاء فلبث بانتظار وصوله وبعد ساعة اتاه ياسر وقد امتنع لونه من الدهشة والفشل وقص
عليه ما كان وهو يأسف لأن مهمته ضد الزهراء لم تنجح وكان يحب سعيداً بشاركه في
الاسف او يشير عليه في شيء فتظاهر سعيد بشاركته في ذلك ولكنها وقع الرعب في قلبه

عفاقة ان يبيح الامير عبد الله بغيره فيذهب معه ادراج الرياح ويصبح في خطر القتل فاشار على ياسر ان يذهب ويكتم ما دار يتهاونى وبي بي سعيد وحده واحد يعلم فكرته وقد غلب عليه الفلق والخوف ولا بد من المبادرة او القرار

وهو في ذلك جاءه غلام الناصر بدعوه اليه حالاً خنق قلبه خوفاً لشلا يكون الناصر قد اطلع على شيء من سره ولكنه تجلد ووضع كتاب التسليم في جيبه ومشى بقدم ثابتة حتى دخل على الناصر فرأه في فراشه وقد أخذ الغضب منه مأخذًا عظيمًا وهو يظهر السكون والتكميم فوق سعيد بين يديه متأنياً ينتظر امره كالعادة فشار اليه ان يجلس فجلس على البساط جثوماً واطرق فقال له الناصر « افنتك استبطاني »

قال « نعم وقد كنت انتظر رجوع مولاي بفارغ الصبر »

قال « وماذا؟ »

قال « لا تبرك بروبيه ولا نقل اليه نتيجة المهمة التي عهد بها اليه »

قال « افنتك تمني خبر الزهراء وما دار بينها وبين ولدنا عبد الله »

قال « نعم يا مولاي »

قال « ما الذي دلّك عليه عملك؟ »

قال وهو يبتسم « لم أجده الا كلّ ما يحسن بالجازية الابiente الحبة »

قال « هذا لا يكفي ان كنت تعرف التسليم قبل ما هو الحديث الذي دار بينها؟ »

فاطرق سعيد وأخذ يقلب الكتاب بين يديه وينظر الى الناصر خلسة والناصر متكي

على جنبه الايسر وحده على كفه اليسرى وهو يراقب حركات سعيد فلا رأه يتردد قال له « مبابلك؟ قل الذي رأيته »

فاظهر سعيد انه يخشى التصرّع فقال الناصر « قل كل ما سمعت .. لا بأس عليك »

قال « سمعت شيئاً لا اجرس على التفوه به واكاد اكذب تذجيبي ولا اصدق لغزابه »

فخ JACK الناصر وهو يعتدل في مجلسه وقال « لا اكذب تحيسك بل كذب ظنك

بالناس خيراً . ألم نقل لي مرة ان الاذى يأتي من اقرب الناس اليه؟ »

فقال « يظهر ان مولاي الخليفة قد اطلع على السر من صواعي »

قال « نعم . قل اذا صريحاً ولا تبالغ .. »

قال سعيد وهو يظهر الاهتمام « اما وقد اطلع مولاي على ذلك الامر الفظيع فلا

اكتبه ما ظهر لي من الاسرار المتعلقة به »

قال « قل ارشدني اني مفترض بالمال من العصب وليس من الخوف »

قال « يحق لولي ان يتعذر على ابيه اذا اراد الغدر به »
 فلارأه كشف السر بالتجمّع حسب اعتقاده عظيم سعيد في عينيه وعزم على استشارته
 وأعمل برأيه فقل « قل الذي دلك عليه عليك ولا تخاذر »
 قال « ذلتني علي على ان الزهراء حفظها الله ابنته بالامير عبد الله ترده عن فاطمة
 كان يحول ارتكابها خد امير المؤمنين »
 قال « حدقت وما العدل الا ان ؟ . قل اني عامل برأيك »

فانشرح صدر سعيد لهذا النجاح وعوّل على قطع السبل المؤدية اليه فاعاد النظر الى
 كتاب التنجيم ورمي الجنور في الدار ثم اطرق يفكرو ويقلب صفحات الكتاب والناصر يتنظر
 فراغه من الشعراي والتبخير ورأى عينيه تحرران وتدمدان وقد تبدلت صفتنه . واخيراً وضع
 الكتاب مزدهداً وأشار بيده جميعاً اشارات القبض وقل « ابضم عليه حالاً .. ابضم عليه
 وعلى رفيقه في منزله انه شريكه في جرم .. واقبض على رجل ثالث كان معلم الليلة ..
 فاذا قبضت على هؤلاء بادر الى الاعدام .. الى الاعدام انبقاء واحد منها يفهي الى
 الفتنة ، والخازم من اجاث شجرة الشر من جذرها .. هذا هو رأيي فلنه بصراحة وقد
 تقضت بيدي من خطر المستقبل ان لم يعمل امير المؤمنين برأيي »
 وكان الناصر يسمع كلام سعيد وينتفع به جيداً وهو يتبوى ان يعمل بكل حرف منه
 بعد ان تحقق ترجيمه وسداد رأيه مراراً
 اما سعيد فلا فرغ من كلامه اظهر انه تعب واخذ يرتعش كأنه اصيب بالبرد او قال
 له الناصر « ما بالك يا حكيم ؟ »

قال « اني اخاف ان يتأخر ولولي وتأخذنه الشفقة فيذهب بالدولة الى الخراب -
 يقبح الآن على قبيه الامير عبدالله الذي يشن من منصب القضاء فنقم على اخليفة ولا دخل
 للبر في شيء منه سوى اسمه .. ويتبع اياها على رفيق امير المؤمنين الليلة فانه شريك في
 الامر واذا سأله امير المؤمنين نفسه يعلم ان هذا الاخير من اكبر الاعداء مع انه من اقرب
 المقربين . ويفعل ذلك سريعاً وسرعاً فان لم يفعل فاني اول المائتين »
 فحمل الناصر منه هذا التعبير محمل النية الشديدة على الدولة وخاف ما خوفه منه
 وخصوصاً لأن كلام سعيد عن كل من الثلاثة وافق ما في نفسه فامر بعض غلاته ان
 يبغض على باسمه شيئاً كان ويزوجه في السجن وبعث اخرين الى تصر مروان للقبض على
 ابن عبد البر وحمله الى تصر الزهراء حالاً

الفصل الرابع والستون

الانتقام السريع

وظل سعيد جالساً ينتظر امر الناصر بالانصراف فلم يأمره فاظهر انه يبكي فقال له الناصر «ما بالك يا حكيم»

فدرك عينيه وقال «لا شيء يا سيدي»

قال «لا بل انت تبكي لامر ما»

قال «ابكي على الامير عبد الله فإني كنت احبه وقد خسرته ولكن امير المؤمنين خير منه .. الا يرجو سيدتي رجوعه؟ ..»

قال «كيف ترى انت؟»

قال «لا ارى دواه لهذا الامر غير السيف وادا خفت الحياة فاقطع رأسها والا فانت في خطر منها .. اني ارى رأي عبد الملك بن مروان مع سعيد بن الاشدق وقد سار اليه وصار من اعوانه بعد ان خرج عليه وحاربه اما عبد الملك فلم ير خيراً من قطع الرأس فدعا ابن الاشدق اليه وقتله فامن الفتنة بعده .. تلك ميساة بني امية في الشام من معاوية لما بعده وكذلك فعل جدك عبد الرحمن الداخل وغيره من رجال الحزم والدهاء .. اذا خفت جماعه فاقطع راسهم والذي يظهر من ترجيhi ان الامير عبد الله يوشك ان يجعل نفسه رئيس عصابة ولكن ..»

قال الناصر «يظهر انك تخاف ان يغلب علي الحنوفastiبي عبد الله .. كلامك لا اني قد سمعت تهدىده باذفي واما ابن عبد البر الصعيف الساقط فلا بد من قتله لانه من جملة المغرضين واما ياسر فقد تعبت من دسائه وشكاريته وكأن الزهراء قاتلت اباه فلا ينفك يشكوك منها او يعرض بها وقد تبين اليوم تحالفه عليها .. اني قاتل اولئك الثلاثة قبل ان يطلع النهار»

قال «يجهبني سداد رأي امير المؤمنين .. تلك كانت ميساة المهاة من اسلافك اذا خافوا رجالا قتلواه سراً فيامنون غوغاء، الاحزاب»

قال «اذهب الى فراشك ونم مطمئناً وغداً ثقى لوحًا على باب القصر وقد كتب عليه ما فعلناه»

فنهض سعيد تأديباً وهو يقول «نصر الله مولانا على اندائه وايده بروح من عنده

ولاشك عندي ان مبادرته الى القصاص على هذه الصورة توقع الرعب في قلوب اوثاثك
الاغرار الذين يغرون بطيشه و اذا امر مولانا ان يكتب على ذلك اللوح عباره تهدىد
يشار بها الى سائر العصاة كان فيها رهبة لهم فیأمر امير المؤمنين ان يكتب على ذلك اللوح
« وهذا جزاء الخائنين و مبنائهم من هذا حذوه و خموصاً صاحب النعمة »

قال « اصبت بورك فيك » وتزحزح اشارة للانصراف خرج سعيد وهو ينظر الى
السماه و يداه مرفوعتان يدعوان الخليفة بالنصر وذهب الى فراشه وهو يخاف ان يعدل الخليفة
عن قتل اوثاثك الثلاثة قبل ان يوح احد منهم بأمره
واصبح اهل القصر في الصباح التالي فرأوا على بابه الكبير لوحًا قد كتب عليه ما مدهاه :
« قد أقْتَلَ حُكْمُ الشَّرِيعَةِ الْفَرَاءَ بِالْقَتْلِ عَلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدِ بْنِ
عَبْدِ الْبَرِّ الْفَقِيهِ وَيَاسِرِ الْفَقِيهِ رَئِيسِ خَصِّيَّانِ الْقَصَرِ قَصَاصًا عَلَى خَيَانَتِهِمْ وَخَرْوَجِهِمْ عَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ حَامِيِّ الْمُسْلِمِينَ وَمَوْلَدِ الدِّينِ وَعَلَى وَلِيِّ عَهْدِهِ . قُتِلُوا خَوْفَ الْفَتْنَةِ وَهَذَا جَزَاءُ
الْخَائِنِينَ . وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ يَا أَوْلَى الْأَلَابِابِ . فَلَيَعْتَبِرُوهُمْ كُلُّ مَنْ مُسْؤُلٌ لَهُ نَفْسُ الْإِمَارَةِ
بِالسُّوءِ أَنْ يَنْبَذِ الطَّاعَةَ وَيَخْرُجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ وَأَوْطِمَ ذَلِكَ الْخَائِنَ صَاحِبَ النَّعْمَةِ »
لم يطمأن سعيد حتى قرأ اللوح وتحقق بمحاته من الفضيحة

الفصل الخامس والستون

اما الاخير وبعد خروج سعيد من عنده امر بقتل اوثاثة^(١) حالاً بدون ان يراهم وبعد
قليل جاءه الجلاّد انه فعل فاما من بكتابه اللوح ونذر ازهراه وفضلها وصدق موتها وكان
الليل قد مُدْعى مفظمه فلا يصبر عن رؤيتها فبعث اليها يستقدمها اليه ليشكراها ويسخرها
انه قتل اوثاثين او كانت قد نامت فنهضت واصلحت من شانها وات اليه وهي تستغرب
ذلك الدعوة المستحبة

دخلت عليه فرأته جالساً على السرير وبين يديه لوح يقرأه ويزن رأسه فلما دخلت
وضع اللوح الى جانبه ورحب بها قائلاً « مرحباً بالحبيبة الصادقة »
فاكبث هي على يده تقبليها فقبلها وامرها ان تجلس الى جانبه فلست مطرقة فقال لها

(١) نفح الطيب ٩٧٧ ج ٢ وابن خالدون ٤٣ آج ٤

« تدأّلنا الفلن بك وانت بربة من اسباب الريّة »

قالت « افي جاربہ امير المؤمنین وهو دلي نعدي اندبه بروسي ولا انقل لي »

قال « بل لك انقل فانك اعدت مودة الى من ابقي .. ذلك ظعن . قد سمعت ما دار بينكما باذني .. الله درك من حدبة اهينة وتبّ له من خائن مارق .. »

قالت « كيف عرف سيدی بوجود ابته هنا وعهدي ابك في قربابة »

قال « داني عليه ياسر المخائن حال وصولي وقد اراد الاقاع بك فاخذني الى تلك الشرفة وارايکما تخدنان فلما رأى براءتك من التهمة التي وجهها اليك خجل ولكنه ذال جزاءه »

قالت « اما عبد الله فتي سأعود الى مخاطبته وانا على ثقة من ندمه ورجوعه لان في فطرته شيئاً من طيب عنصر والده وانا اغتر باقوال انس الدين كالفقيه ابن عبد البر وامثاله اما هو فنه طيب القلب حسن الاسلام كلام لا ينفع على امير المؤمنين »

وكان الناصر طرزاً يجذبها لانه كان يطرب لكل حركة من حركاتها فلما انتت على عبد الله وقالت انها كانت ترجو اصلاحه احسن بشرعيه في قتها وشعر بالندم لكنه تذكر الخطر الذي كان يهدده لم يفعل فبادر الزهراء قائلاً « انا لا ارجو صلاحاً من يخون اباه وآخاه وعلى كل حال فقد قضي الامر » ورفع اللوح بيده ووجهه نحوها لقراءه فلما انت على بعضه حق صاحت « ويلاه قات عبد الله .. » ولطمته وجهها ونظرت الى عيني الناصر وفبرست فيهم اكامها تفهمهما فرات الشر يكاد يتظاهر منها فأعادت قراءة اللوح حتى بلغت الى ايم صاحب التهمة فاقشعر بدتها لانها تذكرت اخاهما وانه سيقتل مثل تلك الفتنة ففتاب عليها البكاء لاسبيعين معاف فظنها الناصر تبكي على عبد الله فقال « ما بالك تبكي ؟ »

قالت « ابكي على شباب عبد الله .. »

قال بلعن الغضب « اتبكين على الخائن وانت اعلم الناس بخيانته ؟ »

قالت « او ليس هو بضعه من امير المؤمنين ؟ فكيف لا ابكيه وقد كنت احببني ارجعه عن خطائه »

قال « انت امرت بالتبغض عليه بعد ان يثبت من اصلاحه »

قالت « قبضت عليه ارجاباً ولم يكن عذبي رب من ندمه في الغد ... ولكن ويلاه ... هل قتل عبد الله فعلاً ؟ »

قال « نعم قتل وكذلك سيقتل امثاله المخائون .. وبعد ان يعلموا اني قاتلت ابني

هذه المخيانة فلابد من الانفاسهم اذا وقعا في يدي فاني قاتلهم جميعاً والقتل انفي لقتل»
فتدبرت اخفاها وما يكون من اسره اذا وقع في قبضة الناصر فاحببت ان تستطلع
رأي الخليفة في العذو عن امثاله فقلت «واذا رجعوا ناثرين ؟»
قال «اقتل ابني واعفو عن سواه ؛ لا يقع في يد واحد من الحسينين الا قتله
اياً كان»

فوقع قوله في نفسها وفجأاً شديداً لأنها تعرف شدة الناصر وبطشه وزادت خوفاً
من ذكر اسم أخيها ورات تأجيل طلب العفو له الى فرصة أخرى . وهي لاتعلم مع
ذلك اذا كان أخوها يرضى بطلب العفو فرات ان تفعمه اولاً بالرجوع ثم توسط له
بالعفو عنه

وبعد قليل أمر الخليفة بالصرافها وبعث اللوح لتعليقه بباب وتوسيط بطلب الرقاد
فتذكر ما دار بينه وبين الزهراء فتصور له ابنته عبد الله عند آخر نظرة فغلب عليه
الحنين واخذ الندم يتسرّب الى اعتقاده شيئاً فشيئاً وهو يغالبه ويتحلّل الاسباب التي
تسوغ السرعة في القصاصات تحياماً من الفتنة لكنه مع ذلك غالب عليه الارق وتولاه
القلق فلم يغمض له جفن وهو يتقلب كأنه نائم على الشوك

ومما طلع النهار احس بضعف وانقباض فاستدعى طبيبه سليمان بن تاج فأذاه
سرعاً فشكى اليه حاله وكان سليمان قد قرأ اللوح المعلق بباب فعلم سبب ذلك الاحرار
فوصف له بعض المنعشات او المبردات في اصطلاحهم وقل «لا يخفى على امير المؤمنين
سبب هذا الاحرار والعلة تزال بضدها . فيستحسن ان يلهم سيدی بما يشغله
عن التفكير »

قال «وكيف ذلك ؟

قل «تأمر جارية مفتية تفنيك الحناناً مفرحة .. فان من الاحان ما يبعث على
الحزن ومنها ما يبعث على الفرح . وعرفت فيلسوفاً من ابناء مهنتنا اخترع الحناناً
تضحك وآخر تبكي والحانة تفرح او تغضب لغير سبب موجب للضحك او البكاء
او الفرح او الغضب وانما يجري ذلك من وقع الاحان على النفس .. واظن ذلك
الفيلسوف قد مات الآن ولا اعلم اذا كان عالم احداً بهذه الاحان »

فتدبر الناصر ان عابدة تحسّنها فقال «ان جاريتنا عابدة تعلمت هذه الاحان من
معلمها سعيد الوراق ..

قال ابن تاج «ان سعيداً هنا من عجائب الدنيا لا يوجد شيء من العلوم

لا يعرفه حتى الموسيقى ! فذا شاء مولاي امر جارته عابدة تجاليه فتسقيه هذه المطربات
وتغنيه على افراد فاني ارجو شفاءه عاجلاً »

الفصل السادس والستون

عايدة

فاستحسن الناصر هذا الرأي واثار اليه ان يغنى لتحضير العلاج وارساله وبعد
بعض الفلمان الى سعيد فاقى فقص عليه ما اشار به الطبيب فاظهر موافقته على ذلك
العلاج واستأنذن في النهاب لاستقادتها وقباه يكاد يطير من الفرح لشوح هذه
الفرصة ليتم بها غرضه

وكانت عابدة في غرفتها وعندتها بعض الجواري يخدمنها « و منتشر على ذلك
اللوح وهن يستغربن وقوعه بهذه السرعة فلما رأت سعيداً قادماً اسرعت اليه وقد
زادت ضربات قلبها وعلت الحمزة وجنتها وايرقت اسرتها . فشيء هو امامها الى غرفته
فلما دخلت سالت عليه فهش لها واستدتها فأجلسها الى جانبه ولاطفها ووضع ذراعه
على كتفيها كانه يضمها تحبباً فاحست بشعريره لم تشعر بثماماً من قبل . فزاد تورده
وجنتها ولمت عيناهما واطرقت خجلأً وقاما يخفق فرحاً وهياماً فقال لها « قد آن
الوقت ودنت الساعة وانا متوقف سعادتنا عليك »

فقالت « متوقف السعادة على ؟ على ؟ انا ؟ اني رهينة مأربيد في سبيل هذه السعادة »
قال ذلك بلغة الحب المتفاني

قال « نعم عليك ؟ .. اين الورقان اللاتان اودعهما عندك .. هل انت
محفظة بهما ؟ »

فثارت اليه اثار العاب وهي بتسم وقلت « كيف لا احتفظ بوديعتك بل كيف
اقدر ان اخافف لك امراً » ومدت يدها الى جيبها واستخرجت الورقتين في صرة
ودفعتهما اليه

فتاول الصرة وقال « انتمين ما هو داخل هذه الصرة »

قالت « ورقان »

قال « وما فيهما »

قالت «احب فيما سأ .. فهل هذا صحيح؟»

قال «الصحيح ما اقوله لك الان» وحدق في عينها شولت بصرها عنه واحسست
كان سهماً اخزق احثاًها او جرى كهربائياً تسرب في عروقها فاطرقت وهي تنفس
فاثم سعيد كلامه قائلاً «ان في هذه الوراق مخدراً ينام صاحبه نوماً طويلاً»
فتالت «نعم»

قال «فهمت؟ ان في هذه الوراق منوماً لا يقطة لها بدونه»
فرفعت بصرها اليه ولم تخسر ان تنظر في عينيه وقالت «لم افهم مرادك يا سيدى»
قال «الاذكرين اي سألك يوماً ونحن في الارياس اذا كنت تحماين خطر
القتل من اجل الحب»

قالت «نعم وادرك اي قبات انت تحمل كل خطر ، وانا الان اعترف بذلك
وافتخر به»

قال «اعلمي ان الخليفة يشكو من ارق واتقباض فوصفت له الطبيب من يسامنه
او ينادمه بالغناه بالحان مطربة وذكر له الالحان التي استبططها الفارابي لاصنونك والطرب
والخليفة يعرف انك تحسنين هذه الالحان فطلب اليه ان ادعوك اليه وافهمك ما يلزم
فها اي قلت لك» وسكت

فظلت ساكنة تستقر حنة الحديث فرأته شغل عنها بمحاجة عشوئه فتالت «لما علاقتك
هذا بالخطر؟»

فتشوض وقال «لما علاقتك بيئها صدقت .. دعي هذه الوراق مي وقومي لما دعمة
الخليفة فاني اخاف ان يستولي عاليكضعف»

قالت «لا مختلف من شيء» فان أمرك يبيت في قوة وشجاعة»

وهو يعلم ان امره تافد عندها ولو بغير ارادتها وقد اختبر ذلك مراراً فاما امرها
وشدد امرها وانظر في عينها وهي تنظر في عينيه استهواها فتعمل ما تؤمر به حرفيًا
وهو ما يعبر عنه علماء اليوم بالتويم المغناطيسي . ولم يكن تعاليه معروفاً في ذلك العصر
او ربما عبروا عنه بالسحر — فلما قالت له ذلك امسك يدها بين يديه وحدق في عينيها
وامرها ان تنظر في عينيه ففعلت فدفع اليها الورقتين وقال لها «اني آمرك ان تسقي
ما في هذه الورقة للخليفة الناصر في هذا اليوم»

فارتعدت وغلبت على امرها وقالت «سأفعل ذلك يا سيدى»

قال «اسمي يا عايدة ضي هذه الورقة في جيبك واذهبي الان الى الخليفة وهو

في غرفته على فراشه ومعك القانون والعود وغنية واطاريه واسقيه من الشراب الذي
وصفه الطبيب .. فهمت ؟ »

قالت « نعم » وهي تتحقق في عينيه ويدها ترتعش بين يديه
قال « فإذا سمعت أذان نصف الليل أعمدي إلى هذه الورقة سي ما فيها في كأس
الشراب وقدميه الخليفة . وبعد أن يتساوله ببعض دقائق يغاب عليه النوم ويبيق نائماً
إلى الأبد »

فقالت « نعم .. ماذا أفعل بعد ذلك »

قال وهو يخرج الورقة الأخرى « وبعد ذلك تأميني إلى هذه الغرفة فإذا لم
تجدبني فيها فانك تجدين قدحاً فيه ماء صحي فيه هذه الورقة وأشرب منه فتتأمين رغماً
آتيك وقد أعددت كل ما يلزم للفرار إلى محالنا حيث تكون قد قاتلناها علينا وقد درست
كل شيء »

فتآثرت الورقتين وخباهما في جيبها ولم يسد عليها اضطراب أو خوف لكنها

قالت « هنا آخر سعينا في سبيل السعادة ؟ »

قال « نعم .. أمشي وانتبهي لأذان نصف الليل »

فهمضت وتناولت العود وسارت إلى غرفة الخليفة واحتلت مقبه وتسقيه كما

وعلماها الطبيب

الفصل السابع والستون

القرار

اما سعيد فـكـثـت بعد ذهاب عـابـدة مـدة صـامـناً يـفـكر بـخـطـارـة الـأـمـر الـذـي يـعـثـبـهاـ به
وكـيفـ انـهاـ طـاوـعـتـهـ بلاـ تـرـددـ فـلـمـ يـقـيـعـ عـلـيـهـ الاـ انـ يـفـرـ بالـزـهـراءـ وـارـادـ انـ يـقـتـلـ النـاصـرـ
مخـافـةـ انـ يـبـعـثـ فـيـ طـابـهـ بـعـدـ فـرـارـهـ باـحـبـ جـوارـهـ إـلـيـهـ .ـ وـانـ يـقـتـلـ عـابـدةـ ليـقـعـ
امـرـهـ مـكـتـومـاًـ

فـذـهـبـ إـلـىـ الزـهـراءـ فـيـ غـرـفـهـ فـقاـبـهـ جـوـهـرـ بـالـبـابـ فـسـأـلـهـ عـنـهـ فـقـالـ «ـ انـهـ ماـ فـتـئـتـ
مـنـذـ عـلـمـتـ بـقـتـلـ الـأـمـرـ عـبـدـ اللهـ وـرـفـيقـهـ وـهـيـ مـنـقـصـيـةـ النـفـسـ لـأـنـكـلـامـ أحـدـاـ .ـ فـلـمـ سـمـيـعـ
انـهـ مـضـلـلـيـةـ الـخـاطـرـ عـلـىـ أـخـيـهـ !ـاـ قـرـأـتـ اـسـمـهـ عـلـىـ لـوـحـ الـاعـلـانـ بـاعـدـامـ هـؤـلـاءـ .ـ فـقـالـ

« استاذن لي يمثاحدتها » فاجابه مطيناً وقد عامت انه من رجال سعيد وقد ادخله بلاط الناصر جاسوساً فهو يستولى في خدمته ومحتفظ بسره عاد جوهر وأشار الى سعيد ان يدخل فدخل وهو يمشي الهونا كانه يفكر في شيء شغل خاطره فوجد الزهراء جالسة على وسادة وقد استدلت خدها بكفها واستقرت في التفكير فلما شعرت بدخوله رفعت رأسها اليه ففترست فيه لحظة ثم عادت الى الاطراف

فتقديم نحوها وقال « هل رأيت صدقى ؟ »
فلم تجيه

قال « يا حناء قولي . هل علمت اني قات لك الصدق عن أخيك ومحمدتك النصح في كيفية افراذه ؟ »

فرفعت بصرها اليه وقد تلاً الدمع في عينيها وبدت ملامح العتب والاسف في محاجها وقلت « آه ليتك لم تقل شيئاً ولو بقيت جاهلة أمر اخي لكانت خيراً لي من ان ارتكب في سبيل انتقامه خيانة سيدتي وولي نعمتي »
وقال « اراك تزدادين حباً به »

قالت « كيف لا ولم ارَ منه شرّاً بل لم اسمع منه كلمة سوانى . وقد رفع متربي وقدمني على سائر نساءه وبين هذه القصور حباً بي .. كيف لا احبه ؟ بل كيف لا ابغده ؟ هذه هي الحجة الخالصة و ... » وسكتت كأنها عزمت ان تقول شيئاً وامسكت نفسها حباء

ولم يفته انها كانت تشير الى محبتة غير الخالصة فقال « تعيرني بمحبة الناصر يا حناء ؟ لماذا لا يحبك وانت تفعلن في خدمته ؟ واما القصور فقد بتها لنفسه وحاشيتها . واما الحب الصادق فهو الذي يرى ثورك ويأتي السعادة بعيداً عنك يرافق الملك ويحترف التمجيم والتعيم للوصول اليك يعرض حياته للخطر من اجل حبك .. هذه هي الحجة الخالصة وهذا هو الحب الصادق .. دعينا من هذا الان وقولي هل انت عازمة على افراذه اخيك ام لا ؟ وقد رأيت اليوم بنفسك مقدار غضب الناصر عليه »
فاجعلت وقالت بحن الانكار والنذل « فهم عرفت »

قال « اذا كانت نجاته لا تهمك فذلك امر آخر »

قالت « انت تعلم ان نجاته تهمي كثيراً ولكن الطريق وعر »

قال « ولابد دون الشهد من ابر النحل . ومع ذلك فاني لا ارى مشقة عليك في

الخروج من هذه القصر ليلة واحدة ونعودين في الصباح واخوك معك وتستعطفين الناصر عليه ثم تستقدميه كـا تثنين .. اذا كنت عازمة على الخروج معي قولي والا فانا ذاهب » قال ذلك واظهر انه يريد الخروج فابتدرته قـة « وتمددني ايضاً اهكنا تكون الاربعة ؟ الاي في حاجة الى خدمتك تنهري ؟ » واغرورقت عينها بالدموع

بنـا يـن يـديـها وـتـظـاهـرـ بـالـتأـثـيرـ مـنـ قـوـطـاـ وـقـالـ « حـثـاـ اللـهـ اـنـ اـمـدـدـكـ فـانـ اـنـاـ النـسـ رـضـاـكـ وـابـذـلـ حـيـاتـيـ فـيـ سـيـلـ جـبـكـ .. اـنـتـ صـاحـبـ الـامـرـ قـولـيـ وـاـنـاـ فـاعـلـ ماـ تـرـيدـيـنـ حـتـىـ المـوـتـ اـنـيـ مـسـتـعـدـ لـاستـقـابـالـ بـاسـمـكـ .. آـمـ لـوـكـانـ لـكـ قـلـبـ مـثـلـ قـلـبـيـ فـدـرـكـينـ مـقـدـارـحـيـ لـكـ وـلـكـنـ قـاسـيـةـ القـلـبـ .. وـطـلـماـ وـصـفـتـكـ بـهـنـاـ الـوـصـفـ » فـتـهـيـتـ تـهـيـأـ عـمـيقـاـ وـقـالـ « سـاحـكـ اللـهـ عـلـىـ هـذـهـ الـهـمـةـ اـنـ اـكـادـ اـكـونـ عـجـولةـ بـالـحـبـ .. وـاـذاـ اـجـبـتـ فـالـىـ حـدـ التـلـفـ .. وـلـكـ مـنـ حـدـيـثـيـ بـلـامـسـ مـعـ قـبـيلـ هـنـاـ النـهـارـ اـحـسـنـ مـثـالـ »

فـقطـعـ حـدـيـثـاـ قـعـلاـ » يـظـهـرـ انـكـ لـمـ تـنـغـيـ اـحـدـاـ سـوـايـ ؟ » قـالـتـ « اـعـتـرـفـ لـكـ يـاسـيـديـ اـنـيـ لـمـ اـحـبـكـ وـلـكـ اـنـاـ صـدـقـتـ الخـدـمـةـ فـيـ اـقـاذـاـخـيـ فـانـ اـحـبـكـ وـلـوـ مـنـ قـبـيلـ الـامـتـانـ » فـظـرـ اليـهاـ شـفـراـ وـقـلـ « اـقـولـ اـنـيـ مـيـتـ فـيـ جـبـكـ وـقـدـ رـكـبـ كـلـ هـرـكـ خـشـنـ فـيـ سـيـلـ وـاـنـتـ تـشـرـطـلـيـنـ فـيـ حـيـ الـفـ شـرـطـ ؟ .. آـمـ اـحـوـجـتـيـ اـنـ اـبـوـحـ لـكـ بـذـبـ اـرـتـكـبـتـهـ فـيـ هـذـاـ النـهـارـ مـنـ اـجـلـ جـبـكـ » قـالـتـ « وـمـاـ هوـ ؟ »

قـلـ « اـنـتـ تـعـلـمـيـ حـيـ الـامـيرـ عـبـدـ اللـهـ وـقـدـ كـنـتـ عـنـدـ مـعـزـزاـ مـكـمـلـ كـنـيـ اـعـلـ اـنـهـ عـارـفـ يـقـرـ اـخـيـكـ شـفـقـتـ اـذـاـ اـسـتـطـقـهـ اـخـلـيـفـهـ اـنـ يـدـلـهـ عـلـيـهـ فـيـقـتـهـ .. فـاشـرـتـ عـلـ النـاصـرـ اـنـ يـبـادرـ اـلـىـ قـتـلـ عـبـدـ اللـهـ وـقـتـلـ رـفـيقـهـ بـدـونـ اـسـتـطـاقـ وـقـدـ فـعـلـ .. اـلـ تـعـدـيـنـ ذـلـكـ فـهـنـالـاـ لـيـ ؟ »

فـانـطـلتـ حـيـاتـهـ عـلـيـهاـ وـصـدقـهـ وـقـالـتـ « صـدـقـتـ »

قـالـ « وـقـوـلـيـنـ اـنـكـ رـبـاـ تـحـبـيـنـيـ اـذـاـ اـنـقـذـتـ اـخـاـكـ ؟ »

قـالـتـ « اـتـرـيدـ اـنـ اـخـدـعـكـ ؟ .. هـذـاـ مـاـ اـشـعـرـ بـهـ وـسـرـىـ »

قـالـ « لـاـ اـفـعـلـ شـيـئـاـ لـاـ يـرـضـيـكـ وـسـرـىـ .. وـاـنـاـ رـاضـ بـتـأـجـيلـ الـحـبـ حـتـىـ خـدـمـتـيـ . فـقـولـيـ الـآنـ هـلـ تـنـهـيـنـ ؟ »

قالت «ألى أين؟ ومتى؟»

قال «تذهبين معي الليلة الى ارباض قرطبة حيث تلائين اخاك كا قال لك ؟ فرفعت نظراها اليه وقالت «كيف اذهب ؟» خدق في عينيها شديداً وقال «تذهبين مشكورة على بغلة ثياب صاحب البريد وعسك جوهر الخادم وانا الاقيك خارج هذه القصر ونذهب معنا وسترين ابي صديق صادق تولي نعم .. قولي لا تكوني خائفة فما ذر بالذلت غير الجسور» فاختست بفعل الارادة فنهضت وهي تنهد وكأنها تذهب للخروج وقالت «متى اخرج ؟»

قال «اخرجي بعد الغروب وفي ركبك جوهر»

قالت «وبعد ذلك؟»

قال «وبعد ذلك اخرج أنا من باب آخر ونلتقي معاً خارج هذه القصور في الطريق المؤدي الى قرطبة ثم ترافق الى اخيك»

قالت «هل انت واثق أنني اجدك هناك ؟»

قال «نعم»

قالت «هذا آخر اجتماع لنا ، ما ؟»

قال «لا حاجة الى الاجتماع بعد هذه فقد تم الاتفاق ييننا اخرجني انت مع جوهر الا ثالثين بامانته ؟»

قالت «نعم»

قال «أخبر به بعزمك على الخروج الليلة لمساعدة امر يهمك ولا تخبين ان يعلم اهل القصر بخبر وجلك واشيري عليه ان تتذكرني بشوب صاحب البريد فلن صاحب البريد لا يسأل عن خروجه ودخوله وخصوصاً اذا كان معه احد غلام الزهراء وتولي له ان يهيء لك الثياب والبغلة»

فوقفت دنीة وهي مطرقة تعلم فكرتها كائنة تتردد فيوان ان تعدل عن عزمها فقلت «اذا كنت تخفيين الخروج فما انت اهل للحصول على اخيك»

فما ذكر اخاهما عادت اليها بحارتها وقالت «نعم اذهب .. وسنلتقي بعد المشاء في الموقف الثاني في الطريق بين الزهراء وقرطبة»

فقال «بارك الله فيك وانا ذاهب لك في هناك» وخرج

الفصل الثامن والستون

الارباض

وكان حرس باب القمر في ذلك المساء جلوساً يتحدثون بما علوه من مقتل الامير عبد الله وابن عبد البر ويأسرون ويستغربون وقوعه وقد اتهم الاوامر الشديدة بالاتياء الى من يدخل القصر أو يخرج منه . وهم في ذلك سمعوا قعقة لجام البريد ثم رأوا البغلة وعليها راكب بثياب صاحب البريد وقد تعلم . والى جانبها جوهر على بغلة فهم الحرس ان يعترضوا فقال لهم جوهر « هذا يبد مولانا الزهراء » ففتحوا لها بخربها فليا صارت الزهراء خارج القصر منفردة غلت عليها الوحنة والنفثت الى ما حولها فإذا هي وحدها في صحراء رملية وكلا بعدت احست بالظلم لأن انوار تلك التصور كانت توائسها حتى اذا وصلت الى الموقف المعبعد وقت وادار جوهر يائلاً نحوها وسألها عن تفاصيله فقالت « الى اين نحن ذاهبون ؟ .. ما هذا ؟ .. كيف خرجت من قصري وانا فيه كالمملكة المشسلطة حتى على الملك نفسه »

فقطم جوهر كلامها قائلاً « لا تزالين يا يدي في صاحبة السيادة وفي الند تعودين الى قصرك ومعك اخوك وتخلصينا من انتقامتك وعيشك » .. وكان جوهر خفيف الروح وهي تستأنس بكلامه فاعجبها تعبيره فقالت « هل الباقي اخي ؟ يا جيدنا ذلك »

قال « لا بد من لقائه .. والا فلماذا خرجت؟ »

وهمت بالجواب وعينها شاخصتان في متهى الطريق تنظر بعيون سعيد وبقلتها تنظر بعيون سعيد شغلاً شج ظهر عن بعد من ناحية القصر فاسرع جوهر يبلغه للراقهه . ثم عاد مسرعاً وبشر الزهراء انه سعيد فلم تدر اقرح أم هرون لانها كانت لا تتجه ولكنها لازم بدأ منه أملأاً بلقاء اخيها فنزلت صامدة حتى وصل سعيد اليها خفياها وقال « هل انت من تاجة ؟ .. »

فاجابت برأها « ان نعم »

فأواماً لها ان تسوق بقلتها بجانبه وساروا . وكانت قد تعودت الركوب لأن الناصر كثيراً ما كان يصطحبها في خروجه للصيد أو التنزه وركوب البغال سهل

ساروا برهة لا يتكلمون حتى اطلوا على الجسر المؤدي من قرطبة الى ارباضها فوق الوادي الكبير فسمعوا دوي الطواحين . وكانت الزهراء لم تسمعها من عيد بعيد لانها لم تمر على ذلك الجسر من عدة اعوام — قياما على الجسر وقد مفى هزيع من الليل اشرفوا على الارباض وهم ساكتون . وكانت الزهراء كلاما بعدت عن القصر خطوة اثنتين من اندم خطوتين . فلا دخلت الارباض ورأت ما هناك من المذل الحقيقة احست بالقلاque نفسها واستوقفت بقلتها وقالت « الى أين نحن ذاهبون ؟ »

فبادر سعيد اليها وقال « الى سالم »

قالت « أرى سفرا طال كثيراً »

قال « لم يبق الا القليل »

وطلوا سائر بن فرأوا انهم يجاوزوا الارباض فصوّرت ان سعيدا يخدعها . فاؤقت بقلتها وقالت « أرنا خرجنا من حدود قرطبة »

قال « نحن على مقرية من المكان لا تخافي » و بعد قليل اطلوا على الوادي الكبير ثانية حتى صاروا عند الشاطئ . عرفوا ذلك من لمان سطح الماء عن بعد واصناع صورة السهام عنه

ثم وصلوا الى بيت مفرد قرجل سعيد وترجل جوهر واعان الزهراء في النزول فنزلت واخذت قواها وتفعف من الخوف وكانت تعتقد انها وقفت في الفتن ولكنها قبلت واطاعت سعيداً واللقيت الى ما حولها فإذا هي في باتين نليلة الماردة . وقد ساد السكون في ذلك الليل فلا يسمع فيه غير خرير ماء الوادي . ثم مالت بنت ان رأت كلباً كبيراً خرج من ذلك البيت وأخذ يحوم حول سعيد ويقفز عليه — وهو سلام المعرفة عند الكلاب . فعلت الزهراء من ذلك انهم وصلوا المكان المقصود وصارت تتوقع ان ترى أحدهما او احداً يأخذها اليه

الفصل التاسع والستون

الخوف

وبعد ان ترجلوا تداول جوهر ارسان البغال واخذ في شدهما الى بعض جذوع الشجر هناك . وأشار سعيد الى الزهراء يان تمشي معه فشت وهي تخاذل ان يمسها ذلك الكلب بسوء وقلبها بتحقق حذرآ من الخديعة . أما سعيد فكان يلاحظها حتى دلت من البيت فتناول من

جيده متناحماً فتح به الباب ودخل والظلام حالت فترجمت وقلت « لا ادخل على الظلام »
فثار معيها حداً ودعاه فدخلت الى بيت مفروش فرشاً بسيطاً فشار اليها ان شلس
فقالت « اين اخي ؟ »

قال « ليس هو هنا واغا اردت ان تسرميحي هنديه »
فاجفلت وقالت « استريح ؟ كنت افضل ان نظل سائر بن حق فصل اليه قدمي معظم
الليل وسider كنا النهار وينبغي ان تكون في القصر في صباح النهار »
ففحشك وقال « لا بأنس منكون هنـاك كـما تقولين » قـل ذلك وخرج
فالتفت حولـا فـلم تزدد الا وحـشة وانـذـت تـفكـرـ فيهاـ لـنهـ منـ الطـيشـ فـرجـتـ الىـ
لم تـشعـرـ انـهاـ كـانـتـ مـخـيـةـ فـيـ ذـاكـ ،ـ وـارـادـتـ انـ تـصـبـعـ وـتـسـتـنـيـثـ خـافـاتـ الـقـبةـ فـرجـتـ الىـ
رـشـدـهـ وـاخـدـتـ تـكـلـدـ وـتـمـيلـ فـكـرـتهاـ خـدـثـهـاـ نـفـسـهاـ انـ تـسـتـغـيـثـ بـجـوـهـ رـلـهـ يـتـقـنـهـاـ فـنـفـتـ
وـشـتـ الىـ الـبـابـ فـرـأـتـ سـعـيدـ وـافـقـاـ الـىـ جـانـبـهـ يـكـلـهـ ثـمـ اـشـارـ اليـهـ فـاسـعـ خـوـ الشـاطـئـ وـطـادـ
سعـيدـ خـوـ الـيـتـ وـالـكـلـبـ يـقـزـ حـولـهـ

فرـجمـتـ الزـهـرـاـ الـىـ مـقـعـدـهـ اوـاحـسـتـ انـهـ اوـجـدـهـ هـنـاكـ وـقـدـاصـبـتـ فـيـ قـبـةـ سـعـيدـ بـعـلـ
بـهاـ ماـ يـشـاهـدـ فـأـخـذـ قـلـبـهاـ باـلـفـقـهـ انـ وـجـاشـ المـزـنـ فـيـ صـدـرـهـ اوـاحـسـتـ باـلـاجـةـ الـىـ الـيـكـادـوـمـ تـسـطـعـ
انـ تـبـسـ دـمـعـهـاـ فـبـكـتـ ثـمـ دـخـلـ سـعـيدـ ثـمـ رـأـهـ تـبـكيـ خـحـكـ وـقـلـ « ماـ بـالـكـ تـبـكـينـ ؟ »
قالـتـ « اـخـافـ انـ تـكـونـ قـدـ خـدـعـتـنيـ »

قالـ « كـيـفـ اـخـدـعـكـ اوـ أـرـيدـ بـكـ سـوـاـ وـاـنـاـ اـنـاـ أـرـيدـ سـعادـتـكـ وـقـدـ تـرـكـ الدـنـيـاـ
كـلـاـ مـنـ اـجـلـ لـقـائـكـ »

قالـتـ « اـينـ هـنـنـ الـآنـ ؟ اـينـ اـخـيـ ؟ بـالـلـهـ اـرـفـيـ اـيـاهـ ثـمـ لـاـ اـبـالـيـ بـعـدـ ذـاكـ مـاـ يـصـبـيـنـيـ »
قالـ « تـبـلـيـ انـكـ صـرـبـيـهـ وـتـكـوـنـ فـيـ اـوـجـ السـعـادـ »
وـهـاـ فـيـ ذـاكـ سـمـاـ حـفـيرـاـ فـاجـفـلـتـ الزـهـرـاـ وـجـعـتـ تـبـلـقـتـ وـهـيـ مـذـعـورـةـ فـقـالـ طـاسـعـيدـ
« لـاـ تـخـافـيـ »

فـقـالـتـ « وـمـاـ ذـاكـ ؟ »
قالـ « هـذـاـ رـبـانـ السـفـيـنةـ يـخـبـرـنـاـ بـوـصـوـهـاـ »
قالـتـ « وـاـيـ سـفـيـنةـ ؟ »

قالـ « سـفـيـنةـ لـنـاـ فـيـ هـذـاـ النـهـرـ مـتـنـقـلـ بـهـاـ الـىـ الـمـكـانـ الـذـيـ يـقـيمـ فـيـهـ اـخـوكـ وـلـيـسـ
هـوـ بـعـدـاـ »
فـسـفـقـتـ وـصـاحـتـ « وـبـلـاهـ . . . الـىـ اـينـ تـذـهـبـ بـيـ يـاـ سـلـيـانـ ؟ الـمـ تـعـادـدـ فـيـ عـيـ الـهـابـ »

الى أخي؟ »

قال « نحن ذاهبون اليه في الماء وذاتك اهون من السفر بالبر »
 فقالت « بالله دعني .. ارجعني الى القصر قد استخفت عن رؤية أخي او غيره ..
 ويلاه ما هذا ! اين أنا؟ » قالت ذلك واطلقت نفسها عذان البكاء
 فتقدمن سعيد اليها وامسكم يدها وقال « لا تظني موءعاً يا حسته .. نحن ذاهبون الى
 أخيك .. تعالى أخرجني انظرني الى السفينة فانها ستحملنا الى منزل محبدين فيه اخاك
 فتحققين صدق قولي .. »

فاجبنت بدتها من يده وتراحت ثم اعجلت ذكرتها فرأيت نفساً منفردة هناك وندمت
 ندماً شديداً على مجيتها ولكنها لم تقطع الامل من لقى اخيها قبلت واطاعت سعيداً في
 الخروج الى السفينة فرأيت الشراع منصوباً لدعاعها للنزول نزلت ولم تجد في السفينة
 احداً من النوية وما لبثت ان رأت السفينة تخترق عباب الماء وليس فيها احد غيري
 وسعيد وجواهر

الفصل السبعون

الفشل

فلتركتم يخوضون الماء وترجع الى عابدة عند الناصر وهي تسقيه الارطبات
 وتقبنه وتناديه .. قضت بقية ذلك النهار عنده و هو يتلاهي بالحديث والشراب .. فلما اقترب
 المساء كأن الشراب والغباء والخلوة نهت فيه ذكرى ابنه عبد الله فتصور ما كان من
 تسرعه في قتلها وكيف ان الزهراء قالت له انه كان في امكانها اقناعه واستيقاؤه حيناً
 ولا منه على تسرعه فاحس بمشوق لرؤيتها ومحادتها فبعث في طلبها فلم يجدوها في غرفتها
 فلما في البحث عنها قالم يقف لها احد على خبر .. فغضب وغلبت عليه الحدة فامر برفع المائدة
 واصرخ عابدة وطلب الانفراد ليناجي نفسه في ما فمه هل اخطأ بقتل ابنه ام كان يقدر
 ان يستيقه .. فتفى بقية تلك الليلة في امثال هذه المواجهات لا يجر احد على مخاطبته
 اما عابدة فكان اخر ارجائها من حضرة الخليفة صدمة قوية للغرض الذي كانت تعيي
 نفسها له .. سارت نوًّا الى غرفة سعيد فلم تجده هناك ولا حظت من حال الغرفة .. خرج

منها خروج المسافر ومكثت على ذلك وهي تصرخ نفسها لعله يأتي فقضى هزيع من الليل
ولم يأت نفرجت تلقسها عند الزهراء فوجدت منها وكانت قد تعرفت إليها فسألتها
هل وأنت سعيداً فقالت «لا هو ولا الزهراء»

فأجللت عابدة لاحوال ودملأ قلبها على مكيدة فقالت «وكيف أتفق خروجهما معاً؟»
فهزت كتفيها كأنها تتصل من تبعة ما خطر بيها فأدرك عابدة أن تلك الوصيفة
تشك في ذلك الأمر ثم شاع في القصر كلّه خبر ضياع الزهراء ولم تبق وصيفة ولا وصيف
ولا خادم ولا خادمة الا عرف به ويعلم تمام رئيس الخصيان للبحث عنها في سائر القصور
قام يقف طالع على خبر

اما عابدة فلما عادت الى غرفة سعيد لتعيد النظر وتغرس في الاشياء فلم تزدد الا
اعتقاداً بغير امره فاقبضت نفسها وتولّها اليأس فجلست على مقعد هناك وقد انحالت عزاءها
واسترخت كأنها اصيّت بفيروس واستغرقت في المطواجن واخذت تراجع تاريخ حياتها
مع سعيد وكيف كانت متيبة به وهو يعدها بان يتزوجها وكيف جعل شرط الزواج فوز
العيديين على الامويين واستخدمها في كثير من الاحوال لتنفيذ اغراضه وآخرها
دخولها قصر الزهراء على ما عالمت وكيف اراد ان يستخدمها في الفتنة بالخليفة وكيف
انها قبلت بذلك على ان تكون هذه المهمة آخر العقبات في سبيل نيل مرآها ثم هو ينذر
من القصر بالزهراء . ولما تصورت فراره بها أجللت وجلست على المقعد والظلام حات
فقلب عليها الاقباض فاركت الى البكاء

وهي مستترقة في البكاء سمعت الآذان وعلمت انه آذان نصف الليل فتذكرت
وصية سعيد ان تقي الخليفة العقار وتشربه في تلك الساعة فغلبت عليها الطاعة الاستهواه
فنهضت واستخرجت الورقة من جيبها وعمدت الى الكأس وفيه الماء وصبت العقار
فوقه واخذت تتأمله وتقول «هل الموت مختبيء في هنا الماء؟ .. الموت ولا هذا
العذاب .. ولكن لا .. لا .. وبما صدق سعيد قيامي بعده قليلاً .. كيف يأتي وقد
فر بالزهراء؟ .. لا .. لا اخليه يفعل بل هو يشقق على قاي لانه يعلم مقدار حبي له ..
ثم وضع الكأس من يدها واسندت رأسها على الحائط فقلب عليها النعاس من
فتر التعب فنامت فتوالت عليها الاحلام المزعجة ولم تستيقظ الا على آذان الصبح فنهضت
منزعجة لصوت الآذان ورأت الكأس لا يزال كما هو فتناوله وكان الاستهواه قد ذهب
تاينه فانتبهت لنفسها وقالت «اين ذهب سعيد؟ .. هل يعود ويشقق على قلبي ..
سامحك الله ما اقسى قلبك .. وانا لم ترجع فهل اتيت حبة؟ تما الحيلة بعدك .. الا افضل

ان اموت .. ان الموت في هذا الكأس »
 ورفعت الكأس وتأملته وهمت ان تضعه على شفتها فإذا بيد قبضت على ذراعها
 فوقو الكأس الى الارض وانسكب ما فيه فاجفلت والتفت فرأة ساهراً بوجه عبوس
 يقول لها « اين معلمك ؟ .. اين سعيد الوراق الخائن ؟ »
 قالت « لا اعلم .. اين هو اني ابحث عنه »

قال « قبحه الله من خائن .. قد وشي بالامير عبد الله والنقيه وجعل قتالها وهو
 هو سبب خروجهما على الخليفة وانت معه لانك وفيقته »
 فقالت « انا ؟ .. انا المسكونة النازلة ؟ انه خاني قبل كل واحد .. واطلقت نفسها
 البكاء .. فرق ساهر لها وقال « خانك انت ؟ »
 قالت « قد عذبني عدة اعوام وهو يعذني بالزواج فاطمته الى هذه الساعة ثم ظهر
 لي انه فر .. لم يفر ؟ »

قال « يظهر انه فر والزهراء معه وقد علم الخليفة بذلك وبعث الي فأمرني ان
 ابحث عنه فلما وجدتكم هدمت بالقبض عليك لانك وفيقته »
 قالت « وبالله من ذلك الظالم الخائن .. آه لو لقاء لاقنه بيدي قد كنت هذه الاية
 انتشه واستهلك في جبه اما الان بعد ان تحققت خيانته فليس في الدنيا ابغض الى منه
 ولو تأقلي ان امتص دمه لفعلت .. » قالت ذلك وهي ترعد من التأثير وحرق اسنانها
 ومن نواميس الحب انه يزداد باتبادل او بالامل فالحب يزداد تعليقاً بمحببه اذا
 تحقق انه يحبه او استدل من تصرفه انه سيحبه فيحيا بالامل. فإذا علم بذلك ان امه
 في غير محله وان ذلك الحبيب كان يخادعه تصيبه صدمة الفشل فينقلب حبه بعضاً ويشتدد
 بغضه بالنسبة ذلك الحب — وهكذا اصاب عابدة لما تحققت خيانة سعيد لها فانه انقضت عليه
 قمة لاقنوس بها قمة اعدى الاعداء

فقال ساهر « انت طبعاً تعرفين منزله وخبأته في قرطبة وارياضها »

قالت « اعرف .. نم اعرف كثيراً من احواله » وحرقت اسنانها

قال « اتباعيفي » ومشى نحو غرفة الخليفة فاتي تماماً رئيس الخصيان « فاخبره ان
 هذه الجارية تعرف كثيراً من خبات ذلك الخائن لانها كانت معه وقد خدعها وخانها
 وكاد يقتلها فهني تدانا عليه اذا امر الخليفة بشرذمة تراقبنا نذهب الان للبحث حالاً »
 فدخل ثاماً على الناصر وقص عليه ما قاله ساهر فامر ان يرسلوا معه شرفة من
 الفرسان الاشداء ومعهم عابدة ترشدهم الى المكان فيها وألا يفاسروا عابدة بغير س

ركبت عليه وركب ساهر على فرس الى جانبها وقد اعجبيه ما ظهر من ادبها . وكان قد استلطها كثيراً منذ رأها في قصر موانع منزل الابير عبد الله وتولدت فيه حاسة الشفقة عليها الان . وكان حسن السريرة مخالص العلوية شديد الحب مع انه خصي لا يرجو من وراء الحب غير تعب القلب . ولكنه كان قد احب الزهراء الى درجة العشق ويكتفي من جها ان تبسم له واظهر رضاها بعمله وقد خدمها في التجسس على عبد الله خدمة حسنة ولذلك كان من اكثرب الناس غضباً على سعيد لقراره بها

الفصل الحادي والسبعون

الفتح

اما سعيد فقد تركناه على ظهر السفينة ومعه الزهراء وقد تولاها اخنوف واوشكت ان تأس من النجاة لكنها صبرت نفسها لنرى عاقبة الصبر . بفرت السفينة بهم ساعة والريح خفيفة وسعيد يحاول استرضاء الزهراء وهي لا تزداد الا اخضطراباً تنتقل في السفينة من جانب الى جانب تسلل الى الشاطئ . والظلام يحجب الشاهتين عنها لولا ما تراه من بصيص الانوار في بعض الاماكن

وكان جوهر في اثناء ذلك متشاغلاً لايكم . فرأى سعيداً يفافق جوهرأً وبدور من ورائه وبيده كيس معلق بمحبل قد حل له سعيد ومشى اهليبياء وجوهر مشتعل بربط محبل الشراع الى السارية وقد وقف على حافة السفينة والظلام حالك والرجل في غفلة فاستغربت الزهراء ذلك التلاصص ولم تفقه له معنى . على ا أنها لم يطلع نظرها في الامر حتى رأت سعيداً وتب على جوهر بمحبل ذلك المحبل حول عنقه ورفه برجله فسقط في الماء الى قاع النهر فاصاحت الزهراء « ويلك ماذا فعلت؟ » ووقفت وركبتها ترتجفان وهي تنظر الى الماء متوقع ان يعم جوهر فلم يتم لان في الكيس حجرأً اغرقه الى القاع . فاصاحت « ما هذا؟ » فتجاهل سعيد ثم قال « لعل جوهرأً وقع في الماء »

فقالت « تقول ذلك وانت اغرقه؟ »

قال « ما لنا وله دعينا وحدتنا »

فأيقنت عند ذلك وقوع الخطر فاصاحت فيه « ويلك يا خائن .. كيف قتلت

الرجل وهو خادمك الامين . ما اسهل القتل عليك .. »
 وكان سعيد قد قبض على الدفة وجعل يديرها نحو الشاطئ « فلم يجدها حتى رست
 السفينة قبض إليها وتناولها بيده وقال « اطلعني إلى البر »
 فتراجع وقلت « إلى أين ؟ لا . لا اطلع »
 قال « اتريدين البقاء في السفينة ؟ »
 قالت « بل الفي بنفسي في الماء . الموت خير لي من رفتك » واجتذبت بيدها
 من يده وهمت أن تلقي نفسها في النهر
 فثمنها وهو يقول « الا تريدين ان تلقي اخاك ؟ قد وصلنا الى مكانه وخلصنا
 من النعيم »

فلم سمعت قوله عاد إليها أملها واعطته فنزلت إلى البر وقد بان الفجر فافتتحت إلى
 ما حوطها فإذا هي في بستان في وسطه بيت كالذي كانت فيه من ذهنيه ورات البقال
 هناك أيضاً ثم شاهدت الكتاب الذي واته بالامس وإذا بسعيد قد قاتل المفتاح وفتح
 الباب وأشار إليها أن تدخل فتحقق أنها في البيت الذي كانت فيه منذ بعض ساعات وان
 سعيداً لم يركب السفينة الا يفرق جوهرأ في الماء فاصبحت ترتعش من فظاعة ذلك
 العمل وما دعاها للدخول أبت وقالت « لا ادخل او تقول لي أين أخي ؟ »
 قال « يظهر أن أخاك وسائر رجالها فروا من هذه الديار لما بلغتهم مقتل الأمير
 عبد الله والله أعلم انهم وجعلوا إلى القبروان أذ كان موعدنا من أول الأمر أنه إذا
 أحسنا بالفشل ونحن في أي مكان وجعلنا إلى القبروان . فما علينا الآن إلا نذهب
 إلى هناك »

قالت « الا زوال تخديعني . قد انكشفت لي خيانتك ولكن وبلاه بعد ان ضاعت
 حياتي .. » قالت ذلك وقامت على الأرض واخذت تبكي وتلطم وجهها
 فامسكها سعيد واراد انهاضا وهو يقول لها « لا تستسلمي إلى الظنون .. ما أبا
 والله خائن وإنما أحب عاشق . اقلعي عن هذا الجنون وتعالي معي إلى القبروان
 فشاهدين أخاك وبعد ذلك إذا شئت الرجوع به إلى قرطبة والا بقينا هناك
 بأرغد عيش »

قالت « الا زوال تذكر الحب والغرام وقد ظهرت خيانتك ؟ »
 فامسك بيدها وقال « أدخلني إلى البيت وأفعل ما شئت .. لا فائدة من بقائك هنا ..
 قومي أدخلني »

فاطاعتة ونهضت حق دخلت البيت وعرجت الى اقرب الفرف فوققت الى الحائط
وهي في غاية الاضطراب

بثنا امامها جنوح المتصرع وقال « آه يا حسناه والله اني احبك .. احبك .. وتحبك
كل جارحة من جوارحي ... قدر كبت الحظر واقتربت الذنب وابتلت النظائم
طبعاً بالوصول اليك . ايعلم اني اخونك ؟ سترن متى ما ينسيك هذا العذاب —
نعم اني اسألت الى كثرين ولكنني فعات ذلك في سهل جبك ارجي متيماً دفناً لا يطالع
من الدنيا سواك » قال ذلك بندلل ويکاد الدمع يتأثر من عينيه وهو شاخص اليها

الفصل الثاني والسبعون

الياس

اما هي فكانت تسمع كلامه وهي مطرقة فلما فرغ من قوله دفعته بيدها وقالت
« اتعترف بغير اهلك وذنوبك ثم تطلب اليه ان احبك ؟ اني لا احبك ولا اقدر ان
احبك .. »

فتلعلم واعتمد في مقعده وقال « نحن هنا وحدنا وترىني استعطفك واتدلل لك
فلا تستبددي بي وأسمعي لصحي .. »

قالت « ان من يزعم انه محب لا يكذب حبيته ولا يخونها »
قال « انت حبيبي ومتى خنتك ؟ »

قالت « الم ثأرت بي الى هنا لمشاهدة اخي فاين هو ؟ »

قال « قلت لك انه رجع الى القبروان ودعوتك لازهاب اليه فلم تقبلني »
قالت « هل يعقل فرارهم جميعاً ؟ »

قال « نعم هذا كان موعدنا انه يق شعرنا بالفشل لتنقل الى القبروان .. فلما سمعوا
يقتل عبد الله وابن عبد البر ويلسر واطلاع الناس على امرهم فروا — وقد اخطأوا
لائهم لواشظروا بجيشه الا ان علموا ان عدوهم الاكبر قد مضى »

قالت « من تعني ؟ »

قال « اعني اكبر عدو شحافة وتخفي بأسه »

قالت « لا اعرف احداً تعنيه الا ان يكون الناصر »

قال « هو أعني »

فأجلت وقالت « ماذ تعني بأنه مضى ؟ »

قال « لا تتعجب .. اعني أنه مات »

فتراجعت وصاحت « الناصر ! الناصر مات ؟ خسئت ان باعك اقصر من ان تناه »

وقف وهو يهز كتفيه ويقول « سوا لا صدقت او لم تصدقي فقد قلت لك الواقع ومع ذلك فهو بعيد عنا ولا شيء يعني مما اريده وإذا بقى على عنادك جعلتني احمد الى العنف »

فتقربت في وجهه وقالت « لك ان تختفي وتشير ان ترمي في هذا الماء كاربانت ذلك الخادم الامين ولكن لا يمكنك ان تتحول بتفحي الى حب وانت قادر تكتب ما ارتكبته حسب قوله التهائيا لحبك وانا لا احبك .. لا احبك .. فافعل ما تشاء .. اقتافي .. » فنظر اليها نظر الاستغراب وقال « اظنك لم تفحي مرادي .. انك اذا اقلت عن هذا العنا واطعنني ليس فقط تلقيين اخاك بل تعيشين عندني عيشة الملائكة الآمرة الناهية .. »

قالت « فهمت كل ما تقوله ولكنني لا اقدر احبك - اقول ذلك مع علمي ان موتي وحياتي بين يديك . فاقرئ »

فقال « يا الله ما هذه الواقحة »

قالت « لا تكرر الكلام . ليس عندي غير ما قلته لك وان ما تزعم انه فعلته في سيل حبي لا يزيدني الا بغضنك لك وادا خيرت بذلك وبين الموت لا اخترت الموت عليك الا يكتفيك هذا التصریح اقتل ثم اقتل » قالت ذلك وقد احرت عيناها من البكاء والغضب واخذت ترتعد وقد اصطركت ركباتها ولم تعد تستطيع الوقوف ففقدت وقد خارت قواها واسرع تنفسها واوشكت ان تصاب بنوبة عصبية ثم انقلب ذلك الغضب بمنتهى الى حزن فقلب عليها البكاء فأخذت تدب نفسها وتلطم خديها وتقول « ويلاه يازهراء .. اين انت يا سيدى الناصر .. نصرك الله على اعدائك وادا علمت بموتي فاعلم اني مت على ولاتك . فاني محظى لاجباتك عدوة لاعدائك الى آخر نسمة من حياتي .. آه .. آه .. تبا لك يا سعيد او يا سامحان او كما تسمى نفسك .. قد ارتكبت اثماً كثيرة لم يكن الا افضل لك ان تقتل نفسك وتخلي الناس من شركك ؟ امن اجل هنا الحب الذي تزعمه ارتكبت هذه الآلام - انت تكافئني ان احبك ولا طاقة لي بذلك .. »

دعني . . او اقتافي وليس لك مأرب ثالث » وما فرغت من قولها كان قد انتهكها التعب وهي لم ثم طول الايام الماضي فضلاً عن الغضب والخوف خارت قواها وهي لا تزال في ثوب صاحب البريد

اما سعيد فكان يسمع توبتها وتعنيها وهو صابر يراعي حركاتها وسكناتها ويتردد بين اذ يبيق على المحسنة او يأذنها بالعنف فدعا رآها استلقت منهوكاً القوى وقد اذ بقع لونها وكاد يغمس عليها قعد امامها ومدد يده الى راسها واراد ان يمر يده على جبينها لعله يؤثر عليها يكرر بايته او مقتطعيته خللاً لمست يده جبينها هرمت مانعوره كأنها وحشت بحرقة وفقرت منه فهض وقد اخذه الغضب وجري في اتجاهاته وجوهها اذ يحوم خصرها بتراعيه وهي تحاكي ان يمسها فاقاتت منه وقد تدل شعرها على كتفها وهمت ان تخرج من البيت الى البستان فسبقاً واقفل الباب فاصبحت سجينه ولكنها احت بقوه لم تهدها في نفسها من قبل والتفت الى سعيد وقالت « اهذا ما تزعمه من حبك ! ثب علي كالوحش الكاسر والله انك لا تأخذني الا جنة حامدة »

فتراجع وقال « كم توسلت اليك وتذللت لك فلم تقبل وهل يليق بي وانا لا يعجزني قلب الملاك وفرق الجنود ان اعز عن اخضاعك ؟ »

قال « قلت لك يذللك ان قتلتني فقط . هذا كل ما يذللك ان تفعله معي والقتل لا يهمني . . اقتافي كما قاتلت سوالي وعش هندياً . . ماذا يحييك من غضب امير المؤمنين الى اين تفر من سيف نعمته ؟ »

فضحك ضحكة شج لها المكان وقال « قلت لك ان الناصر مفعى الى حال سيله »

فصاحت « ان يذلك اقصر من ان تناه »

قال « يظهر انك لم تعرفي من انا بعد وسوف تعلمين »

الفصل الثالث والسبعون

شد الوثاق

قال ذلك واراد ان يخول عنها لتناول شيئاً في غرفة أخرى فسمع نباح الكلب نباحه اذا استغرب قادماً فاجفل سعيد وانصت وادا بدبرية خيول قد تعالت فتركته الزهراء مشتملاً بالتصت وفتحت الباب ووُبّت الى الخارج فمعثرت بالعتبة ووقفت لكنها

عادت فهضت واذا يعشرات من الفرسان قد ملأوا البستان وفي مقدامهم فارسان عرفت منها ساهر فأصاحت «ساهر .. ساهر .. الله درك .. عليكم بهذا الاخائن احيطوا بالنزل واحدروا ان يفلت منكم»

فأرولوا بافراسهم حول المنزل وجاء بعضهم من ناحية الباب خرج اليهم سعيد وقد تبدلت سخنته ووجهاته عيناه وقال لهم «لا تزعجوا افسكم ها اني بين ايديكم لا احمل سينا ولا سكينا ولا تخافوا فراري» قال ذلك بهدوء وسكنة كأن لم يكن شيء مما كان فتقدم اليه ساهر ووزراء جماعة قد صوبوا بسيوفهم الى سعيد وقال له ساهر «تسمح لي ان اشد وثلك؟»

فأذن بيديه وقال «افعل»

فأخذوا يشدون وثقه وهو ينظر الى ما بين يديه فرأى عابدة ينهم فقال «عايدة وانت ايضاً؟»

فلم تحيه ولكنها تقدمت الى الزهراء وأخذت تخفف عنها فسألتها الزهراء عن الناصر فقالت « هو في خير وكيف انت وكيف جئت معه؟»

قالت « اتيت معه لأرى اخي»

قالت « ومن اخوك؟»

قالت « يسمونه صاحب النعمة»

قالت « صاحب النعمة اخوك .. الم تريه؟»

قالت « لم اجدته هل تعرفي مكانه؟»

قالت « نعم اعرفه»

فاصاحت « بالله اين هو؟ خذيني اليه»

فثارت اليها ان تنتظر والتفت الى ساهر وكان قد شد وثاق سعيد وعده به الى اربعة بحرونه وجاء في الحال الى الزهراء ووقف متأدباً وقال « دلتأمر سيدتي بشيء اجريه اني عبدها المطیع»

قالت « بورك فيك من شهم لقد جئتني بالفرج في ابان الضيق جزاك الله خيراً»

فابتسم وقال « ان هذه الكلمة من فيك تساوي عندي كل اموال العالم - ولا

Tessi ان لعابدة الفضل الا اكبر لأنها داتنا على هذا المكان ولو لاها لم نعمل شيئاً»

فالتفت الزهراء الى عابدة وضمتها الى صدرها وقالت « ولا انسى فضلك يا عزيزي

ويزيد ذاك الفضل اذا استطعت ان تهديني الى اخي»

قالت «انا اعرف محبأً لكنني لا اقدر ان ادعوه فانه لا يصدقني بل ربنا فتكبني»
 فقال ساهر «انا اسير اليه . قولي اين هو مكانه »
 قالت « ولا انت فانه يبي الظعن بكل رجال الناصر وكل اهل الاندلس وخصوصاً
 الان بعد شيوخ مقتل الامير عبد الله »
 قال « ما الخليلة اذا ؟ »

قالت « الخليلة ان تأخذ اليه كتاباً او علامة من سعيد فانه يأتي سريعاً لانه
 يحترمه احترام العبادة . . . »

فقال ساهر « لا اظن سعيداً يعطيها كتاباً أو علامة »

قالت عابدة « انا اكلمه . . دعوني ادخل اليه وحدني »

قالت ذلك ودخلت عليه وهو مشدود الرثاق في احدى غرف ذلك البيت . وكان جالساً
 وقد اقطب حاجبيه واطرق كأنه يفكّر وبان الاهتمام في عينيه فلما طمّ ارفع بصره
 اليها فلم ينالك عن ارسال دعائين فلما رأته يبكي خنق قلبها وتذكريت ما كان له من المزلة
 الرقيقة في نظرها وكيف قضت عدة سنوات وهي ترى السعادة في روبيه والموت والحياة
 بين شتئه فتأثرت من منظره وغلب عليها الحشو ف وقالت « يسونافي يا سيدى ان اراك في هذه الحال . وانا الجانية عليك لاني دلتكم على مكانك ولكنك اذهبت رشدي باموالك »
 فقطع كلامها فاثلاً وهو يظهر التجلد « لا ذنب لك يا عابدة واما الذنب لي . . . انا
 لا ابني ما اقررتنه من اباب الشقاء لك وكم عرضت لك للوث ، اعرف هذا كلهم ولذلك
 فلا لوم عليك مما فعلت وسيسوقوني الى الخليفة او غيره وسيقتلي طبعاً . فـذا كلهم
 لا يهمني لأن الحياة لم تعد تخلو لي . . . » وسكت هنرية ثم قال « ماذا فعلت بالناصر
 هل اصابة سوء ؟ »

قالت « لا . لاني لم اقدر على تغيف امرك »

فتنهى تنهداً عميقاً وقال « الحمد لله . . اشر الان ياء العبدة كاني ممحوت من رقاد او
 الافت من اغفاء . . فإذا كنت قد تعمدت بجنة الخليفة فان لك التذكر ؟ »
 قالت « الحق يقال اني لم اتعذر ذلك قط » وقصت عليه ما وقعت بالاختصار ثم قالت
 « لعل الخليفة اذا تأكّد رجوعك وتوبيك يعقوب عنك ليستفيد من عملك ودهائك »
 فهز رأسه هزة الانكار والاستهزاز وقال « لا . لا احب البقاء بعد الان لات
 نفسك لا ترمي بدون منصب الملك او الخليفة . اما وقد تعذر ذلك فالقرار اولى . . وقد
 خدعتك وخدعتك مساواك وتحكت وغدرت رغبة في ذلك المطعم فاسقطت بيدي فاحب الان

ن اخدمك بشيء ترددت به »

قالت « لا أريد شيئاً .. سوى ان الزهاء .. وهذه قد لحقها منك عذاب شديد (خرق احنته عند مسامع ائتها) فذاك كنت تشعر بذلك فاكرمها بايصال اخيها اليها، وانا اعرف مكانه اكتفي اعلم انه لا يصدق سواك ولا يثق بغيرك فرسيل اليه علامة منك او كنباً ان يخسر الى هنا ومق جاه كفت وسيلة في تعريمه الى اخته وهذه كفارة عن كل سبة تلك معها .. »

قال « اقبل ذلك .. مدي يدك الى هذا الخاتم تداوليه من اصبعي وادهي الى المزلم الذي تعرفيه واطلي ملائماً ولا تسمه صاحب النعمة فني جاءك اعطيه هذا الخاتم وأساييه ما شئت »

فهدت يدها واستخرجت الخاتم من يده واحدـت وهي تستخرج به رودة اطرافه فتجاهلت وما ارادت الخروج نادها فما دامت فقال لها « انت تعلمين ان القوم الذين اغروا بهم على الثورة لا يزالون يستمعون هذاك وتعلمين ان الذنب في ذلك ذنبي انا ذوي لا زوال الدولة تعدد اعداءها فذا عرفت مكانهم ربما فكت بهم فتزيد ذبباً آخر الى ذنبي فبني في ان تذهب انت وحدك وتحتفظي بهذا السر وتأتيي بصاحب النعمة وحده وانا ارشده الى الحقيقة، وهذا المفتاح في جيبي لنفتحي به الباب الخارجي وهو يعود فيك تلك الجماعة ولا يعرف احد بها ولا تجدن الان منهم احداً هذاك كما تعلمين »

قالت « حسناً » واستخرجت المفتاح ورجعت الى الزهاء وقالت لها « هذه هي العلامة وانا اذهب بها لا تيمك باسم ومق جاه فان سعيداً يتم المعرفة »

الفصل الرابع والسبعون

صاحب النعمة

تذكرت عابدة باباً رجل ومشت حق ودخلت ذلك الذهليز واقتصلت منه الى الباب وطرقته الطارقة التي عرفتها خرج اليها شاب ملثم الوجه وقال « من الطارق »

قالت « افتح ونذ الرسالة » ففتح كوة صغيرة في الباب فهدت الخاتم منها وحالاً دأه فتح الباب ودعها الدخول وهو يمسحها رجلاً فقالت « ان صاحب هذا الخاتم يدعوك اليه الان انه على مقربة من هذا المكان »

قال « هل هو في طريق ؟ »

قالت « لا .. ولكنك يجب ان يراك وحدك »

تدخل وغير ثيابه وخرج معها حتى تجاوزا المعليز وهو ينفرس فيها لانه طرب لخامة صوتها وشعر انها امرأة فقفزى مسافة الطريق وهو يأسأها الاسئلة ولو ينور باعث لسمع صوتها وكما سمعه زاد استئناساً به وقد تذكر انه سمعه قبلًا وطرق باب قلبه وبعد قليل اقتربا من البستان فسمع سالم صهيل الانراس وعلم انها فراس مقالية الناصر فوقف وقال لها « اخاف ان يكون في الامر دمية يارجل او يا امرأة »

قالت « كلاً يا سيدى وسترى ذلك حال وصولك »

قال « لا .. لا اخطو خطوة من هذا المكان قبل ان ترني عنك هذا القناع »

قالت « اخاف ان تعرفي » قالت ذلك وازاحت اللثام

وحللا وقع نظرة عليها عرفها فصاح « عايدة ! اين سعيد ؟ ماذا ارى »

قالت « لا تختلف يا سالم .. اما وقد عرفتني فلم يبق باعث على الخدر وعما قليل ترى سعيداً وهو يقص عليك خبراً جديداً »

وكان سالم قد خرج عليه عباءة وتحتها السيف والذبیر وكان طوبى القامة عظيم الحيبة جميل الخلقة يكاد الشرر يتطاير من عينيه لا يهاب العشرة اذا لاقتهم وحده وقد تعود الفسرب والطعن فلا سمع قول عايدة وهو يعلم منزلتها عند سعيد واختبر غيرتها على احزابه مشى معها حتى وصل الى باب البستان وكانت الزهراء قد اخذت في احدى الغرف ريشا يقابل اخوها سعيداً ويهيد السبيل للتعارف

فتشت عايدة بين يدي سالم في البستان ومشى هو في اثرها مثية البطل الباسل لا يالي بما هداك من الخيوال حتى وصل بباب اليمت قسيقته عايدة الى سعيد واباته بجيشه وكلفتة ان يخاطبه ليستأنس به لثلاً يستنشها فصاح من الداخل « سالم ! »

فلا سمع صوته وشب اليه وهو يقول « لديك يا سيدى » وما عتم ان رآه موشقاً على تلك الصورة حتى صاح « ماذا ارى » واستل سيفه وقال « تقديك روحي من اوثنك ؟ » فجاءه سعيد بهدوء وسكنينة « تمبل يابني محن في حال آخر ،انا اوثقت نفسي ولما دعوتك لا تعرف لك اني خدعوك »

« استغرب سالم قوله وقال « خدعني ! ماذا الله »

قال وهو ينص بوجهه « نعم خدعتك وخدعت آخرين .. ماتنا ولذلك انت انت اصحت نصيحة الوالد .. اعلم يا سالم ان المشروع الذي قناله فشل وقد تعلم فشله من مقتل

الامير عبد الله ورفيقه لاتهم اتهموا بالاتمامه اليها .. والصواب الآن الرجوع عن هنا
الاصل ..

فصاح « نرجع عنه ؟ . انا لا ارجع .. خصوصاً بعد ان جاءك ذلك الخليفة
برغبته في الاقصاص فـي فقد بلغني انه كتب ذلك على الاوامر الذي اهان فيه الاعدام »
قال « نعم قد فعل ولكن لا فالله من مقاومته وليس من الحكمة مقاومته عيناً
فالرجوع الى الصواب اولى .. اخبر بذلك سائر الرفاق »

قال « لا حاجة الى اخبارهم فانهم تفرقوا من الامس خوفاً بعد اطلاعهم على
ذلك الخبر »
قال « وانت »

قال « كنت حازماً على البقاء والمثابرة على السعي في هذا السبيل عملاً بما يشتهي في
من الآفة وطلب الحق .. ولكن »

قال « قد قلت لك رأيي في هذا شأن »

قال « وانت الى ابن ذاذهب بهذا الوثاق »

قال « اني ساسق الى الخليفة ليحاكمي »

قال « وكيف قبل بذلك - دعني اخيك من الآن بمحمد هذا الحسام »
قال « لا تفعل .. »

قال « اذهب اذاً معك للمحاكمة او القتل ولا تخلي عنك »

قال « تأني معي ولكن لتكون سعيداً صاحب القول الفصل والكلمة النافذة في
باطل الخليفة »

فدعش لهذا القول ولم يفهمه فقال « ماذا تعني .. ان الناصر لا يكاد يقع بصره
على حتى يأمر بقتل لاني كنت اكثر اعدائه مجاهرة بمعاداته »

قال « نعم .. ولكن لك شفيعاً لا ترد شفاعته »

قال « من هو ذلك الشفيع ان لم يكن انت »

قال « الا تذكر اختك حسناه »

فقال « دعني من ذكرها فـي فقد مضت عدة اعوام لم اذكر اسمها ولكنها لم تبرح
صورتها من ذهني .. ما الذي يبعث الى ذكرها الآن »

قال « لاتها ستكون شفيعة لك عند الخليفة »

فصاح قائلاً « اخي حسناه اهل هي حية باقية ؟ ابن هي .. ام انت تعني شيئاً آخر »

قال « اختك حسناء حية وهي الآن صاحبة المقام الأول عند الناصر »

الفصل الخامس والسبعون

القاء

فاطرق سالم وهو يفك في ما سمعه ولا يصدقه . ثم رفع يصبه إلى سعيد وقال « أصدقني الخبر يا سيدى .. فقد فهمت منك مراراً أنها ماتت »
قال « نعم قات لك هذا ولذلك اعترف لك الآن أنني خدعتك فإن اختك لازالت حية وهي أقرب الناس من الناصر »

قال « يا العجب .. ماذا اسمع ؟ . كيف غاب عني هذا الامر كل هذه الاعوام وانا على مقربي منها ؟ .. »

قال « لأنك لا تعرف اسمها الجديد فكما غيرت اسمك من سالم إلى صاحب التقطة غيرت هي اسمها من حسناء إلى الزهراء »
نصرخ وقد دهش وقال « الزهراء ! .. الزهراء حظيبة الناصر اختي .. ماذا تقول ؟ .. »

قال « نعم إن الزهراء اختك وهي شفافى في جبك »

قال وقد جحظت عيناه « هل تعلم هي بوجودي ؟ .. »

قال « كانت تخبيك ميناً إلى الامس فأخبرتها بوجودك حياً فهربت من بيتك الخليلة واتت معي ليلاً لزراك وتنصح لك بالرجوع إلى طاعة الناصر »
فصاح وقد أخذته الدهشة « أين هي ؟ .. »

قال « هي قريبة منك » وأشار بعينيه إلى ذلك المكان

قال « هي هنا الآن ؟ .. وتلتف حوله

وكانت الزهراء ساعة رجوع مابدة مستلقية في بعض غرف البيت للراحة من عناء ذلك الليل فدخلت عليها مابدة وحدها فهمست وسألتها عن سالم فقالت « انه سبائى بعد قليل لاتها تركته في بيته يتأهّب للمجيء »

فقالت « أصدقني .. انفك لم تجديه او لعله فرّ أو مات ؟ قولي »

فقالت « وحياتك هو حيٌّ وسيأتي بعد قليل »

صدقها وصبرت نفسها وهي كلاما سمعت حركة أو صوتا تحسب اخاها قادماً وعايدة تشاغلها ريشاً يفرغ سعيد من التعريف . . . وإذا بالزهراء نهضت طلأة وقالت « اسمع صوت أخي . . . هذا صوت يرن في أذني . . . » وهرولت نحو الباب فشت عابدة معها ولما دنت من الغرفة التي كان سعيد فيها سمعت كلاماً فقالت « اسمع سعيداً يتكلم . . . من؟ »

قالت « ستعلين بعد قليل »

قالت « أظنه يتكلم أخي . . . » واقتربت من الباب وكان مغلقاً فسمعت اخاها يقول « هي هنا الآن؟ »

فعرفت صوته ففتحت الباب وكان هو يقول ذلك وينتفت حوله فوق بصره عليها وهي لازمال بلباس صاحب البريد فلم يعرفها . أما هي فوقت لحظة شعر ملاعده وتسرس فيه . وما عانت أن الفت نفسها عليه وهي تصرخ « أخي . . . أخي سالم ! » فلما سمع صوتها عرفه فضمها إليه وتمانقا وتصاما وعايدة وسعيد ينتظر أن اليها نظر الاشواق وسعيد كانك ابدلته بسواء فقد تغير قلبه وتبعدت عواطفه وأحس بالفطيعة التي اوشك ان يرتكبها لوم متداركه عابدة بالجند ويقبضوا عليه . فأنه كان حازماً على الفتك بها وبأخيها إذا هي لم تتبادل الحب والغرام . فلما رأى تعاقبها والمدوم منساقط من عينيهما فرحاً بذلك المقام شعر بخمار الذنب الذي كان حازماً على ارتكابه وأحس بلذة الاحسان في هذا اللقاء لأنها كان وسيلة التعارف بين الآخرين منها كانت قصده فعل يتأمل حركاتها فكانا يهزقان لحظة ريشاً يتأمل احدهما بوجه صاحبه ثم يعودان إلى العناد

أما عابدة ففرحت لاتها كانت الوسيلة في إنفاذ الزهراء و أخيها وسرها على الخصوص إنها لم تقتل الخليفة ولا هوعلم أنها كانت عازمة على قتلها وإن لم يكن ذلك العزم من ذنبها أما سالم فأنه بعد ان قبل اخته من اراداً تباعد ونظر إلى ما حوله ثم نظر إلى اخته وقال « لا أزال أحس بي في منام لاني كثيراً ما ضمتك في منامي وقبلناك مثل هذه التقبلاط ثم استيقظ فلا أجده أحداً »

قالت « أنت في يقظة يا حبيبي وقد تمت سعادتي الآن بباقيك »

فقال « أليس الفضل في هذا الاجتماع أصدقنا سعيد؟ »

قالت « نعم له فضل . . . » وتهنت فصاح فيها سعيد وقال « أنا أولى بهذه النهد يا حسناه » قال ذلك وهو مقلول اليدين فلم يستطع سالم مشاهدته على تلك الحالة

فقال لاخته « حلوا وناف سعيد وانا كان له ذنب فهو لا يفرط »
 فاعتبرته سعيد قائلاً « لا . لا اريد ان يجعل ونافي ... »
 فحوّلت الزهراء انتباهه الى عابدة وقالت « ان الفضل الاكبر في هذه اللقاء حقيقة
 هو طنه الادبية الطيبة . هل تعرفها ؟ »
 فهز رأسه بجسراً وقال « نعم . نعم اعرفها »
 قالت « وهل عرقها قبل الان ؟ »
 قال « عرفتها مع سعيد الوراق يا للعجب ماذا أرى ؟ اهذا سعيد صاحب الرأي
 الصائب والقول الفصل »

اما عابدة فكانت قد توسمت في ملامح سالم وحركاته تودداً اليها واعجاباً بها فتحرر
 قلبها وهي اول مرة تحرر قلبها لغير سعيد فغضبت لنحركه خوفاً من ان يسوقها الى بلاده
 جديدة فاحببت ان تلهو عن ذلك بشيء آخر فقالت لزهراء « وهل نسيت يا سيدتي
 ساهراً ؟ »

قالت « لا انسى فضله من وجوه كثيرة أما لقاء اخي فلما مديدة به ذلك
 بنوع خاص »

ثم نادت ساهراً وكان في طرف البستان مع سائر الحصبة فلقي ووقف متأدباً
 فقالت له « هنا اخي صاحب النعمة »

فاجفل وصاح « اخوك ! . هذا اخوك ؟ وتقولين صاحب النعمة . . اليش هو
 طلبة امير المؤمنين . . اعوذ بالله كيف يكون اخاً لاعز الناس عنده ؟ »

فتمنت « وسيكون هو من اعز الناس عنده لانه اخي »
 فنفي رأسه موافقاً وقال « نعم سيكون والآن يا سيدتي الا نعود الى القصر
 فان اهله في قلق شديد لغيابك »

قالت « نهفي حالاً »
 تخرج وامر الصفالية ان يتأنبوا لارکوب وبجعلوا سعيداً محقرراً ودو معهم .
 وسار الجميع قاصدين القصر

الفصل السادس والسبعون

الحاكمة

أما القصر فكان أهله في وجل لغيب الزهراء . وقد علموا بذلك ساهر والصقالبة للتفتيش عنها والخلية أكثراً يطير قلقاً وغضباً ولو أخذت الزهراء وهو في ريب من أخلاقها لكان وقع المصيبة عليه أخفَ كثيراً . أما الآن بعد أن ظهر له من حبها وأخلاقها في خدمته ما ظهر فضلاً عن تعقلها ورويتها فاصبح شديد التعلق بها يفديها باعزم ما لديه

ففعى معظم ذلك النهار في قلق لا يرتاح له بال وهو يرسل الوصيف أثر الوصيف يتشرفوا الطريق عن بعد وصعد هو على منارة من منابر جامع الزهراء ليشرف منها على الطريق المؤدي إلى قرطبة فلم يرب شيئاً

وفي الأصيل جاء البشير برجوع ساهر والصقالبة ومعهم سعيد والزهراء وعايدة ورجل آخر لم يعرفه فأمر أن يؤتى بهم إلى بيت النمام في قصر المؤنس وجلس لهم مجلسه يوم جاءته عايدة وسعيد حيث البركة وعايدها التأمين الذهب وغيرها فادخلوا عليه اولاً الزهراء وهي لازال بلباس صاحب البريد . فلما رآها استقر بها فكشفت عن وجهها وأكبت على يده قبلتها فلما عرفها صالح بها « ويلك ما هنا ؟ » فقالت « هنا الثوب الذي تذكرت به ساعة الفرار »

فأقطع حاجبيه وقال « ساعة الفرار ؟ .. لماذا تفرّين أرأيت مني إنكاراً لحقك ؟ وانت اعز الناس عندى لا تأكذبه من صدق مودتك واخلاص حاوينك .. كيف تفرّين ؟ .. »

قالت « فررت الى اخي لي كنت قد اضنته ثم بلغني انه موجود في مكان بالاراضن فذهبت لأراه »

قال « وما كان اجردك ان تطلبني احضاره فيبيئك ولو كان وراء سد ياجوج »

قالت « نعم اعلم ذلك ولكنني اخاف على أخي من أمير المؤمنين »

قال « تخافين على أخيك مني ؟ »

قالت « نعم يا سيدي .. أنا خوفني منك وحدك وليس من سواك »

قال « الى هنا الحمد تسيئين الظن في ؟ هل اكافئك على صنيعك الجليل باذى

أخيك؟»

قالت «أيعدني أمير المؤمنين إذا جاءه أخي وكان مذنبًا أن يغفو عنه»

قال «لَكَ ذَلِكَ»

قالت «ولو كان ذنبه كبيراً؟»

قال «ماذا عسى أن يكون ذنبه نحوبي؟»

قالت «قد يكون من الخارجين على الدولة...»

قال «اعفو عنه أكراماً لك ولو كان صاحب التهمة»

قالت «هو صاحب التهمة يا سيدتي بعينه؟»

فاستغرب قوطا وقال «وكيف يكون صاحب التهمة أخاك؟»

فقصت عليه حديثها عن أخيها باختصار وما كان من أمر سعيد وكيف أحبها ولم تُحبه وما فعله إلى أن فرّ بها بالامس وكيف اقتنها ساهر وعابدة وكان الخليفة يسمع كلامها باستغراب ودهشة فلما فرغت منه أنجات اشياء كثيرة لم يكن يفهمها وتبين له امور كثيرة تزيد ثقته بالزهراء فقال لها «لقد عفوت عن أخيك ابن هو؟»

فأمرت أحد الفلان ان يدعوسالله نفرج وعاد به فدخل سالم وهو مشتى بشية الشجاع مع احترام فاعجب الناصر بما في وجهه من دلائل البساطة والجلال فشاررت اليه الزهراء أن يقبل يد الناصر ففعل ووقف فقال لها الناصر «انت صاحب التهمة؟ قد باغنا خبر خروجك علينا في جلة الخارجين فما الذي رايته من الناصر حتى خرجم عليه؟» ثنا زافت الزهراء ان يقول اخوها كلمة تعجب الناصر فيعود الى الاستقام فقالت «لم يعف أمير المؤمنين عنه؟»

قال «عفوت ولكنني لا افهم ما يحمل هؤلاء على الخروج وكان الاسلام على وشك السقوط فانهضته وكانت الدولة بمعزلة فجعت شتاها وقررت اعداؤها ، لم ارفع شأن الاسلام بعد ان كادت هيته تذهب بما آتاه أصحاب بقداد من اسباب الضعف فأثناني ملوك النصارى يتلفون ويتقربون وهادئي أكبر ملوك النصرانية وخطبوا مودتي ،ليس في ذلك عز للاسلام والملائكة من استطاع ذلك من الخفاء قبله ، واتم مع ذلك تآمرون وتواطؤن» وكان يقول ذلك وصوته يرتفع من الغضب حتى خافت الزهراء غضبه ونظرت الى أخيها مخافة ان تبدو منه كلامة تبعث على دياج الناصر

فسمعت من الخارج صوتاً يقول «لاذب لاحد من المتأمنين انما الندب
لواحد منهم»

الفصل السابع والسبعون

موقف هائل

فعرف الخليفة صوت سعيد فامر بادخاله فادخل وهو موئق البدين وليس على وجهه شيء من مظاهر الخوف وإنما كانت عيناه حمراوين يكاد الشرر يتطاير منها فلما وقع نظر الخليفة عليه هاب متظاهر وامر ان يدخل وثقة فتقدم بعض الحرس الى حبه ووقف بضعة منهم الى جانبيه بالسيوف المسلولة وأشار بدخول سائر القادمين فدخلت عابدة فوقت بمحاب الزهراء ودخل ساحر ووقف متأنياً بمحاب سالم فامر الخليفة سعيداً ان يتقدم حتى يقف في وسط القاعة فتقدم بقدم ثابتة وجانش رابط فقال له الناصر «انت سعيد الوراق صديقنا وموضع ثقتنا؟»

فلم يجب

فقال «أهذا جزاً لنا لانا قربناك وذكرناك وجعلناك مستشارنا؟ تحرضنا على قتل ولدنا لانه خرج علينا اوات السبب في خروجه ثم تجاسر على الفرار بمحاربتنا الزهراء من قصرنا؟ هل بعد ذلك من مسوغ للرقن بك؟ .. يسوعي والله ان اخسر شيئاً عاقلـ حكماً مثلك ولكن بالعجب كيف ارتکبت هذه الفظائع كيف جعلت هذه الدنيا سيدلاً اليك فاقتربت اموراً يتزره عنها الجهلاء واهل العيش واموراً يستحيي اهل الفجور من ايمان مثلها. اين كانت حكمتك اين كان عقلك وسداد رايك بل اين كان تدبرك وانت تعلم ان فرارك بالزهراء لم يكن ليتم لك وبعد الرحمن حيـ فانه يـ الا ارض عليك خيلاً ووجلاً وباقيك صاغراً ذليلـ .. اذا لم يكن لك شرف يعصمك عن ارتكاب الرذائل ويردعك عن خيانة من اكرمك وقدسك لم يكن لك عقل يدلك على الخطأ الذي يهدلك من هذه الجراءة؟»

وكان سعيد واقفاً يسمع كلام الناصر وقد تكتفت ووقف مستريحاً ينظر الى بيت من الشعر مطرزاً على ستارة من ستائر تلك القاعة وسائر الحضور ينظرون اليه بانتظارون ما يعتذر به عن نفسه وكالم يعرفون قوة حجته ورجاحة عقله ورغم ما اساء به اليهم

لَا تزال مُنْزَهَةً رَفِيقَةً فِي أَعْيُّنِهِمْ

أما سعيد فلما سمع سؤال الناصر عن سبب جسارته وكيف يفر بجاريته ولا يخشى
بأنه لنظر إليه وقل «اما سوء التدبير فلا أقبل التلطيخ به فان تدبيري لو عرفه المولى
ما وجد به خرفاً ولكن القضاء قسم ، فصاد ذلك التدبير لاقف هنا الموقف»

فقال الناصر «كماك دبرت الوسيلة لقتلي ايضاً و لم تجده .. فكيف خطرك لك ان
تفعل ذلك ونحن لم نغفر في اكرامك وما الذي كنت توقنه من اقتراف تلك الجريمة -
انها لم تكن لتفنيك باحال ولا لترفع منزتك بل قد تكون سبباً في الخط من شأنك حتى
عند نفسك يوم يثوب اليك رشك وترى املك قتلت الابريا، وأسألت الى من احسن
الله ٤٠٠

فَعَتَدَ سَعِيدٌ فِي مَوْقِفِهِ وَوَجَهَ خَطَايَاهُ إِلَى النَّاصِرِ بِاهْتِمَامٍ وَجَرَأً وَقَالَ «يَعْلَمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِي شَيْئاً لَا أَعْلَمُهُ وَقَدْ اعْتَرَفَ لِي بِسَبَادِ الرَّايِ وَالْحَكْمَةِ وَالْتَّعْقِلِ وَلَكِنَّهُ يَسْأَلُنِي عَمَّا حَاجَنِي عَلَى مُخَالَفَةِ الصَّوَابِ وَتَعْرِيَضِ نَفْسِي لِذَلِكَ الْخَطَرِ . . لَمْ يَحْمَانِي عَلَى ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَمْعٌ فِي مَالٍ فَإِنَّ الْأَمْوَالَ كَثِيرَةٌ عَنِّي وَلَا الْحَيَاةُ قَاتِلٌ لَا أَرِي السَّعَادَةَ بِهَا . . . قَدْ ارْتَكَبْتُ كَثِيرًا مِنَ الرَّذَائِلِ . . . ارْتَكَبْتُ الْخِيَانَةَ وَالْغَدَرَ وَالْكَذَبَ وَأَنَا عَلَمُ جَيْداً أَنَّهَا رَذَائِلٌ وَانْمَلِي يَجِبُ أَنْ يَزْرَعَ نَفْسَهُ عَنْهَا . . وَلَمْ ارْتَكَبْهَا طَعْمًا بِالذَّالِّ أَوْ الْجَاهِ كَمَا قَاتَلَتْ وَلَكِنْ . . . وَلَا وَصَلَ إِلَيْهَا غَصٌّ وَتَفْسِيرَتْ سُخْنَتِهِ وَتَشَاغْلَ بِلْعَ رِيقَهُ وَالْجَبَعَ سَكُوتٌ وَقَدْ امْسَكُوا تَفَسِّهِمْ تَشْوِقًا لِسَمَاعِ مَا يَعْتَرِرُ بِهِ سَعِيدٌ عَنْ نَفْسِهِ فَلَمَا سَكَتْ جَعْلُوا يَنْظَرُونَ بِعَضِّهِمْ إِلَى بَعْضٍ

اما سعيد فرفع كمه مسبح به دمعة اغمدرت على خده واستدرك فقال « لا يظنن
امير المؤمنين انني ابكي جزعا من الموت اني لا ااري المعاودة في الحياة كما اني لا اراها في
الجاه ولا المآل . »

الصل الثامن والسبعين

三

فاستغرب الخليفة تعبيره وشوق ائمته -حيث قال له «انا اعلم انك لا تخاف الموت لان اعمالك المأخية تدل على ذلك ولتكن سألك عن سبب اقدامك على الخيانة وات اعقل

من ان تأتیها عن جهل - ونحو امیر المؤمنین ايضاً لم تخش باسه؟» فاجابه سعید «ان الرذيلة التي لا يجوز ارتكابها مع امير المؤمنين لا يجوز ارتكابها مع صائر الناس . وأستاذن الامام الناصر بكلمة اقوطا وانا في آخر يوم من ايام الدنيا - ان المنصب الذي يشغله امير المؤمنين اغا ساقته اليه التقادير وهو غير مخيز ولو وجد فيه صراحت لبلغ الى مثله .. لا تنقض ياسيدى .. ولم تولد من بيت الخلافة وينصرك الناس على قتل الناس لم تبلغ هذا المقام فاتت وعلت اليه على جسر من الجحاجم فوق بحر من الدم .. واي خبر في ذلك ؟ فلما رفعوا مقامك وبایعوك وجعلوك خليفة بنيت التصور وأكثرت من الجواري والخطيبان وامررت الناس ان يعظموك وقد نعلوا وهم يحببون لك فضلاً عليهم والفضل لم في صيانة دولتك والدفاع عن حيانتك - ثم انت تذكر على احدهم بزءاً صغيراً مما تبوزه لنفسك .. ولا ذنب لك في ذلك فـ«نها القاعدة التي جرى عليها الناس من قبل ولكنها ليست هي اصياب السادة»

فامتنع الناصر من تلك الجسارة لكنه «بل وصبر عليه حتى وسعة وقال «ربما كنت مصيباً لكنك لم تحيينا بما حملك على تعریض نفسك للخطر فـ «لا» عن ارتكاب الخيانة وغيرها من الرذائل وانت الحكيم العاقل ؟»

قال «لست اول حكيم عاقل ارتكب الرذائل في سبيل مطلبه»

قال «نعم ولكننا لم نفهم الغرض الذي حملك على ذلك»

قال «ان الغرض الذي حملني على هذه الرذائل من اشرف الاغراض بل هو اشرفها جميعاً لأن عليه يوقف عمران هذا الوجود بل هو سنة من سنن الله في خلقه وفضيلة من اكبر الفضائل - واما سواي فـ«نه يرتكب الرذائل في سبيل اغراض يخالف سنة الوجود وقد نهى عنها الشرع والعرف .. كمن رجل ارتكب الغدر والفتنة والقتل الناس» لم يحسب الملك او اخلاقه وهذا المذهب نفسه مشوب باهلال هذه الرذائل لأن طالب الملك متى قاله حلال لنفسه كل محروم وساعدته الناس على القadi في الاشارة وصار يحسب اموال الرعايا وانه .. هم حقاً له فيني القصور ويزخرفها بالتحب والفحة ما يسمونه له من تعب القراء ويقتفي الجواري على اختلاف انواعها ويتحكم برقاب الناس واموالهم كما يشاء ولا يرى لسواء حقاً بعشرين مشار ذلك .. بل ويل من يجرأ على الاعتراض ... ولم اكن على باب الآخرة لم اقله ..»

فذهب الجheim لهذه الجسارة مع ما فيها من الحكمة البالغة ولم يمحى احد قبله على مثل هذا التصریح في خمرة خلیفة شدید الباس ولكنهم غضوا من ابصارهم تهییئاً من اخليفة اما الاصغر فظل على اقمار الاستخفاف بما يسمعه ولم يشاً ان يجعل نفسه المقصود من

ذلك التعریض فقال « صدق ان كثیرین من طلاب الملاک لم يتألوه الا بعد سفك الدماء و هو لاء اخواننا العباسیون اكبر شاهد على ذلك وقد وفیهم ابو مسلم الظراسی الذي كان يقتل على التهمة . لكنني لا ازال انتظر ان اسمع منك السبب الذي حملك انت على ما فعات ولم الح عليك بالاستفهام الا لاستفید من حكمتك فقد كنت كما تعلم كثیر الثقة بعلمه والاعجاب بتعقلك » .

الفصل التاسع والسبعين

الحب

فتشهد سعيد تهداً عميقاً واجال نظره في الحاضرين حتى وقع على الزهراء وكانت شاخصة فيه وقد غطت رأسها بالنقاب واخذ منها الاعجاب به كل ما أخذ فلما رأته يتذكر اليها حولت نظرها عنه اما هو فلما وقع نظره عليها ابتسامة شفت عن معانٍ كثيرة وتهداً ثانية وقال وهو يوجه كلامه الى الناصر « ان السبب الذي حملني على ما ارتكبته اعما هو اشرف الاسباب بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتأليف قلوبهم وحفظ انواعهم وهو الذي امر به الشرع واوصى به الله وقد امتدحه الحكماء وتفزّل به الشعراء بل هو اكبر الفضائل — ان ذلك السبب يا سيدي هو « الحب » هذا هو الذي حملني على ارتكاب ما ارتكبته . فهل في الحب ما روقد جاء ذكره في القرآن والحديث ؟ اليس هو سبب نظام الكون ؟ »

فاما قال ذلك اجفلت الزهراء واطرقـت حيـاءً لـما رـأـيـاـهـاـ اـنـ يـشـيرـاـلـىـ جـهـهـ ايـهاـ وـلـمـ يـخفـ غـرضـهـ عـلـىـ النـاصـرـ فـقـالـ لهـ « وـلـكـنـ اللهـ يـنـهـيـ عـنـ التـعـدـيـ عـلـىـ نـاسـ الـآـخـرـينـ » قال « نعم يا سيدي ولكن الحق الطبيعي في الحب للمحب الاول خلافاً لما هو جار في اعمال الناس فان القوي يفوز بما يريد والضعف يذهب حقه هدرأً » قال الناصر « وانما كان الضعف حكماً ولا تقضي عليه حكمته ان يخاف العقاب فيبتعد عن هررين الاشد »

قال « نعم . اذا استطاع الى ذلك سبيلاً ولكن غلب على امراه وتعکن الحب من قلبه حتى اعمى بصيرته واصبح لا يرى للحياة معنى بدون الاجتماع بمحبته — كما يعمى طالب الدنيا بزخر فنها وكما يعمى طالب المباداة فلا يرى غير مطلبها وكما يعمى طالب اتجاه

فانه يقتل ويغدر ويخون في سبيل الحصول عليه وال Sidneye ظالم واستبداد تناقض الحرية الطبيعية التي منحها الخالق لبني الانسان . واما الحب فانه شرارة طبيعية ام ، الخالق بها وقال في كتابه « ومن آياته ان خلق لكم من افسكم ازواجاً لسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فلا غرو اذا اعرض طلبه فنث او قتل او غدر وخصوصاً اذا كان الحب سبق سواء الى ذلك الحبيب .. »

فلم اسمعت الزهراء قوله خافت ان يظن الاختلاف بينها وبين سعيد تبادر المجة قبل عبيتها اليه فاستأنفت بالكلام فأذن لها فقالت « ولكن شرط المجة الصحيحة ان تكون متبادلة فاذ لم تكن كذلك بطلت فضيلتها واصبح طلبها تعدياً .. »

ففظار سعيد اليها وهي تتكلم وقد ترتعن صوتها الرخيم فلما فرغت ظل ساكتاً ينظر اليها كأنه يتوقع ان تعود الى الكلام فلما علم انه فرغت قال « ان الحب فضيلة منها اعترضه او تقبلت عليه الاحوال لانه اساس العمران والمحبون هم الفضلا؛ ولو لام ثلات الدنيا من الرحمة والاحسان . ولو لا الحب يا حستاء لكان الحياة كالصحراء القاحلة ، او ها اجاج وهو اها سوم وانا يجعل ما ذهباً وسموها نسيناً « الحب » آه من الحب » ولما قال، ذلك شرق بريقه ثم اجهش بالبكاء والاحسر ينظر اليه ويعجب وكان اول من شارك سعيداً بالبكاء عابدة فانها لم تستطع امساك نفسها لما غاب على قلبها من التذكرة الماضية وكيف كانت طلاقة القلب بسعيد وهو يضحك منها ويستخدمها في سبيل مواعدهما ما زالت تشعر بالعاطف عليه فلما رأته يبكي بكت

اما الزهراء فاجابت سعيداً قائلة « ولكن اذا تأكد الحب ان حبيبه لا يحبه ولا يقدر ان يحبه ولا سبيل لاوصول اليه . الي من الحكمة ان ينساه ويتسلى عنه ؟ »

فنهى سعيد وقال « لي عقل يجعل المشكلات ورأي يرد السؤال الجارف وعزم يهد الجبال الراسيات وقد تفاقت على كل انواع المشاق . لم تعرض لي مشكلة الاحلالها ولا اردت امرأ إلا قدرت عليه - الا الحب فانه غلبي على امري وذهب بمعزتي وقضى على عقلي وحكمتي .. »

فقالت « فماذا يفعل الحب اذن ؟ ولا حيلة له الى حبيبه ؟ »

فهذا سعيد يدله الى حبيبه وقال « اذا تأكد بأنه من حبيبه فقد أكده انه مائب اذا لا حياة للمحبين بغير الحب و اذا عاشوا فيعيشهم الشقاء فما عليهم الا الرحيل من هذه الدنيا » قال ذلك واستخرج ورقة ملفوفة ووجه كلامه الى الزهراء وقال « اني اموت فداء الحب » وانتفت الى عابدة وقال « ساحبوني يا عابدة فقد ظلمتك كثيراً » ونظر الى

الناصر قال « ليس لك عندك غير هذه الروح عقاباً على جرائي . خسنتها » والقسم
ما في تلك الورقة

— ٢٠٢٣٢٢٢٢٢٢ —

الفصل الثانيون

عايدة وسلم

فعلم الناصر انه نتناول السم فصاح فيه « ويالله اقتل نفسك ؟ . تمبل .. اني احب
استيقائك وأضن بحکيم عالم مثلك ان يموت . فدكنت احب ان استيقيك ماذما فعلت ؟ »
قال « استيقيني لاخدمك واموت حسرة .. وقد يشت من حبيبي ؟ لا حياة
لي الا بالزهاء »

قال « اهديك مذلت من الجواري اجل منها .. »

قال « الحب يا عبد الرحمن لا يستبدل ولو لا ذلك لكان هذه (وأشار الى عايدة)
اولى الجميع بالبدل ولكن قلبي لا يرضي احداً غير هذه (وأشار الى الزهاء) فاني
احسن كأنها شطر من قلبي ولا يعيش الانسان بنصف قلبه .. فاعنديها اتها جوهرة
جمعت بين الصدق والاخلاص ولكن لك وحدك فقط .. »

قال الناصر « كيف تقتل نفسك بيديك ؟ »

قال « خبراً من ان يقتلكи الجلاد »

فصاحت عايدة « اذا كان هنا دواء المحب اذا يئس من حبيبي فما اجرني انت
اقتل نفسي .. » واخندت تبكي فادركت الزهاء مقصودها فاقتربت منها وأشارت اليها
ان تسك

اما سعيد فلم يمض لحظات حتى بدأ الالم في بطنه واسترخي فاشار الناصر ان يحمل
من ذلك المكان وقد شق عليه امره لانه كان يحبه وبمحترمه ولو بقي جائلاً لاستخدمه في
بعض اموره

خلوه وقد كاد يغمى عليه وبعد قليل مات فدفنه

اما الناصر فيبعد خروج سعيد تراجع واعتبر وزادت الزهاء رفعه عنده وازداد
جيلاً طا والفت اليها وابتسم فرأها تنظر في الارض كأنها تفكير فقال « كل ذلك جرى
لا جلاك ؟ .. »

قالت « اني حقيرة لا استحق هذه العناية ولكن الرجل قصير العمر وحده الله »
 قال « نعم انه دلنا على فضلك وصدق مودتك . . فات اليوم ارفع مسأله عدداً
 من قبل ، فاطلبي ما تثنين »

قالت « ان نعم مولاي متوايله على جاريته وقد ندم حظي بعفوه عن اخي هناوانها
 اشارك هذه المسکينة بمحاطها لانها قاست العذاب في اثناء مسامعي ذلك الرجل الغريب
 وكانت تحبه وهو لا يحبها وهي تخادعها وهو يخادعها فاحب ان تزال تعزية تنسيها ذلك »
 فالثفت الناصر الى سالم وقال « يا سالم . . هل انت متزوج »

قال « كلا يا سيدى . »

قال « انزوج عايدة انها اديبة عاقلة »

فانشق وجهه وحنى رأسه وقل « ذلك حظ كبير لي وكيف لا اختار نصي
 اختاره لي امير المؤمنين ؟ »

فأمر الناصر ان تزف عايدة الى سالم وان يخصص لها قصر يعيشان فيه برحد ونهاء
 فقالت الزهراء وهذا ساهر يكون في بطانة مولاي الناصر فانه اهل للناصب الكبير
 قال جملوه من خاصتنا — وانتهى المجلس على تلك الحالة

﴿ ثُمَّ قَتَ الرَّوَايَةُ ﴾